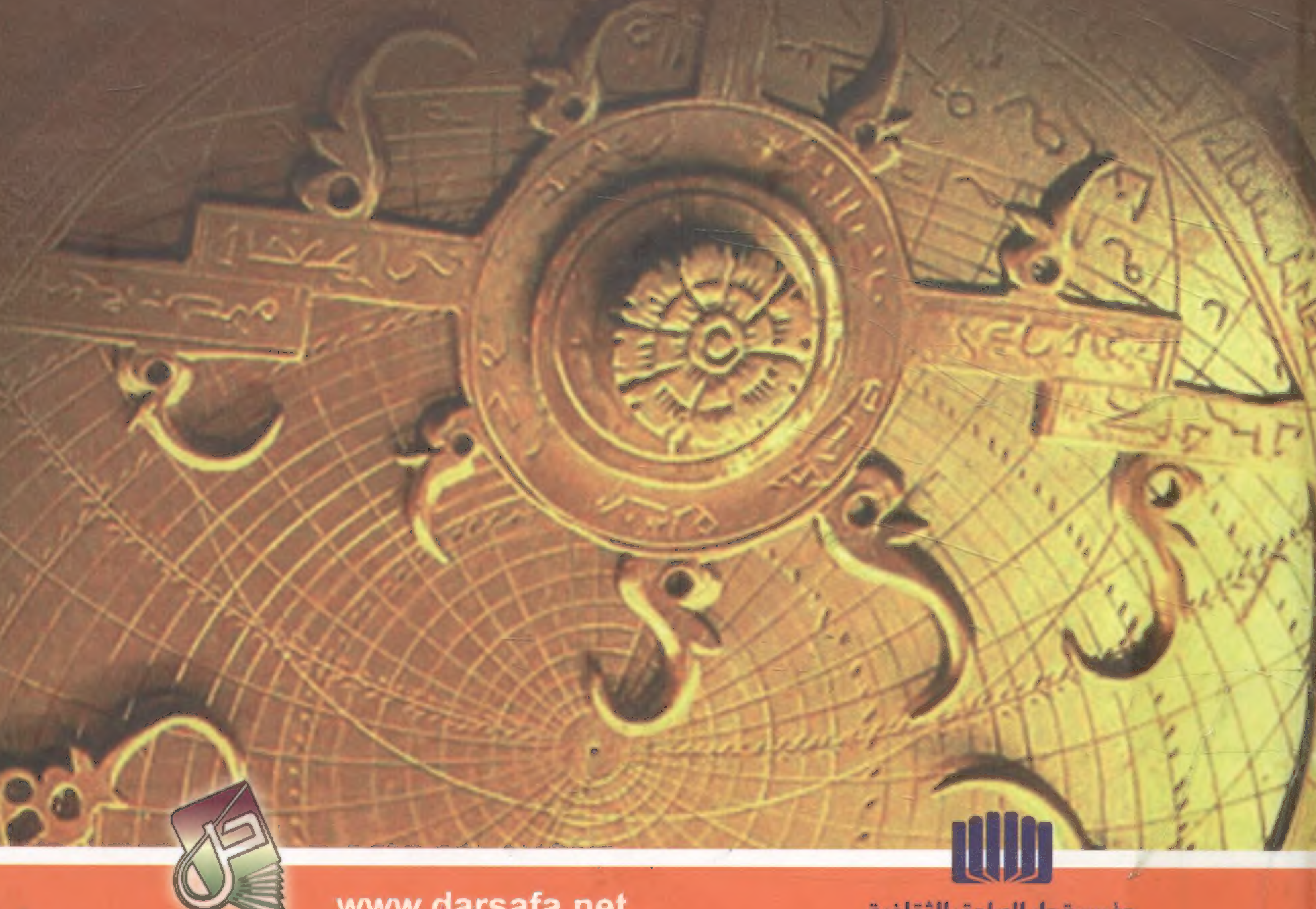
الأدب الإسلامي

الأستاذ الدكتور
صباح نوري المرزوك

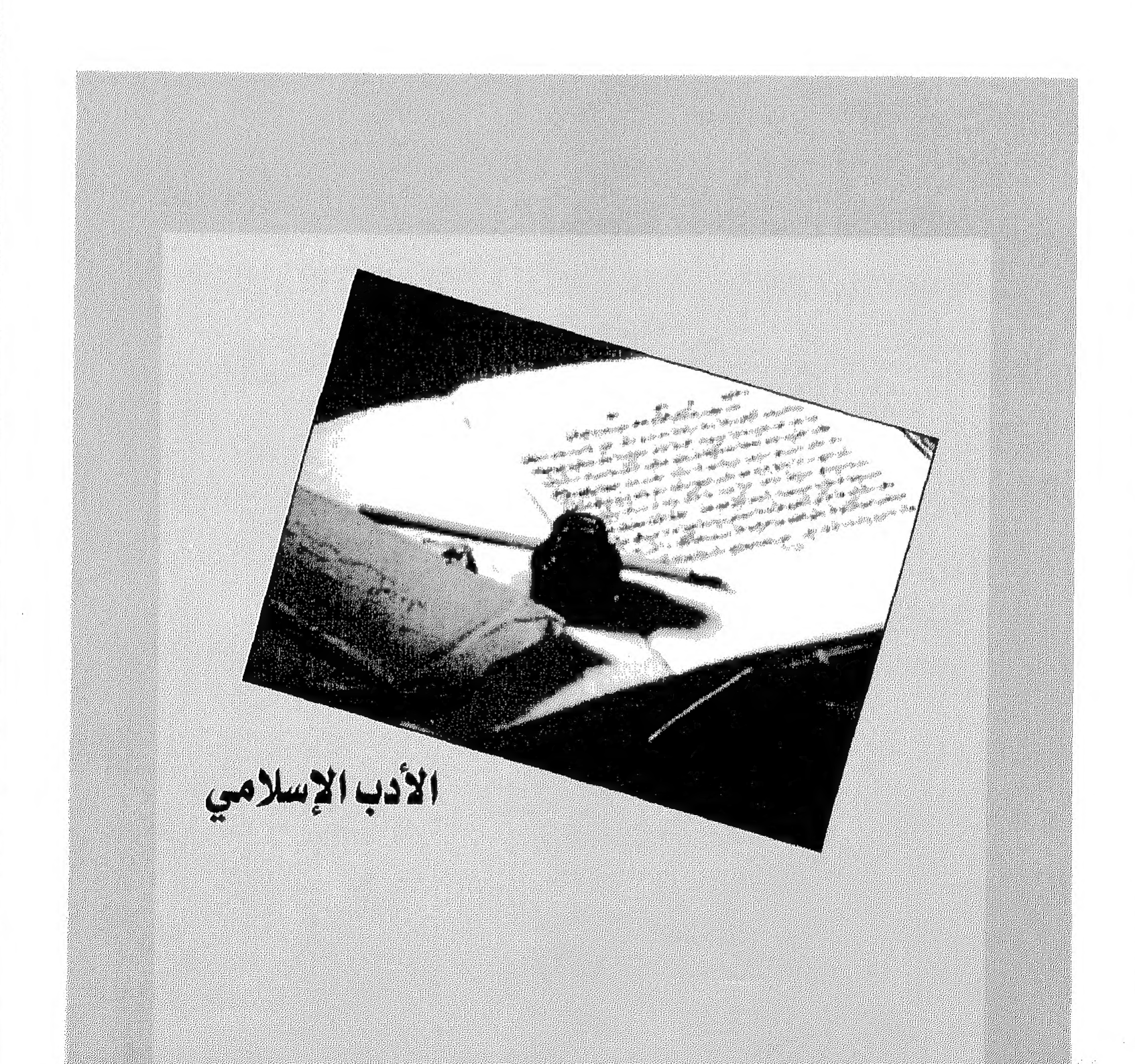


www.darsafa.net
مؤسسة دار الصادق الثقافية
طبع . نشر . توزيع

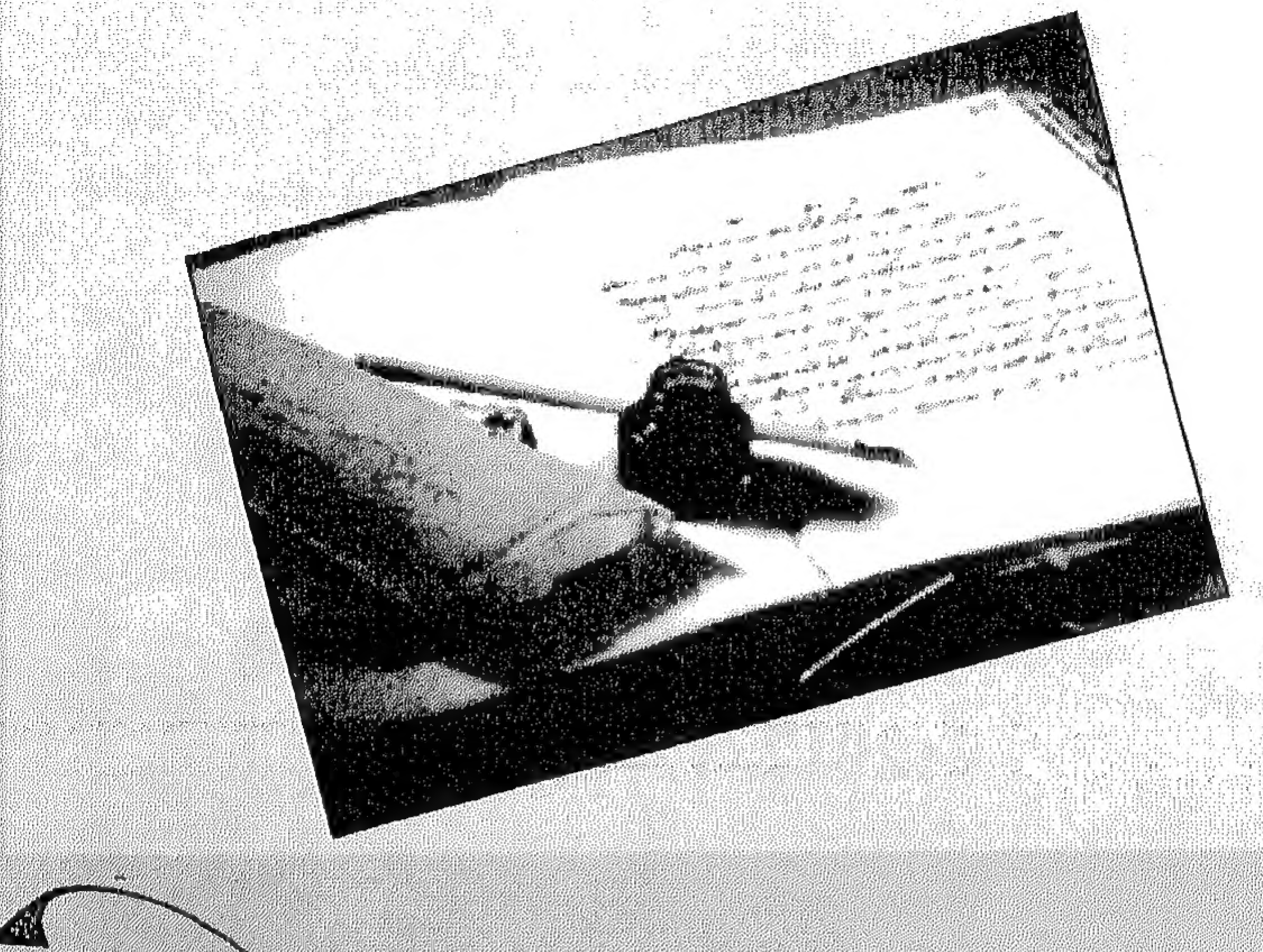
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ
إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

صدق الله العظيم



الأدب الإسلامي

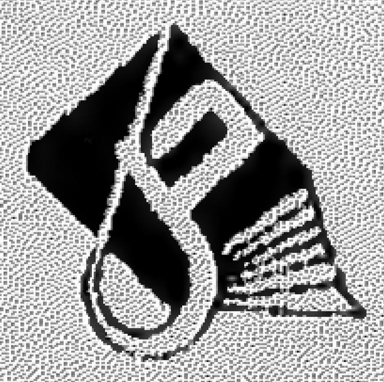


الأستاذ الدكتور

صباح نوري المرزوك

الطبعة الأولى

2014م - 1435هـ



دار صفاء للنشر والتوزيع - عمان



الأدب الإسلامي

أ. د. صباح نوري المرزوك

الواصفات:

الاسلام// الأدب العربي

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2012/12/4523)

ردمك ISBN 978-9957-24-880-2

عمان - شارع الملك حسين

مجمع الفحيص التجاري - تلفاكس 4612190 6 962+

هاتف: 4611169 6 962+ ص . ب 922762 عمان - 11192 الأردن

DAR SAFA Publishing - Distributing
Telefax: +962 6 4612190- Tel: + 962 6 4611169
P.O.Box: 922762 Amman 11192- Jordan
E-mail:safa@darsafa.net
www.darsafa.net

الفهرس

المقدمة

يعد عصر صدر الإسلام بداية لتفتح حضارة ومجد ستعيشهما الأمة العربية على مدى تاريخها الطويل، وهذه الأمة التي كرمها الله سبحانه وتعالى بان نزل القرآن الكريم على النبي العربي محمد (ص) بلغتها، وعلى يديه انتشر الإسلام في الأمم كافة وكانت الرسالة المحمدية تؤدي دورها على اتم وجه في نشر مبادئ الدين الإسلامي الحنيف وتتابع هذه العصر بعد وفاة الرسول الكريم (ص) بخلافة الخلفاء الراشدين الذين واصلوا المسيرة في تحقيق انتصارات رائعة في المشرق والمغرب ، ثم تأتي الدولة الاموية لتأخذ على عاتقها مهمة اكمال الفتوحات الإسلامية لتصل الى حدود الصين شرقاً وشمالي افريقيا والمغرب الأقصى وبلاد الاندلس غربا في جو عربي ناصع يتنفس فيه المسلم روح الاسلام ومعانيه ، ورافق هذا أدب عربي مكتوب ومروي في هيئة شعر او نثر قوامها الشاعر او الناثر العربي الذي نهد لأداء مهمته في اذكاء تلك الروح بكل ما يملك في شتى ميادين الفن والابداع متناولاً إغراض الشعر العربي فنون النثر العربي.

وقد تعددت تسميات عصر صدر الاسلام فهو عصر الرسالة لدى جماعة وعصر النبوة لدى الاخرين وهو العصر المحمدي وعصر الدعوة الاسلامية عند غيرهم، وفترة الخلفاء الراشدين سميت عصر الخلافة الراشدة او عصر الخلفاء الراشدين.

وقد تم تأليف هذا الكتاب وفقاً لمفردات منهج الفصل الرابع من مناهج السنة الثانية لطلبة قسم اللغة العربية في كليات التربية الاساسية في العراق ليكون بين متناول أيدي السادة التدريسيين الكرام وأبنائنا الطلبة ليلبي حاجتهم في فهم وتتبع احداث واعلام هذين العصرين وعلى ضوء ذلك تم اعطاء النصوص الادبية سواء أكانت شعرية ام نثرية اهمية قصوى في ضبطها بالشكل واراد ان يقدم لها معنيين لكل نص: معنى مفردا يقوم على الفهم المباشر، ومعنى إجماليا

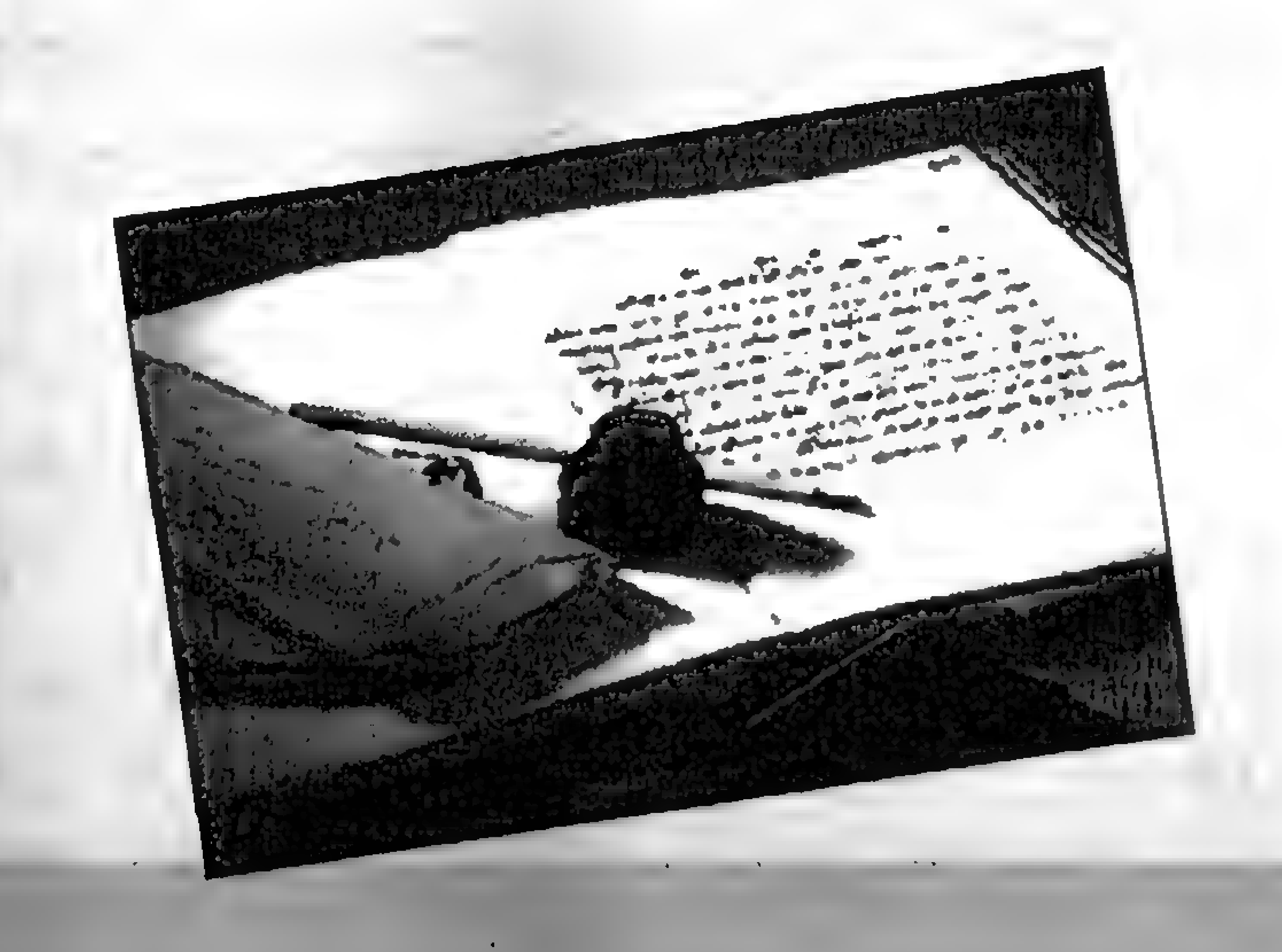
يبرز من التطبيق الفني لصنوف علوم البلاغة وضبط العروض ومعرفة المعاني والاساليب والايحاءات.

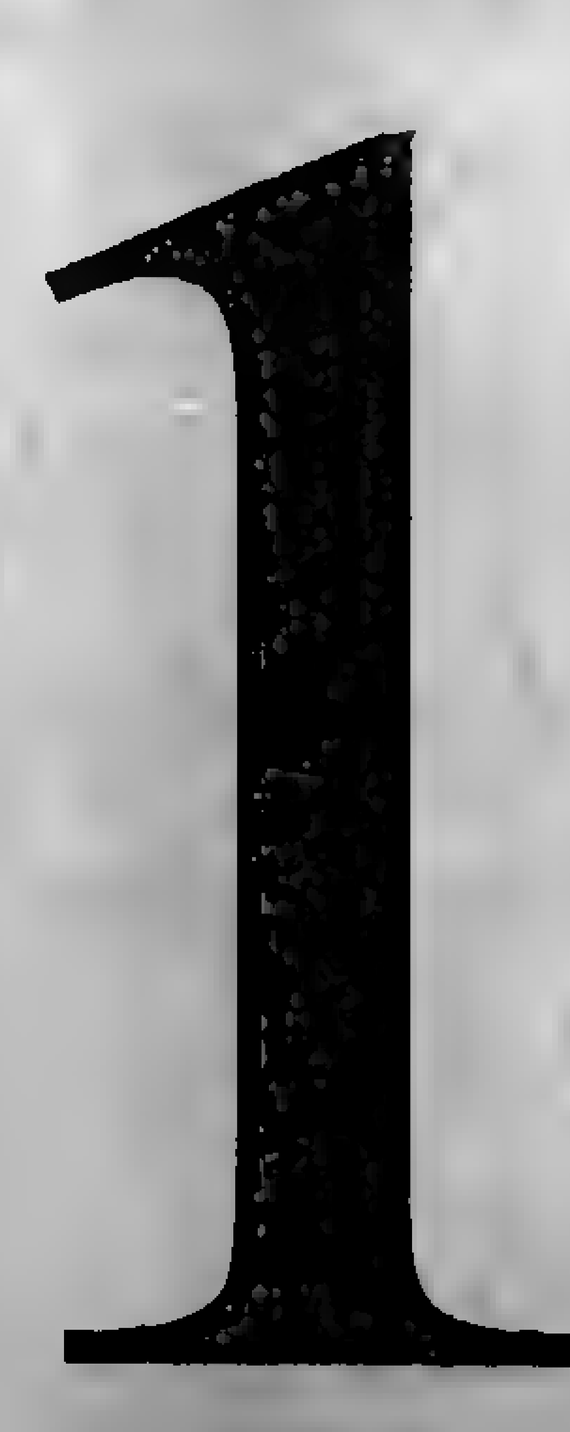
ان المادة الموجودة في ثنايا هذا الكتاب موزعة على خمسة عشر أسبوعا دراسيا ويمكن للتدريسي كلما تسنى له ان يضيف ما يضيف لما يرى فيه انه في حاجة إلى المزيد من المعلومات المعرفية وخاصة تلك تتعلق بإبراز المعاني الانسانية التي أستطاع الشعر في هذه الفترة بيانها وإيضاحها في وقت كان الشاعر يشعر فيه بالزهو بانه حامل لرسالة وعليه ان يؤديها ويوضح دواعي الخير ويدعو الى نبذ الشر بما يتناسب او ما جاء في القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف وكلام العرب وما أثر عنهم.

أرجو مخلصاً ان يلقى هذا الكتاب عين الرضا والقبول والله من وراء القصد.

المؤلف

الأدب الإسلامي





أثر الإسلام في حياة العرب

ان القبائل العربية لم تكن جميعها يهودية او نصرانية بل كان قسم منها ما زال وثنياً ، وان هذه الوثنية التي كانت عليها غالبية العرب بدأت تضعف في الفترة التي عقبت الإسلام بقليل، ونجد في ذلك ظهور جماعة أطلق عليهم (الحنفاء)، مع ظهور دعاة من النصارى يهاجمون هذه الديانة وينالون منها ويحثون الناس على التخلي عنها ، فقد كان العرب في أواخر العصر الجاهلي أو عصر ما قبل الاسلام على أبواب يقظة عقلية وروحية وكانوا في ريعان نهضة ادبية ، وكل هذه الامور كان من شأنها أن هزت اركان بحيث كان تفوضها ، وعليه فقد قامت دعوة النبي محمد ﷺ في تلك القبائل العربية لتعتد فيما بعد وتشمل مختلف انحاء الجزيرة العربية.

لقد دعا النبي محمد ﷺ الناس الى عبادة الله الواحد الاحد ضارب بالقبليات عرض الحائط داعياً الى نشر الوحدة بين صفوف الناس والى انهاء الخصومات والانطواء تحت راية واحدة تظللهم جميعاً هي راية الاسلام، راية الدين الجديد ، وكان لظهور القرآن الكريم أن احدث انقلاباً جذرياً في حياة العرب شمل جميع الحقول ومختلف الميادين.

لذلك قام النبي محمد ﷺ بمهاجمة الكعبة معقل الوثنية في ذلك الحيز فحطم الاصنام في معابدها وبفضل الدين الجديد تم القضاء على بعض المعتقدات الجاهلية التي كانت سائدة كزجر الطير والتنبؤ بالغيب ليتفرغوا لعبادة اله واحد لا شريك له (واعبدوا الله ولا تشركوا به أحداً).

وفرض الإسلام على المسلمين الشهادة- شهادة ان لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله ﷺ، والصلاة والصوم والزكاة والحج التي من شأنها تهذيب شخصية الانسان، كما وعد الصالحين بالجنة وهيأ نار جهنم للكافرين من البشر. وجعل الإسلام من القبائل المتفرقة المتنازعة امة واحدة فتحولت القبائل العربية الى رابطة

الامة بدلا من رابطة العصبية التي كانت تسود القبائل قبل الإسلام والتي كان قوامها رابطة الدم والزهو والعرقي وهذه الجامعة الروحية التي تربط بين أبناء الأمة أعدتها تعاليم القرآن الربانية بأحكام ختلت لها الرسوخ في نفوس المسلمين جميعا فأزالت الفروق بين الطبقات، عند المفهوم العسكري السياسي فقد تحول مفهوم القتال من أجل القبيلة الى جهاد مقدس، قال تعالى﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾. ومن الناحية الاجتماعية فقد رسم الإسلام سبيل المعيشة والكسب وحارب الكسب بطريقة شن الغارات والاغتصاب وفتحت أبواباً جديدة للرزق الحلال بالهجرة الى فتح الأمصار والدعوة الى دين الله واغتنام الفيء، وحارب الإسلام الآفات الموجودة في المجتمع قبل الإسلام مثل الزنا وشرب الخمر ولعب الميسر ونهى عن الكذب والغش والنفاق، وحث على مكارم الأخلاق ودعا تنظيم الحياة الخاصة وتحديد المواريث ومن ثم تحقيق الإسلام لكل المجتمع الحماية والمنفعة وتبعد عنه كل ضرر او ضعف. وقد رأينا ان الأنانية الفردية قد ذابت في بوتقة الجماعة العامة وقل التفاخر والتنافر القبائلي والخصومات القبلية فقد ورد (انما المؤمنون اخوة) و(اكرمكم عند الله اتقاكم) و (الناس سواسية كأسنان المشط) و (لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى)، وانتهت عادات أخذ الثار وأد البنات وارباء الميسر وبذلك تحول الانسان العربي من انسان يعيش لنفسه الى انسان يعيش في سبيل الاخوين، وبذلك يكون الاسلام بتعاليمه الربانية قد أحدث اثرا واضحا في المجتمع اذ خلق كياناً متينا للإنسان العربي فارتقى به روحيا وعقلياً واجتماعيا وانسانيا ودفعه الى السمو الكامل الذي يحقق انسانية الحقة، وبذلك يظهر فضل الاسلام على المرء، وبالتالي على حياته وسلوكه ومنها الى شعره وأدبه مما نفيض به روحه وتسمو به معانيه.

أثره في حياتهم الدينية:

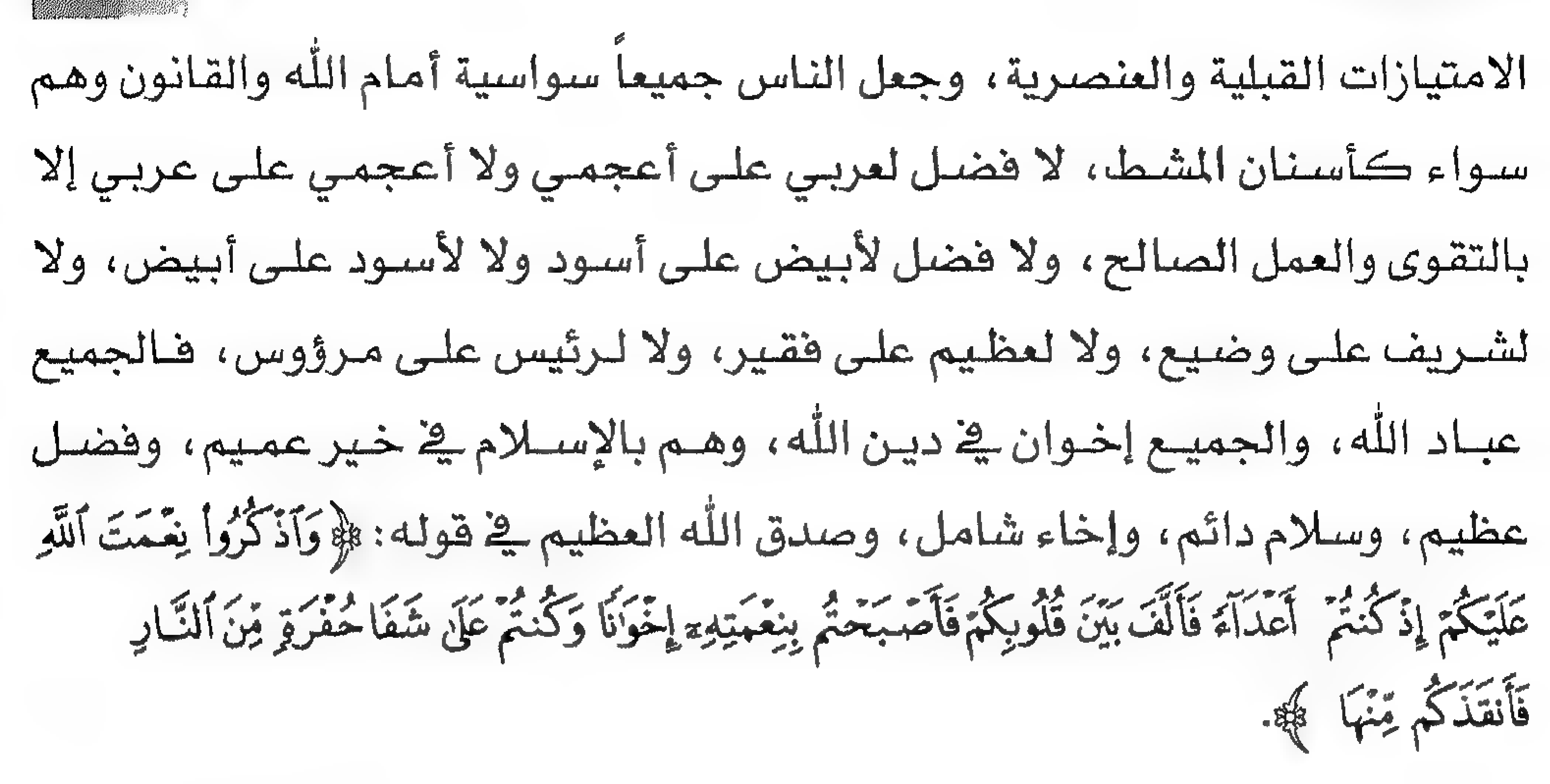
غير الإسلام حياة العرب الدينية تغييراً ضخماً كبيراً لا يماثله تغيير آخر، فأبطل الوثنية والشرك، وقضى على عبادة الأوثان والأصنام، وحارب العبادات الزائفة كعبادة النار والنجوم والكواكب والملائكة، ونفى ان يكون هناك شركاء لله في العبادة، أو ان يكون هناك وسطاء بين العبد وربه، ودعا إلى التوحيد المطلق، والإيمان الحق، والإسلام الخالص، وإلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ودعا العرب وغيرهم إلى الإيمان بهذا الدين الإلهي العظيم، ونبذ ما هم عليه من ضلال وباطل ووهم، ومن تحريف لشعائر الله وكتبه، ولعقيدة التوحيد الصافية الخالصة.

وحارب الإسلام التقليد وذم المقلدين، وحرر الإنسان من الأوهام والخرافات والأساطير والعقائد الزائفة والشرائع الزائفة، والأديان الباطلة.

وبذلك صار الدين لله وحده لا شريك له، وصارت العبادة خالصة لله رب العالمين، سبحانه قيم السموات والأرض ومن فيهن، بيده الخير والشر، وهو على كل شيء قدير.

أثره في حياتهم الاجتماعية:

غير الإسلام حياة الجاهليين تغييراً شاملاً تاماً غير منقوص، فأبطل النظام القبلي، وحياة المجتمع القبلية، وأزال عن العربي نفوذ رئيس القبيلة الظالم، وجعل المجتمع كله وحدة واحدة يسوده الحب والتعاون والإخاء، بعد ان كان يسوده الشقاق والخصام والخلاف، وأعطى الفرد كل حقوقه المشروعة في مقابل ما فرض عليه من مسؤوليات وواجبات، وحرر الرقيق والخادم والمرأة، وأعطاهم حريتهم كاملة غير منقوصة، ونظم الأسرة وأقامها على أساس متين من الحب والخير والتعاون، وشرع لها الكثير من النظم الحكيمة الصالحة لكل زمان ومكان، وقضى على عوامل الفرقة في المجتمع، وعلى الحروب بين الناس، وألغى



الامتيازات القبلية والعنصرية، وجعل الناس جميعاً سواسية أمام الله والقانون وهم سواء كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي ولا أعجمي على عربي إلا بالتقوى والعمل الصالح، ولا فضل لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض، ولا لشريف على وضيع، ولا لعظيم على فقير، ولا لرئيس على مرؤوس، فالجميع عباد الله، والجميع إخوان في دين الله، وهم بالإسلام في خير عميم، وفضل عظيم، وسلام دائم، وإخاء شامل، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا﴾.

وهكذا أعطى الإسلام الإنسان حريته واستقلاله الفكري والمالي والاجتماعي ورفع كرمته ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾. وجعله خليفة الله في الأرض، يعمرها ويمحو منها الفوضى والجهل والجمود والظلام، بما وهبه الله من عقل، وما بعث إليه من دين، وما حث عليه من علم، وأوجب على المسلم طاعة أولي الأمر، والعمل بدين الله في السير وراء الحاكم المسلم العادل، الذي يحكم بما أمر الله، ويسهر على حفظ الأمن والنظام بين الناس، وشرع كثيراً من الشرائع الاجتماعية التي تزيد في وحدة المجتمع الإسلامي وقوته كالزكاة والصدقة والإحسان وصلاة الجماعة والحج، وحرم الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم ودمائهم وحرياتهم، وحارب الرذائل الاجتماعية والعادات الفاسدة والخرافات الكاذبة وعصبية الجاهلية، واستبدل بها دعوة الدين، وأباح الطيبات من الرزق ومن وسائل المعيشة الشريفة التي تتفق مع الإسلام الكريم.

أثره في حياتهم السياسية:

وأثر الإسلام في حياة العرب السياسية واضح للعيان لا يحتاج إلى بيان أو برهان:

1- فقد كسب الإسلام للعرب وحدتهم السياسية الكاملة فاستقلت بلاد

العرب استقلالاً كاملاً، بعد ان كانت أطرافها تخضع لنفوذ الأمم القوية المجاورة لها، فكانت البحرين والحيرة تخضعان لنفوذ الفرس، واليمن لنفوذ الحبشة والفرس، وعرب غسان لنفوذ الروم، فذهبت هذه التبعية إلى غير رجعة، وتجمعت القبائل والأطراف العربية والقرى والمدن وبلاد الصحراء في وحدة سياسية شاملة.

2- وصار العرب يخضعون لحاكم واحد هو رسول الله ثم خلفاؤه من بعده يحكمهم بما أنزل الله فتجمعت الأهواء المتفرقة، وتألفت القلوب المتنافرة وتوحدت النظم المتباينة في جزيرة العرب، وأصبحت لهم وحدة سياسية واجتماعية كاملة، فوق وحدتهم في الدم والعنصر واللسان والدين.

3- وفتح المسلمون كثيراً من البلاد والأمم والشعوب وحكموها، فتعود المسلمون على فن الحكم وصار منهم الأمراء والولاة والقواد والقضاة والجنود، وسجلوا الكثير من مجد يعجب به الدهر ترويه الأيام وأحسنوا معاملة أهل الأديان الأخرى والمساواة بين بني الإنسان كافة.

أثره في حياتهم العقلية:

1- أول شيء وأكبر أثر للإسلام الكريم في هذا المجال الكبير هو انه حارب الأديان الفاسدة والعقائد الزائفة ووجه الناس كافة إلى الله وحده لا شريك له فرفع من شأن العقل وذم التقليد والمقلدين، ونهى عن إتباع الآباء في غير الحق، وحارب الأوهام الفاسدة التي تضعف من شأن العقل وتدعوه إلى الكسل والجمود وسلب الإسلام الناس ما كانوا يزعمونه من القدرة على تسخير ما في الوجود من غيب وجعل مرد كل ذلك إلى الله وحده، يعلم الغيب وما هو أخفى، فزالت عن العقل ظلمات كثيفة كانت تحول بينه وبين الفهم والإدراك والرؤية الصحيحة.

2- ودعا الإسلام إلى العلم الصحيح والتفكير السليم وبعث في الناس حب المعرفة والثقافة وفرض على العالم إرشاد الجاهل وتهذيبه إلى غير ذلك من مقومات الحياة الصحيحة.

3- وبتشجيع الإسلام للمعرفة نشأت العلوم الإسلامية، وعكف العلماء على البحث والتنقيب مما كان أساس المدنية والحضارة في الإسلام.

إلى غير ذلك من مظاهر الرقي العقلي والفكري، الذي كان من مقدمته ان الإسلام دعا الناس إلى ان لا يؤمنوا إلا بما يؤدي إليه العقل والدليل والبرهان الصحيح وإلى أن يمحصوا الأمور ويثبتوا في الحكم على الأشياء، فلا يصدرون عن هوى ولا يحكمون إلا بعد تنقيب وتدقيق واستنباط صحيح.

وهذا هو منهج البحث في الإسلام، وهو المنهج الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية الباهرة.

أثر اللغة العربية:

للإسلام أثر كبير في اللغة العربية يمكننا أن نوجزه فيما يلي:

وحدة اللغة:

جاء الإسلام والعرب لهجات مختلفة، ولهجة قريش لها المنزلة الأولى بين هذه اللهجات بتأثير الأسواق ومواسم الحج لنفوذ قريش الروحي والاقتصادي بين العرب وما كانوا عليه من ثقافة وخبرة وتجربة، ونزل القرآن الكريم بلغة قريش، فأيد هذه اللغة وأصبح لها السيادة والغلبة، وكان من قريش ومن السلالات المضرية – أبناء عمومتهم- رجالات الدعوة وزعماء الدولة وأمرائها وقوادها وقضاتها وحكامها وعمالها، فكان لذلك أثر كبير في انتحال العرب لغة قريش بعد قليل، أما ما تورث من لغة حمير، فلم يكن متميزاً عن اللغة القرشية كثيراً سواء في التصريف أم الاعراب أم الأسلوب، بل كان أكثره ظاهراً في اختلاف بعض الألفاظ عن بعض في الدلالة على المعاني المستخدمة،

فالكتع في اللغة الحميرية: هو الذئب في لغة قريش، وأنطى في لهجة حمير: بمعنى أعطى عند قريش، والشناتر في كلام حمير: هي الأصابع في لهجة قريش، وسامدون لغة حميرية وهي في لهجة قريش الغناء، وهكذا، إلى غير ذلك مما له نظير في لهجات المضريين أنفسهم، كالسدفة فهي الظلمة عند تميم والضوء عند قيس.

ولقلة الخلاف بين الحميرية والقرشية اندمجت لغة حمير كأخواتها في لغة قريش التي أصبحت لها السيادة والغلبة على جميع اللغات واللهجات.

انتشار اللغة وذيولها:

أدت الفتوحات الإسلامية الباهرة إلى انتشار العرب في شتى البلاد المفتوحة، والى ذيوع اللغة العربية في أكثر هذه الأقطار، وصارت هي اللغة الرسمية فيها، وأصبح يلهج بها بعد قليلٍ سكان العراق سوريا ومصر وفلسطين وأفريقيا الشمالية، وصارت لغة الدين والسياسة والثقافة في هذه البلاد وسواها. وبذلك أصبحت اللغة العربية لغة عالمية بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى.

اتساع أغراض اللغة:

اتسعت أغراض اللغة بسلوكها منهجاً دينياً، وإتباعها خطة نظامية تقتضيها حال الملك وسكنة الحضر، فأخذت اللغة تستعمل في:

أ- تبيين العقائد الدينية التي جاء بها الإسلام: من إثبات وجود الخالق وتوحيد ذاته وتقديس صفاته، ومن الإيمان بالبعث والنشور والثواب والعقاب، وغير ذلك مما لم يكن يفقه بعضه إلا بعض خاصة الجاهلية، وأصبح الإسلام الشغل الشاغل لجميعهم، بل للأمة الإسلامية جمعاء.

ب- تبيين الشريعة واستنباط الأحكام الملائمة لأحوال الزمان والمكان، ولحسن معيشة المرء في منزله ومعاملته للناس والسلطان.

ج- استعمالها في ضبط أمور الملك ونظام العمران، ونشر الأمان والعدل، وفيما تستدعيه مرافق أهل الحضر والأمصار.

هـ- وضع مبادئ العلوم، وترجمة اليسير من العلوم الطبيعية والرياضية والطبية.

أما في المعاني:

فقد ارتقت المعاني ويظهر ذلك في الأمور الآتية:

1- اتساع مادة المعاني باتساع المشاهدات والمعقولات.

2- حسن نظامها ومراعاة الوفاق بينها، لارتقاء الفكر وتثقفه بالنظر الصحيح في أمور الدين والملك والاقتباس من حضارة الفرس والروم، وتنوع صور الخيال، وروعة جماله، تبعاً لتنوع المرئيات الجميلة التي انتزع منها.

3- دقة المعاني وعمقها وتركيبها، لأنها صارت تنبع من معين ثقافة القرآن، ومن أصول العلم والمعرفة في الإسلام.

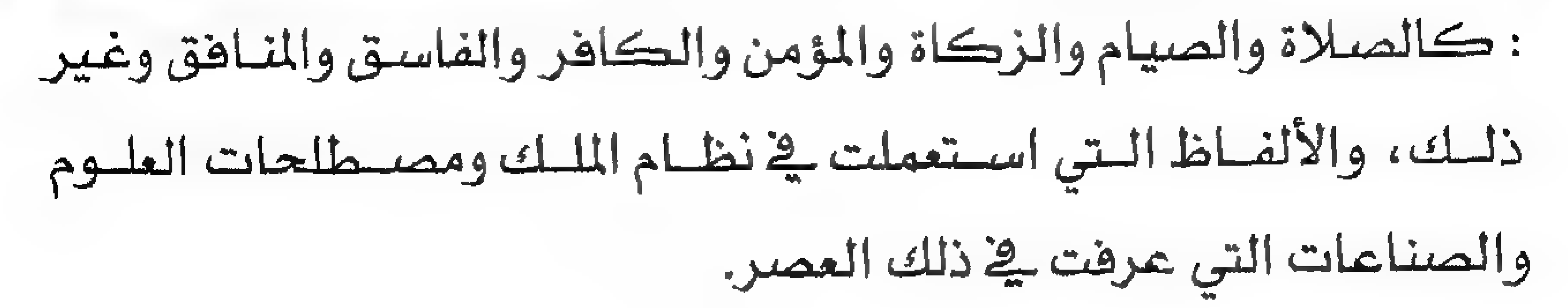
ألفاظ اللغة وأساليبها:

تغيرت الألفاظ والأساليب عن ذي قبل وظهر أثر هذا فيما يلي:

1- تهذيب ألفاظ اللغة : بمحاكاة ألفاظ القرآن الكريم والسنة في مجانبة حوشي الألفاظ الذي ينبو عنه السمع، ويمجه الذوق السليم.

2- نشأة ألفاظ إسلامية محضة، مثل الجاهلية للعصر الذي كان قبل ظهور الإسلام، ومثل المصحف، وأبو بكر خليفة رسول الله هو الذي أطلق هذا اللفظ على الصحف التي جمع فيها القرآن الكريم في عهده.

3- التوسع في دلالة الألفاظ : بإخراجها من معنى إلى معنى بينه وبين الأول مناسبة، ومن ذلك الألفاظ التي استعملها الشارع في غير معناها الأصلي



: كالصلاة والصيام والزكاة والمؤمن والكافر والفاسق والمنافق وغير ذلك، والألفاظ التي استعملت في نظام الملك ومصطلحات العلوم والصناعات التي عرفت في ذلك العصر.

4- موت ألفاظ منع الشارع استعمال مدلولاتها أو أعاض عنها غيرها كالمرباع والنشيطة والفضول، وكعم صباحاً وعم ظلاماً، وكقولهم (صرورة) للذي لم يحج ولم يتزوج، فقال ﷺ : " لا صرورة في الإسلام".

5- دخول طائفة من الألفاظ الأعجمية في الكلام، وتسمى الكلمة حينئذ معربة ومن مثل ذلك : سندس وإستبرق والديباج والرقيم وأوّاه وحنان والأسفار والربيُّون وغير ذلك.

6- التأنق في صوغ الأساليب والتفنن في تنوعها وإحكام نظمها، ووصولها في البلاغة إلى غايتها، لانبعاث روح القرآن الكريم في قلوب المتكلمين بها، وسلوكهم سبيله في البيان، وحسن الأداء، مؤثرين الإيجاز على الإسهاب في أكثر المواضع، إلى ان تقاصرت دونه أفهام الناشئين في الحضر من العرب، والمستعمرين من العجم آخر هذا العصر، فأصبح للإسهاب نصيب من عنايتهم لا يقل عن الإيجاز.

ولا شك ان معظم هذه التغيرات يرجع إلى القرآن الكريم والحديث النبوي.

حيث بزغ فجر الإسلام على العرب بالجزيرة بنور جديد تفتحت عليه عيونهم وقلوبهم وتيقظت له بصائرهم وعقولهم، وهنالك لم يجدوا بداً من الانتباه له والالتفات إليه معارضين جاحدين، أو مؤمنين مذعنين، ثم عكفوا عليه يدرسونه ويتأملونه، وكان لهذا كله من الأثر في أدبهم والتوجيه لسلوكهم، والتقويم لطباعهم، والتهذيب لأخلاقهم، والاختيار لألفاظهم، ما لا يدع مجالاً للشك في أن البلاغة في التعبير والأناقة في التصوير، والأدب في الحديث، والذوق في الخطاب، والسمو في الخيال، والإيمان بالمثل العليا، والغيرة على الحق، والغضبة للكرامة، قد اتجهت اتجاهاً سديداً، وأخذت لوناً جديداً، ولذلك يقول

المؤرخون: إن كثيراً من الشعر غاض ماؤه، وانتكس لواؤه، وحار بيانه وتعثر لسانه، وذهل لبه، وخانه قلبه، وأجبلت قريحته، وأظلمت بديهته، فأقصر عن الشعر، لأنه رأى في بيانه عيّاً، وفي نطقه خرساً، وفي فصاحته فهاهة، وفي أدبه فحة، وإن ما جاء به محمد ﷺ لا يتطاول إلى بيانه بيان، ولا يستطيع أن ينطق بمثله لسان، أو يجري في مضماره إنسان، اللهم إلا ان يسير على ضوئه، ويهتدي بنوره، ويقتبس منه ويعود من جديد تلميذاً له، يأخذ من فضله وينتفع بأدبه، ويسترشد بنصحه.

وقد وقف دولاب الكلام إلى حد ما، وأصبح الشعر الذي كانت له دولة لها نفوذ وسلطان، وعرش وصولجان، لا يذكر إلا في مخلفات الجيوش المهزومة، والتاريخ الذاهب، لأن صوت القرآن المدوي غطى على بلاغة الشعراء، وفصاحة الخطباء، وصار الذي يقول الشعر، أو يخطب في المجامع، أو يتحدث في المجالس، لا ينطق إلا بحذق، ولا يقول إلا بميزان، فلا يتلفظ بهجر مزر، أو أدب معيب، أو كلام هزيل، أو بيان مرذول.

ولا نعني بهذا أن مصراع الزمن قد أغلق دون القريض، وأن ألسنة الشعراء قد علقت عن القول، ولكننا نعني أن أساليب البيان العربي أخذت طابعاً أحسن ولوناً أجمل، وطريقاً أفضل، وسبيلاً أقوم، وصار الناس يقابلون بالسخرية مجون امرئ القيس، وخلاعة طرفة بن العبد، وتبع ذلك أنهم هجروا الألفاظ النابية، والعبارات المكشوفة، والمعاني الهزيلة، والعواطف النازلة، والأخلاق المفضوحة، وكان أسمى ما يهدف إليه قائل، أو ينطق به متحدث، الدعوة إلى مكرمة، أو الحث على فضيلة، أو الغيرة على عرض، أو التفاني في واجب، أو الذود عن حب، أو العصبية لغرض شريف، أو هدف نبيل، أو غاية محمودة، وكان حملة لواء البيان حينئذ هم جنود الدعوة الإسلامية الذين وقفوا إلى جانب رسول الله ﷺ، يؤيدون دينه، ويمكنون له ويدافعون عنه، أمثال كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وحسان بن ثابت (رضي الله عنهم أجمعين)، وكانوا بهذا اللون الصادق

الإحساس والنقي الوجدان، قد أحدثوا في الشعر مجالاً، فياضاً بالمعاني، خصباً بالصور، غنياً بالقول، قوياً ثرياً بروعة البيان، يجد عشاق الأدب فيه إرواء ظمئهم، وإشباع نهمهم، وشفاء لما في صدورهم.

والأدب المأثور عن عصر الإسلام يمثل بوضوح روح الإسلام، ومدى تأثر المسلمين بأدب القرآن الكريم وبلاغته، هذا التأثير الكبير الخطير الجليل، وكما أثر الإسلام والقرآن في حياة العرب الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقلية أثر كذلك في حياتهم الأدبية، وأصبح الأدب العربي بعد ظهور الإسلام يغاير قليلاً أو كثيراً أدب الجاهليين، ويصور عقلاً غير العقل الجاهلي، وشعوراً غير الشعور الجاهلي.

وصار هذا الأدب يمثل في مطلع عصر صدر الإسلام هذا الصراع بين وثنية الجاهلية وتوحيد القرآن الكريم، ولم يمض ربع قرن منذ البعثة المحمدية حتى كان العرب جميعاً قد دخلوا في الإسلام، واتخذوه عقيدة لهم وقانوناً ونظاماً ومثلاً أعلى في حياتهم، وتطور الأدب العربي بظهور الإسلام تطوراً كبيراً في أغراضه ومعانيه، وفي أخيلته وصوره، وفي فنونه الأدبية، وفي ألفاظه وأساليبه.

وهكذا غير الإسلام من مجرى الحياة الأدبية عند العرب تغييراً كثيراً، ومن البديهي أن تعلم التغيير الذي حدث في الآداب العربية منذ ظهور الإسلام لم يكن يرجع إلى شيء إلا إلى الإسلام وحده، فلم يرجع إلى شيء اقتبسه المسلمون من البلاد المفتوحة من ثقافة وعلم وأدب وفن، ولا إلى آثار مدنية وحضارة، لأن العرب كانوا ما يزالون يؤثرون البداوة والخشونة، ولم يكونوا قد فرغوا بعد من قراع أعداء الدعوة، ومن نضال خصوم الإسلام.

فكل تغير حدث في الأدب إنما كان مصدره الأول القرآن الكريم الذي كان وحده مصدر ثقافة المسلمين الدينية والعقلية والاجتماعية والأدبية، وهو الذي أحال خشونة الطباع عذوبة وسلاسة، وبدل حُوشيَّة الألسنة سهولة ووضوحاً

وبلاغة، وأورث العرب دقة في التفكير، وقوة في التعبير، وجمالاً في التصوير، ورقة في الأسلوب، وروعة في الحجة.

وعليك أن تعرف أن تأثر الإسلام في الحياة الأدبية للعرب لم يحدث فجأة، ولم يتم مرة واحدة، وإنما حدث قليلاً وظهر شيئاً فشيئاً، وقضى العرب وقتاً مستمسكين فيه بأدبهم القديم، لا يكادون يعدلون عنه، ثم بدأ عصر الانتقال بشيء من الحيرة، حين تلي عليهم القرآن فأنكروه، وأكبروه، وتدبروه، فقهرتهم بلاغته وقهرتهم قوته وعظمته، وأحبوه، واطمأنوا إليه، وبعد ان كانوا بين منكرين له أصبحوا مؤمنين به، وخاضعين له، ومقرين بعظمته وبلاغته، ومهتدين ببيانه وأسلوبه ومعانيه[1].

---

(1) محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، ص33 وما بعدها.

الشعر في رحاب الدعوة الإسلامية

قريش والدعوة الإسلامية

بعدما تبين لزعماء قريش خطر الدعوة الإسلامية على نفوذهم ومصالحهم تنادوا إلى الاجتماع للتشاور في أمر (محمد)، وأجمعوا رأيهم أوّل الأمر على الذهاب إلى أبي طالب عم النبيﷺ يطلبون منه صرف ابن أخيه عن الدعوة إلى الدين (الجديد)، ومنعه من سبّ آلهتهم وتسفيه أحلامهم، ولما أبى أبو طالب خذلان النبي محمد ﷺ، عادوا ومعهم (عمارة بن الوليد) وقالوا له: (هذا أنهد[1] فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عُقله[2]، ونَصرُه واتخذْهُ ولداً لك، واسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم، فنقتله إنّما هو رجل برجل)، فقال: " والله لبئس ما تسومونني[3] به أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه !؟ هذا والله ما لا يكون أبداً" [4].

وتروي كتب الأدب والسيرة شعراً من الفخر الخالص يشيد فيه أبو طالب بمحمّد وهاشم وبعبد مناف، ويعرّض بمن خذل محمّداً منهم وبمن عاداه من قريش، جاء في هذا الشعر[5]:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر فعبد مناف سرُّها وصميمها[6]

---

(1) أنهد: أشد وأقوى.

(2) عقله: ديته إذا قتل.

(3) تسومونني: تكلفونني.

(4) ابن هشام، السيرة، ج1، ص279.

(5) المصدر السابق، ص 282- 283.

(6) سرّها وصميمها: خالصها وكريمها.

فإن حُصّلتْ أشراف عبدِ منافها ففي هاشمٍ أشرافُها وقديمها

وإن فَخَرت يوماً فإن محمّداً هو المصطفى من سرِّها وكريمها

بنا انتعشَ العود الذّواء وإنّما بأكنافنا تندى وتنمى أرومها[1]

واشتد أذى الكفار للنبي محمد ﷺ فقد أخذوا يتعرضون له ويضايقونه أنّى التقوا به، فهاجم القرآن الكريم، من ذلك أنّ أميّة بن خلف كان يقابله بالهمز واللمز، فنزلت فيه سورة (الهمزة) تهجوه وتتوعده، وكذّب (أبو لهب) النبي ﷺ ونهره، وعيرته امرأته بالفقر، فنزلت فيهما سورة (تبت) فـ(أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهرٌ من حجارة فلما وقفت عليه، أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلاّ أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر إنّ صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه. والله إني لشاعرة، (وقالت):

مُذمّماً عصينا وأَمْرَهُ أَبينَا ودينه قلينا

ثم انصرفت[2].

وارتأى النبي لحكمة منه دفع النفر القليل من المسلمين للهجرة إلى الحبشة، حفاظاً على أرواحهم المهدّدة في مكة، وهذه الهجرة استدعت عدداً من القصائد. نذكر من ذلك شعراً لعبد الله بن الحرث يعبّر فيه عن إحساسه بالأمان في حمى نجاشي الحبشة ويتوجه إلى قريش باللوم والعتاب، ومما قاله[3]:

---

(1) أرومها: أصولها. انتعش العود: حيي وظهرت فيه الرطوبة والخضرة، الذواء: العود اليابس، الأكناف: النواحي.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن مجلد 15، ج20، ص 234- 235.

(3) ابن هشام، السيرة، ج1، ص353- 354.

يـــا راكبـــاً بلّغــا عـــني مغلغلـــةً　　　　من كـان يرجـو بـلاغ الله والنّـاسِ[1]

وعلى الجملة فإن الشعر لم يندثر، وحتى لم يخفت صوته بعض الخفوت – كما صوره بعض الدارسين- ولم يكن محرّماً- كما حاول ان يزعم آخرون- بدليل ان النبي ﷺ استخدمه كسلاح في محاربة المشركين.

وكان هذا الشعر يدخل في فنون الفخر والهجاء والوصف وما يتصل بها من وعد ووعيد وشماتة، أو هو كله شعر حماسي، إذا فهمنا من الحماسة ذلك الشعر القوي الذي يلائم هذه الفترة من تاريخ الإسلام والمسلمين. ولم يطرأ على أسلوبه تغيير كبير في هذا العصر، فما زال الشعراء يؤثرون فخامة اللفظ وجزالة العبارة والتراكيب، أما جوهره من حيث هو عملية فنية، فقد بقي على حاله، واستمر العرف الجاهلي في صناعته وتقديره ولم يبتكر فيه فنّ جديد، ولا مذهب جديد، حتى ليصحّ القول أنه من هذه الناحية امتداد لشعر الجاهلية وإن تغيّر بعض معانيه واستمد من القرآن مدداً لغوياً معنوياً، ولكن لم يطل الزمان حتى ظهرت بوادر التجديد في الغزل والسياسة والزهد، وسائر فنون الأدب.

ولم يطرأ على أوزان الشعر وقوافيه تغير يذكر في هذا العصر، ولكن الشعراء صاروا ينتبهون إلى عيوب القافية والوزن ويتحاشونها، وكانت فاشية في الشعر الجاهلي، ووجدت في هذا العصر جماعة من الشعراء عنوا عناية بالأراجيز : (القصائد المنظومة على بحر الرجز)، وكان الجاهليون يقولون الأبيات القليلة من الرجز يحدون بها الإبل، أو يصفون بها حيوان الصحراء، أو يتغنون بها، فجاء هؤلاء فأطالوا الأراجيز، وفاقوا الجاهليين في استعمال الألفاظ الغريبة، وتناولوا في أراجيزهم شتى الموضوعات، كالمديح، والفخر، والرثاء، والهجاء، حتى أصبح فناً مستقلاً في العصر الأموي، وهؤلاء الشعراء هم الذين عرفوا بـ(الرُجّاز)

---

(1) حبيب يوسف مغنية، الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، ص120.

واشتهر منهم في ذلك العصر الأغلب العجلي، وهو أول من أطال الرجز، وأبو النجم العجلي، والعجّاج التميمي، وابنه رؤبة وغيرهم.

واختلف تأثير الإسلام في أساليب الشعراء المخضرمين فاحتفظ الحطيأة - مثلاً- بشخصيته الجاهلية، وإن تأثر بالقرآن في بعض معانيه، وأما لبيد فقد سكت عن الشعر احتفالاً بالقرآن إلاّ في بعض الحالات، وبقيت الخنساء جاهلية في شعرها، ومثلها كعب بن زهير وإن مدح في قصيدته (بانت سعاد) الرسول ﷺ.

وأما حسان بن ثابت فكان شعره الجاهلي أقوى من شعره الإسلامي ؛ لتغير البيئة عليه وارتجاله، وكثرة ما قال، وتقيُّده بحدود الدين، وترك معاييره القديمة، على أن له بعض قصائد إسلامية جيدة، كقصيدة له في بدر، وثانية في فتح مكة، وثالثة في مفاخرة شاعر تميم[1].

شعر الوفود :

ساد الإسلام في السنة التاسعة للهجرة، وتعززت مكانته، وقويت شوكته، وتوطدت أركانه في المدينة وفي نفوس الكثيرين من العرب خارجها، ولم يكن أمام زعماء قريش بعد أن توالت عليهم الهزائم إلاّ أن يدخلوا في الإسلام، وكان أن فتحوا أبواب مكة فدخلها المسلمون يتقدّمهم النبي محمد ﷺ، وكان هذا الفتح إيذاناً بتمكين الإسلام من الجزيرة العربية كلّها، وفي هذه السنة بدأت وفود العرب تتوالى على الرسول، تعلن له ولاءها وتشهده على إسلامها، كما فزع إليه جموع الشعراء تائبين مسلمين معاهدين، ومن هؤلاء عبدالله بن الزبعرى الذي أتى الرسول معتذراً إليه مادحاً إياه بقوله[2]:

---

(1) تاريخ الأدب العربي، أدب صدر الإسلام، ص181.

(2) انظر: ابن هشام: السيرة، ج3، ص275- 320.

يا رسول المليك إنّ لساني ... راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بورُ[1]

إذا أُجاري الشيطان في سنن الغـ ... ـيِّ ومن مال ميله مثبورُ[2]

آمن اللحمُ والعظام بما قُلـ ... ـتَ فنفسي الفدى وأنت النّذيرُ

وقد أحسن في اعتذاره، فهو يعلن للنبي بأنه ملتزم من يومه هذا بالدعوة إلى الوحدة الإسلامية، ومصلح في شعره، ما كان قد أفسده فيما مضى من أيام ضلاله وكفره، فالهلاك مصير من يجاري الشيطان ويتبع غوايته، ويقرّ بأن الإسلام والإيمان قد تغلغلا إلى كل ذرة في كيانه، وأنه يفتدي نبيه بنفسه.

وكان ابن الزِّبعرى قد صوّر ما أصابه من هموم، وما داخله من هواجس وظنون أقضت مضجعه، وأوهنت جسده، بعدما نُمي إليه أن النبي محمداً قد توعده لمعاداته الإسلام والمسلمين، وذلك في قصيدة يتوجه فيها إلى الرسول بالتوبة والاعتذار والمديح، فهو يراه أفضل الخلق، ويندم على غوايته وضلاله ومحاربته المسلمين منصاعاً إلى سهم ومخزوم، ويرجو منه عفواً وغفراناً، فهو أحبّ إليه من أبويه، يضحي بهما من أجله (يفتديه بهما)، والنبي هو الراحم المرحوم، يعلوه من علامات النبوة نورٌ وضاء، فالنبوة سمة مطبوعة فيه، وينهي بمناشدته قبول توبته والعفو عنه، فأسباب العداوة والبغضاء والتباعد قد انتهت بإسلامه وإسلام قومه، وهذا كفيل بتمتين أواصر القربى بين العرب جميعهم وإحلال العفو والسلام والمحبة في ديارهم[3]:

---

(1) البور: الهالك الفاسد الذين لا خير فيه، الرتق: ضد الفتق، راتق ما فتقت: مصلح ما كنت قد أفسدته.

(2) مثبور: هالك.

(3) ابن هشام، السيرة، ج4، ص 139- 140.

مَنَـعَ الرُّقـادُ بلابـلٌ وهمـومُ — والليـلُ مُعْـتلجُ الـرواق بهـيمُ[1]

ممّـا أتـاني أنّ أحمـد لامـني — فيـهِ فبـتُّ كـأنني محمُـومُ[2]

يـا خير من حملت على أوصالها — عيرانـةٌ سـرح اليـدين رسـوم[3]

إنّـي لمعتـذرٌ إليـك مـن الـذي — أسـديتُ إذا أنـا في الضلال أهـيمُ[4]

أيـام تـأمرني بـأغوى خطـة — سـهمٌ وتـأمرني بهـا مخـزوم

فـاغفر فـدى لـك والـديّ كلاهمـا — ذنـبي فإنـك راحـمٌ مرحـوم

وعليـك مـن أثـر المليـك علامـة — نـورٌ أضـاء وخـاتمٌ مختـوم

مضـت العـداوة فانقضـت أسبابها — ودعـت أواصـر بيننـا وحُلـوم

كما وفد على الرسول الشاعر كعب بن زهير وأعلن توبته وإسلامه بين يديه ومدحه بقصيدة مشهورة مطلعها[5]:

بانـت سـعاد فقلـبي اليـوم متبـول — متـيم إثرهـا لم يشـف مكبـول

---

(1) بلابل: وساوس وأحزان مختلطة، معتلج: مضطرب، يركب بعضه بعضاً، بهيم: لا ضياء فيه.

(2) أحمد: النبي محمد ﷺ.

(3) عيرانة: الناقة التي تشبه العير (حمار الوحش)، في شدته ونشاطه، سرح اليدين: خفيفة اليدين في عدوها، رسوم الأرض وتؤثر فيها بشدة وطئها، أو وهو من الرسيم، وهو ضرب من الإبل.

(4) أسديت: صنعت، أهيم: أذهب على وجهي متحيراً.

(5) ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، ص46.

وكان أنس بن زنيم قد هجا الرسول ثم جاءه معتذراً تائباً، ومدحه بأبيات منها هذا البيت[1]:

وما حملتْ من ناقة فوق رحلها ... أبرُّ وأوفى ذمّةً من مُحمد

وأنشد أبو سفيان شعراً كثيراً أعرب فيه عن أساه وحزنه على ما سلف من معاداته الإسلام وأهله، نذكر منه هذه الأبيات[2]:

لعمرك إني يوم أحمل رايةً ... لتغلب خيلُ اللات خيلَ محمد

أنا المدلج الحيران أظلم ليلهُ ... بعيداً أُرجّي حين أَهدي وأهتدي

هداني هادٍ غير نفسي وقادني ... إلى الله من طرّدتُ كلَّ مُطرّد[3]

موقف اليهود من الدعوة الإسلامية:

ولما صدح النبي ﷺ بدعوته المباركة خشي اليهود على نفوذهم الديني والسياسي والاقتصادي من أن يزول أو يضعف، فأخذوا يكيدون للرسول ويفترون على الإسلام، متبعين أسلوبهم التاريخي المعتاد القائم على التزوير، والنفاق والغدر، وفي أثناء الحروب والغزوات التي دارت بين المسلمين والكفار من قريش وحلفائها، تدخل اليهود تدخلاً سافراً ضد المسلمين، وكان دورهم في هذا الصراع الدائر يمثل بالاشتراك الفعلي في حرب المسلمين حيناً، وبالتآمر والتحريض وإذكاء نار العداوة والبغضاء على النبي ﷺ وعلى من آمن به.

---

(1) انظر: شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص52، نقلاً عن الإصابة لابن حجر، ج1، ص69.

(2) ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، ص 96، والأغاني، ج4، ص152، والمدلج من الدلج والدلجة وهو السير من أول الليل.

(3) حبيب يوسف مغنية، المصدر السابق، ص144.

يصوّر الشعر الذي يُروى عنهم مواقفهم العدائية تلك أحسن تصوير، فعندما علم كعب بن الأشرف[1] بهزيمة قريش في بدر قدم من المدينة إلى مكة وأخذ يحرض قريشاً على الانتقام والثأر مهولاً من نكبتها مستفظعاً مصائبها بزعمائها، يقول في ذلك[2]:

طحنتْ رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهلُّ وتدمع[3]

قُتلت سراةُ الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا إنّ الملوم تُصرَّع[4]

نبِّئت أنّ الحارث بن هشامهم ... في النّاس يبني الصالحات ويجمع

ليزور يثرب بالجموع وإنما ... يحمي على الحسب الكريم الأروع[5]

ويشير حسّان بن ثابت إلى مقتل ابن أبي الحُقيق وكعب بن الأشرف اليهوديين جزاء ما اقترفاه في حق النبي ﷺ والإسلام والمسلمين، مشيداً بمن نفذوا فيهما حكم الله العادل[6]:

لله درُّ عصابةٍ لاقيتهم ... يا ابنَ الحُقيقِ وأنتَ يا ابن الأشرف[7]

---

(1) جاء في طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي (ص 107)، أن (كعب بن الاشرف وهو من طئ وأمه (يهودية) من بني النضير فكان في أقواله سيداً وبكى قتلى بدر وشبّب بنساء النبي ﷺ ونساء المسلمين فأمر الرسول محمد بن سلمة ورهطاً معه من الأنصار بقتله فقتلوه.

(2) ابن هشام، السيرة، ج2، ص431.

(3) تستهل: تسيل بالدمع.

(4) سراة الناس: خيارهم، لا تبتعدوا : لا تستبعدوا.

(5) الأروع: الذي يروع لحسنه وشجاعته.

(6) ديوان حسان بن ثابت، ص 329.

(7) العصابة: الجماعة من الناس.

يســرون بــالبيضِ الرِّقــاق إلـيكمُ ... مرحــاً كأســدٍ في عــرين مُغــرفِ[1]

حتّــى أَتــوكم في محــلّ بلادكــم ... فســقوكم حتفــاً ببــيض قرقــفِ[2]

مستبصــرين لنصــر ديــن نبــيهم ... مستصــغرين لكــل أَمــرٍ مجحــفِ[3]

كما يشير كعب بن مالك إلى ما أصاب اليهود من خزي جزاء غدرهم وخيانتهم فيقول في مقتل كعب[4]:

لقــد خزيّــتْ بغــدرتها الحبــورُ ... كــذلك الــدهر ذو صــرف الأمــورُ

فيجيبه سماك اليهودي معبّراً عن الهم المقيم الذي أصابه لمقتل كبيرهم كعب:[5]

أرقــتُ وضــافني هــمٌّ كــبير ... بليــلٍ غــيرهُ ليــلٌ قصــيرُ[6]

شعر الـردّة:

إثر وفاة النبي سعى عدد من القبائل العربية لدى الخليفة أبي بكر الصديق ليضع عنهم فريضة الزكاة، ويبدو أنهم لم يدركوا أبعاد هذه الفريضة الإنسانية والاجتماعية والخلقية، فنظروا إليها على أنها جزية مفروضة عليهم لقريش، ولهذا

---

(1) يسرون: من السرى، وهو السير ليلاً، البيض الرقاق: السيوف، مرحاً: نشاطاً. في عرين مغرف، العرين: الأجمة، والغريف: النهر، يريد في أجمة في ماء.

(2) القرقف: الخمر، سميت كذلك لأنها تقرقف شاربها أي توعده، ومعنى الشطر الثاني: سقوكم بالسيوف مناياكم فصرعنكم كما تصرع الخمر شاربها.

(3) مجحف: ذاهب بالنفوس والأموال.

(4) ابن هشام، السيرة، ج3، ص204- 205، والحبور: زعماء الدين اليهود.

(5) المصدر السابق، ص207، وضافني : نزل بي، زارني .

(6) حبيب يوسف مغنية، المصدر السابق، ص15.

فهم أنفوا أن يؤدوها، من هذه القبائل أسد، وغطفان، وطئ، وكان من الطبيعي أن يرفض أبو بكر إجابتهم لما يطلبون، وفي ذلك يقول جزول الحطيأة معبراً عن نزوع العربي الفطري إلى التحرر من القيود، ورفضه الخضوع لأية سلطة، ومشيراً في الوقت عينه إلى ما يعتمل في النفوس من التبرم والسخط لاستئثار قريش بالخلافة من دون العرب جميعاً، مهدداً ومتوعداً بحرب لا تبقي ولا تذر[1]:

أطعنا رسول اللهِ ما كان بيننا ... فيا لعبادِ اللهِ ما لأبي بكر؟

أيورثها بكراً إذا مات بعده ... وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

فهلاّ رددتم وفدنا بزمانه ... وهلاّ خشيتم حسّ راعية البكر

وإنّ التي سألوكم فمنعتُمُ ... لكالتَّمر أو أحلى إليّ من التمر[2]

وفي زمن أبي بكر حرّر الجيش العربي الإسلامي بقيادة خالد بن الوليد الحيرة من الاستعمار الروماني، وكان الزعماء العرب فيها صنيعة هذا المستعمر قد تنصّروا ونصَّروا أتباعهم من العرب، فلما غُلبوا على أمرهم بالفتح آثروا البقاء على دينهم فصالحهم خالد بن الوليد على أن يؤدوا الجزية، وفي ذلك يقول بقيلة عمرو بن عبد المسيح شعراً يشكو فيه من تبدل الأحوال، ويتحسر على ما كان لهؤلاء الزعماء والمترفين والقادة من امتيازات في ظل المناذرة، حلفاء المستعمر، فقد كانوا قبل الفتح والتحرير أصحاب سطوة وجبروت، وها هم الآن يؤدون الجزية كأبناء فارس واليهود، ونلمح في هذا الشعر اتجاهاً قبلياً واضحاً يوجه المعاني وجهة عصبية قديمة، مثله في هذا مثل معظم الشعر الذي قيل في هذه الفترة بعيداً عن مقرّ الخلافة في الحجاز، يقول ابن بقيلة[3]:

---

(1) الأغاني، ج2، ص157.

(2) يعني بذلك إسقاط الزكاة والتحلل من الخضوع لسلطة الخليفة.

(3) تاريخ الطبري: ج3، ص362.

أبعدَ المُنذرين أرَى سواماً ... تُروّحُ بالخورنقَ والسديرِ[1]

وبَعْدَ فوارسَ النُّعمان أرعَى ... قلوصاً بين مُرة والحفير[2]

فصرنا بعد هُلكِ أبي قُبيسٍ ... كجُربِ المعزِ في اليوم المَطير

نُؤدّي الخرج بعد خراجِ كسرى ... وخرج من قريظة والنضير

كذاك الدّهرُ دولتُه سجالٌ ... فيومٌ من مساءةٍ أو سرورِ

ولمّا فرغ أبو بكر الصديق من حروب الردة ونجح في إزالة الآثار المترتبة عليها، واستقر الأمر في سائر أنحاء الجزيرة العربية وجّه الجيوش لتحرير وادي الرافدين وبلاد الشام من الاحتلالين الأجنبيين الفارسي والروماني[3].

---

(1) السوام: في الأصل: المال الراعي، والمقصود هنا العامة من الناس، الخورنق والسدير: من قصور المناذرة.

(2) القلوص: الناقة الفتية.

(3) حبيب يوسف مغنية، المصدر السابق، ص162.

الشعر في زمن الرسول ﷺ

أول ما يلاحظ في هذا العصر، أن المناقضات التي كانت قائمة بين الأوس والخزرج في المدينة، اتجهت في الإسلام وجهة جديدة، فالأحقاد القبلية بين أهل المدينة قد عفا عليها الإسلام، فتحولت إلى مناقضات بين قريش في مكة، والأنصار في المدينة، وقد نشط في ذلك حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وكلاهما خزرجي من المدينة، وبرز عبدالله بن الزبعري وضرار بن الخطاب، وكلاهما قرشي من مكة .

وللتحدي الجديد الذي شهدته مكة من شعراء المدينة، الذين رفعوا راية الإسلام من جهة، وللتهديد الذي واجهها من قوة الدين الجديد، الذي جاء ليقوض كل معتقداتها ومقدساتها، من جهة أخرى، فقد برزت الشاعرية القرشية في هذه الظروف، بعد ان كانت ضعيفة هزيلة في الجاهلية، فصحيح انه كان لقريش شعراء معروفون قبل الإسلام – كأبي سفيان وابن الزبعري – إلا ان شعرهم ما كان ليطاول شعر المدينة، وكان ابن سلام قد رد قلة الشعر القرشي، وضعه في الجاهلية إلى انه: " لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا" [1]، وقد وجدت في الإسلام النائرة، وكثرت الحروب وشحذت الهمم والعزائم، فبرز الشعراء القرشيون، وقد كان نشاطهم محددا بفترة ما قبل الفتح، ويمكن أن نحدد بداية نشاطهم – المتعلق بالإسلام – ببيتين لضرار بن الخطاب فيما يروي ابن اسحق [2]، قالهما في سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو الأنصاريين، في أمر العقبة الثانية، والبيتان هما:

---

(1) طبقات الشعراء ص217.

(2) السيرة ق1 ص450 وعيون الاثر ج1 ص166.

تـداركت سـعدا عنـوة فأخذتـه

وكـان شـفاء لـو تـداركت منـذرا

ولـو نلتـه طلـت هنـاك جراحـه

وكـان حريـاً أن يهـان ويهـدرا

وكان أن أجابه حسان بقوله من أبيات(1):

لسـت إلى سـعدٍ ولا المـرء منـذرٍ

إذا مـا مطايـا القـوم أصبحن ضُمّرا

فلـولا أبـو وهـبٍ لمـرّت قصـائدٌ

علـى شـرف البرقـاء يهـوين حُسّـرا

أتفخـر بالكِتـان لمـا لبسـته

وقـد تلبس الأنبـاط ريطـا مقصـرا

ويستمر نشاط الشعر القرشي خلال المعارك الإسلامية، في بدر وأحد والخندق حتى الفتح، حيث يسلم شعراء مكة ويقولون الشعر في مديح رسول الله ﷺ والاعتذار إليه، ويلوذ الشعراء بعدها بالصمت فلا يجدون متنفسا إلا في بعض الأحايين، ونكاد لا نسمع صوت الشعر القرشي بعد ذلك.

---

(1) السيرة ق1 ص451، وديوان حسان بن ثابت ص192 روى البيت (لست الى عمرو...) البرقاء: موضع في البادية ومنه قول الراجز: (يترك بالبرقاء شيخا قد قلب). الانباط: قوم من العجم، الريط ج ريطة، الملاحف البيض.

وإذا ما اتضحت الشخصية الإسلامية قوية ذات شدة وخطر في المدينة، يكون المسلمون قد بدأوا مرحلة جديدة في النضال متخذين القوة سبيلا، فيتطور الصراع من المناوشات الكلامية إلى الحرب الدامية التي تتخطف الصرعى من كلا الجانبين، ولم يكن ذلك الصراع الدامي ليقتصر على القرشيين من جانب، والمسلمين من جانب آخر، بل شمل القرى اليهودية وتأثر به الأعراب في البادية، والثقفيون في الطائف، فانحاز بعض هؤلاء إلى معسكر المسلمين في المدينة، وانحاز آخرون إلى معسكر المشركين في مكة، وقد استمرت هذه الحال خلال السنوات التسع التي سبقت النصر في الفتح، ودخول الناس في دين الله، وكسر شوكة اليهود من قريظة والنضير.

وقد كانت الأحداث الكبرى التي مكنت للدعوة ونشر الدين، أهم عامل لازدهار الشعر في عصر النبوة، فالفترة الواقعة بين الهجرة إلى حنين والطائف، كانت فترة ازدهار الشعر وفورته، لأن الخصومة كانت قائمة على جدتها وشدتها، وأبان هذه الأحداث ظهر الطابع الديني في شعر الشعراء المسلمين، ولذلك فعلى الدارس ان يتبع اثر الدين في الشعر الذي قيل في الإحداث الكبرى بخاصة، مقارنا ذلك الأثر بما جاء في كتاب الله العزيز من تصوير للمعارك والغزوات ومن توجيه للمسلمين[1].

---

(1) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ص260.

أثـر القرآن الكريم والحديث الشريف

ان القـرآن الـكـريم كـان اول ظـاهـرة نثريـة فنيـة عرفهـا العـرب كـتابـة وان الادب لم يتـأثر بـالقرآن فقـط مـن حيـث المعنـى بـل تعـدى ذلـك الى المبنـى وسـلك الاسلوب نفسه من من تعابير ومفـردات، فقـد حقـق القـرآن الكـريم للهجـة قـريش استكمال سيادتها علـى شـبه الجزيرة العربيـة فلقـد بهـر العـرب بلغتـه وعجـزهم بأسلوبه فتأثروا به وامتد انتشارها ليس بين القبائل العربية فحسب بل تعـدت ذلـك الى سـائر الأجنـاب الاخـرى الـتي دخلـت في الاسـلام وارتبطـت بـه وبدولتـه وبهـذا أحدث الاسـلام انقلاباً في الادب علـى صعيد وانتشـرت مـع انتشـار الـدين الجديـد واتسعت افاقهـا وتحضـرت حتـى بلغت منـاطق اخـرى واصبح باستطاعتها مجـاراة الحضارة.

وحفظ القرآن الـكريم اللغة من الانقـراض لأنـه أتـاح اللغـة الفصـحى البقـاء والـدوام فقـد اكتسـب اللغـة الفصـحى بـالقرآن الـكـريم قدسـية جعلـت السـلمين يتمسـكون بها ويحـافظون عليها ويولونها دراسة وعناية علـى مـر الحقـب والعصـور وبهـذا ظلت حيـة خالـدة كمـا اكتسبت اللغـة الفصـحى بفضـل القـرآن الـكـريم الفاظـاً جديـدة لم تكـن معروفـة عنـد العـرب بـدلالتها الـتي صيغها بـه القـرآن الـكـريم مثـل الكفـر والايمـان والنفـاق والاشـراك والاسـلام والصـلاة والصـوم والزكـاة والتـيمم والركـوع والسـجود.... الخ مـن الالفـاظ الـتي ارتبطـت بالـدين الحنيف واصبحت مصطلحات في اللغة والشرع وحيثما نتصفح المعاني الجديدة في الشـعر الإسـلامي نراهـا مستمدة مـن القـرآن الـكـريم الـذي راح يعـالج الحيـاة والقضاء والقدر ونفوس البشـر وداخلته معان جديدة مثل الثواب والعتـاب والتقـى والروع والزاهد والشوق الى الأخرة بحيث طغت على هـذا الشـعر وأصبحت ملمحـاً من ملامحه ومستلزماً من مستلزماته.

ومـن تـأثير القـرآن الـكـريم انه قـد أثـر في اللغـة تـأثيراً داخليـاً حيـث هـذه الـكثير من الفاظها ورق لها اساليبها وأبعدها عن الحوشية وغرابة اللفظ اذ اكثر

المسلمون من ترديد آياته في الصلاة والتعبير بتلاوته ودوام درسه والتأمل فيه ونتج جراء ذلك من خلال هذه العناية في الحفظ والدراسة ان ظهرت كثير من العلوم اللغوية والشرعية او تلك العلوم التي قامت عند المسلمين الاوائل انما قامت لخدمة القرآن الكريم فقد اكتسبت اللغة من هذه العلوم الكثير من الاصطلاحات والاساليب الفنية فحققت بذلك ثروة جمة ما كانت تعرفها من قبل وكان من اهم هذه العلوم علوم اللغة والادب والنحو والصرف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع ورسم العروض والقراءات والتفسير والحديث والاصول والتوحيد والفقه والزهد والتصوف والاعتزال.

وبتأثير القرآن الكريم ازدهرت الخطابة الإسلامية استجابة لمتطلبات العصر واحداثه كالخطب الدينية التي اشتهر بها الامام علي بن ابي طالب، فقد كان الوسيلة المناسبة والاكثر فعالية لانتصار الدين الجديد وقيم مبادئه وذلك عن طريق اقناع الناس باستخدام طريق القول والتأثير فيهم بوساطة الترغيب والترهيب وفق ماجاء في القرآن الكريم بما أضاف من الفاظ وتراكيب وصور وأدلة وبراهين وايجاز وبلاغة. وينسحب ذلك على اثر في حقل النثر العربي، مما دفع الادباء الى الارتقاء بالأساليب الفنية والصورة والاخيلة.

اما الحديث النبوي الشريف فهو ما روى عن النبي محمد ﷺ قولاً، والنبي الكريم افصح العرب لا جدال وخطبه وأحاديثه وجوامع كلمه من حيث البلاغة اقل درجة من القرآن الكريم لكنها في الذروة العليا بالنسبة لكلام العرب وكان له تأثير واضح في متلقيه من المسلمين الاوائل واللاحقين بعدهم فقد احتفظوا به وحفظوه مشافهة من الرسول ﷺ وتناقله الصحابة ثم التابعون واقتفوا أثره في كلامهم واغترفوا من معانيه تضميناً واقتباساً.

وقد ارتبط الحديث النبوي الشريف بالقرآن الكريم لا نه جاء مفسراً للكثير من أحكام ولهذا ارتبط باللغة وكان تأثيره فيها جليلاً، فقد ساهم الحديث النبوي الشريف مع القرآن الكريم في انتشار اللغة العربية الفصحى

وحفظها وبقائها كما ان له اثراً في تهذيب اللغة والنأي بها من الحوشي والهجين، كما كان للحديث النبوي أثره في العلوم التي قامت من اجله او العلوم التي أسهموا فيها مثل علم غريب الحديث وعلم مصطلح الحديث وعلم الرجال و الأثر، ومثل علم التفسير والفقه والأصول وقد ادى هذا كله الى ثراء النهضة العلمية التي قامت على أيدي العلماء المسلمين في العصور الإسلامية المختلفة.

تمكن القرآن من فطرة العرب على وجهه المعجز، فنزل من نفوسهم منزلة الطبع الأصيل، وأثر في ألسنتهم وحياتهم، وكان إليه مرد كل حظ أصابوه من الارتقاء في معارف الكمال.

والذي يعنينا ذكره هنا هو بيان لمح من أثره في اللغة وأدبها، إذ البحث كله مسوق إلى ذلك وحده، ونجعل ذلك في أمور:

1- جمع العرب على لغة واحدة، هي لغة قريش وحاضرة الحجاز، وجعل هذه اللغة لغة الدين والساسة والإدارة والحياة، وكانت قبل نزوله لجهات متعددة لكل قبيلة لهجة ولحن.

2- كانت اللغة العربية محصورة في جزيرة العرب، لا تعدو أغراضها مطالب الحياة الضيقة التي كانوا يحيونها، فما اجتمعوا على القرآن وساروا تحت لوائه فاتحين، حتى سارت معهم لغتهم شرقا وغربا، وانتشرت في الأصقاع البعيدة، وأصبحت لغة الملايين في أنحاء الأرض من جنوبي فرنسا في الغرب إلى تخوم الصين في الشرق، وأصبح الناس يتعلمونها في الغالب تديناً لتفهم القرآن وتدبر آياته ومعانيه، ويتعلمونها سياسةً للتفاهم مع حامليه إليهم.

3- جعل اللغة العربية اللسان الرسمي للدولة الإسلامية التي انتظمت أمماً وشعوباً عظيمة.

4- صانها من ان تتبدل بالاختلاط الذي وقع ولم يكن منه بدٌ، ولولاه لتبدلت فعلاً، اختلف في اللهجات وأصبح لكل لغة عامية يتخاطبون

بها، ظلت اللغة الأدبية والعلمية بينهم مشتركة، وكان الفضل في هذا له وحده.

5- وسعَّ أغراضها، فخضعت للتعبير عن عقائد الدين من نحو البحث في وجود الصانع وتوحيده، والنبوة وما توجبه من الأيمان بالبعث، وخضعت للتعبير عن الأحكام التشريعية، وعن مرافق الحضارة والعمران ونظم الملك وعن الفنون والآداب والعلوم على اختلافها.

6- وسع معانيها بما أدى إليه من ارتقاء الفكر والثقافة وشرائع الحياة.

7- وسع مادة ألفاظها بالتوسع في دلالاتها وإخراجها من معنى إلى معنى بينه وبين الأول مشابهة وعلاقة، كما فعل في ألفاظ الصلاة والصيام والزكاة والمسلم والمؤمن والكافر والفاسق والركوع والقيام والوضوء، وغيرها ألوف، فالمعنى اللغوي لهذه المفردات هو غير المعنى الاصطلاحي، وجرى مجراه في ذلك (الحديث)، وتبعهما في مذهبهما أهل العلوم والآداب والفنون والصناعات فيما وضعوا من مصطلحات تزخر بها المعجمات ويعسر استيفاؤها، فكانت للألفاظ معان لغوية ومعان اصطلاحية، وسيبقى هذا الباب المدد الذي يمد اللغة والعلوم بحاجاتها من ذلك في كل زمان.

8- هذب ألفاظها وأساليبها بما هذب من طباعهم وألان من قلوبهم، بقراءته وحفظه والاقتباس منه، فهجروا الغريب، وجاءوا بالعذب الرقيق المأنوس، فرقت لذلك الأساليب.

9- دفع العلماء إلى تتبع اللغة وتدوينها ورواية شواهدها، فألفت دواوين اللغة وكتب البلاغة والنقد، وجمعت دواوين الشعر، فكان صنيع هؤلاء العلماء صلة بين اللغة والعلوم التي أفرغت عليها من بعد.

10- كان السبب في أحداث علوم كثيرة لولاه لم يخطها قلم، فاقتضت صيانته من اللحن والفساد نشوء النحو والصرف والاشتقاق، وتقرير

إعجازه المعاني والبيان والبديع، والنقد والموازنات الأدبية، وبعث تفسير مفرداته وتوضيح معانيه على تدوين اللغة والأدب والشعر، وأدى استنباط أحكام الشرع منه إلى تدوين الحديث وابتكار الأصول وكتابة الفقه والتفسير، وتأييد عقائده إلى التأليف في علم الكلام والجدل والمناظرة، كما أوجد بقصصه التاريخية المسوقة للعبرة وتعرضه لأحوال الأمم والاجتماع والسياسة والاقتصاد والأخلاق فنوناً هي للأدب مادة لا تنضب، كفن القصة، والتاريخ، وعلم الاجتماع، والأخلاق، إلى غير ذلك مما أكسب اللغة ثروة عظيمة في المعاني والاصطلاحات والأساليب.

11- اتخذه الأدباء إماماً في طريقته البيانية، ونهلوا من معانيه، وحفظوا روائعه، فكان لهم منه معين فياض فيما افتنوا فيه من صور البيان، والتمسوه من أسباب الجمال في رسائلهم وأشعارهم وقصصهم وأدبهم في جميع العصور[1].

أ- أما أثره في الأساليب والألفاظ، فيتجلى واضحاً فيما يلي:

1- وحد القرآن لهجات اللغة العربية في أفصح لهجة، وأعذب لغة، وهي لهجة ولغة قريش، ثم حفظ اللغة من الاندراس والانقراض، كما انقرضت لغات كثيرة.

2- كان القرآن أول عامل في ذيوع اللغة العربية وانتشارها وجعلها لغة رسمية عامة في شتى البلاد التي فتحها المسلمون.

3- جدد القرآن الكريم كثيراً من الألفاظ، فنقلها إلى معان إسلامية، مثل الإيمان والكفر والنفاق، والصلاة، والصيام، والزكاة، والركوع،

---

(1) محمد بهجة الأثري ومصطفى جواد وكمال إبراهيم، الأساس في تاريخ الأدب العربي ص116.

والسجود، والوضوء، والغسل، والحج.

4- هذب القرآن الأساليب والألفاظ، وذلك بكثرة ترديد المسلمين لآياته على ألسنتهم في الصلاة والعبادة، وطول درسهم له وتفهمهم إياه واستنباط أحكام دينهم وشريعتهم منه، فنشأ من ذلك ان هجر كثير من الأساليب الحوشية والمعيبة واستبدل بها الألفاظ العذبة السائغة، وعدل عن الأساليب القديمة المعقدة والمتداخلة في بعض أساليبه السهلة الممتنعة، وأبطل سجع الكهان.

5- وقد كثرت محاكاة الشعراء والكتاب والخطباء لعبارات القرآن في ألفاظه وأساليبه واقتباسهم من آياتهم فيما يقولون واستشهادهم بها في وعظهم ومحاورتهم وجدلهم. ويرى المتتبع لشعر المخضرمين في أول الإسلام كحسان وأبي قيس صرمة وكعب بن مالك والحارث بن عبد المطلب، ولشعر الإسلاميين كثيراً من ألفاظ القرآن وأساليبه وكناياته وتشبيهاته.

6- وقد خلد القرآن صور البيان الرائع والأساليب البديعة التي استخرجها بعض الأدباء منه وسموها المحسنات البديعية.

ب- وأما أثر القرآن الكريم في معاني الأدب العربي فيتلخص فيما يلي:

1- شيوع الدقة، والعمق والترتيب العقلي، والحصافة والسمو، في معاني الأدب -شعره ونثره- بتأثر الأدباء والشعراء بمعاني القرآن الكريم، ومحاكاتهم لها.

2- هجر المعاني البدوية والحوشية والنابية، واستعمال الأدب للمعاني الإسلامية الجديدة.

3- ترك المبالغة والفحش، والتزام الصدق والإخلاص في معاني الأدباء الإسلاميين.



ج- وقد أثر القرآن الكريم في أغراض الأدب شعره ونثره تأثيراً كبيراً:

1- فقد هجر الأدباء الإسلاميون الأغراض الجاهلية: من المبالغة في المدح والفخر والهجاء، والمجون في الغزل، والدعوة إلى العصبيات والانتقام والأخذ بالثأر.

2- وقد أتى القرآن بكثير من القصص المسوقة للعبرة والذكرى، كقصص الأنبياء وبعض الملوك، وكان من أهم الأساليب التي حملت المسلمين على درس تاريخ العرب البائدة والأمم القديمة السامية وغير السامية، مما جعل التاريخ العربي ذا فنون وشعب كثيرة العدد والمباحث، وجعله من أجمل كتب الأدب العربي . وهكذا أحيا القرآن فنوناً أدبية جديدة، كأدب القصة والتاريخ، وأدب الزهد وأدب الحكمة وهكذا.

3- وبسبب القرآن عكف العلماء والمفكرون على وضع أصول العلوم والثقافة الإسلامية، وكثرت الكتابة في هذه العلوم والثقافات، ولشدة حرص المسلمين على تفهم القرآن من حيث معرفة ألفاظه والوقوف على معانيه الوضعية والمجازية وأساليبه المختلفة وكناياته الدقيقة حملتهم بل فرضت عليهم تتبع ألفاظ اللغة العربية الفصيحة من العرب الموثوق بخلوص عربيتهم، فكان من ذلك أن تجرد ألوف من الرواة، يجمعون اللغة وشعرها وأمثالها ووصاياها وخطبها وأسجاع كهانها، فجمعوا من ذلك مئات الكتب والرسائل، وتألفت بذلك مادة الأدب القديم، التي صار فيما بعد أساساً للآداب العربية في موضوعاتها وأغراضها ومعانيها وتصوراتها وأخيلتها.

4- ولقد رفع القرآن من شأن النثر بعد ان كان المقام الأول للشعر وحده من بين فنون الأدب.

5- ولقد اكتسب الشعراء والخطباء والكتاب من أساليب القرآن وطرائقه في التعبير ومناهجه في سوق الآراء وصياغة الحجج، ما جعلهم يحتذون حذوه، ويتبعون منهجه، فإذا كنا نقرأ آي الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أو قوله ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ أو قوله :﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ .

فإنا نرى هذا الأسلوب البياني الرائع يتمثل في قول حسان بن ثابت في الرد على أبي سفيان بن الحارث حين هجا النبي ﷺ :

أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. رأينا كذلك حساناً يقتبس هذا الأسلوب في قوله:

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى ... حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ رأينا معن بن أوس يقول متأثراً بأدب القرآن:

فما زلت في ليني له وتعطفي ... عليه كما تحنو على الولد الام

وخفضٍ له مني الجناح تألفاً ... لتدنيه مني القرابة والرحم

وكما أثر القرآن في أساليب الأدباء كذلك أثر في تفكيرهم حتى لقد رأينا الحطيأة وهو أقرب إلى جفاء البدو وخشونة الأعراب يقول:

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقي هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد ذخراً ... وعند الله للأتقى مزيد

والحق أن القرآن الكريم هو الذي خرج أعلام البلاغة وفحول البيان والأدب والشعر[1].

وأثر الحديث النبوي في الأدب العربي يمكننا تلخيصه فيما يلي:

أ- أثره في الألفاظ والأساليب:

1- زاد الحديث النبوي ألفاظاً جديدة، كتسمية: " صفر الأول"، محرماً وكلفظ الزمارة للزانية، التي وردت في حديث أبي هريرة: " إن النبي نهى عن كسب الزمارة" وككلمة الصير بمعنى الشق في قوله ﷺ " من اطلع من صيرِ باب فقد دَمَّر".

وللحديث الشريف أثر في توسيع معاني بعض الألفاظ واشتقاق أخرى، مما لا داعي للإفاضة فيه.

2- ساعد الحديث الشريف على تهذيب الألسنة، وتثقيف الطباع والقضاء على الحوشية والغرابة والمعاظلة والتعقيد في البيان، وأحل محل ذلك السلاسة والسهولة والرونق والوضوح وسلامة الأسلوب والبيان.

3- قضى على سجع الكهان، ورفع منزلة النثر.

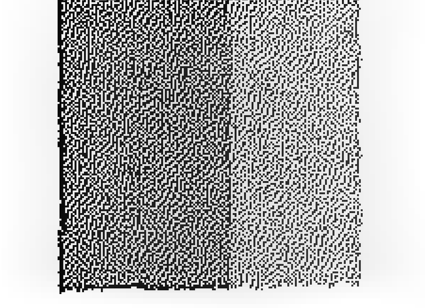
4- زاد كثيراً من الأساليب البليغة في الأدب العربي.

ب- أثره في المعاني:

وقد أثر الحديث في معاني الأدب والأدباء والشعراء وأخيلتهم تأثيراً كبيراً، فنضجت بسببه معانيهم، ودقت أفكارهم وحصفت آراؤهم، وأصبحت كذلك يسودها الأحكام والترتيب، ويغلب عليها السمو والطهر والنزوع إلى المثل العليا والمبادئ الشريفة.

---

(1) الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، ص75.



ج- أثره في أغراض الأدب:

1- وقد أثرت البلاغة النبوية في أغراض الأدب العربي تأثيراً كبيراً، فهجر بسببها الهجاء الكاذب والفخر المبالغ فيه والهجاء الماجن، والدعوة الجاهلية إلى الانتقام والأخذ بالثأر وإثارة العصبية.

2- وأصبحت أغراض الأدب تحتذي البلاغة النبوية في أغراضها، فلا يقول الأديب ولا ينظم الشاعر إلا في الدعوة إلى الخير والحق والإسلام، وفي تأييد العقيدة الإسلامية، وفي كل شريف من الأغراض، وكريم من الموضوعات.

3- وصار الحديث النبوي كذلك محوراً لعلوم دينية وعربية كثيرة وضعت لدراسة الحديث.

4- كما ساعد الحديث النبوي على توحيد لهجات العربية وعلى ذيوعها وخلودها، فهو متمم للقرآن الكريم في هذا الميدان[1].

وأثر الحديث في اللغة والأدب، كأثر القرآن فيهما، لأنه جار على مذهبه، مترسم لطريقته، نازع منزعه، ومن ذلك أنه:

1- عاون القرآن في حفظ اللغة العربية ونشرها.

2- كان لتضافر العلماء والرواة على جمعه وشرحه والاستنباط منه، وتنقلهم بين الأقطار للمشافهة به وأخذه وروايته، أثر واضح في توحيد الثقافة وتربية الملكات وتقويم الألسن ونشر اللغة وتمكين الأدب.

3- وسع المادة اللغوية بتوسيع دلالات الألفاظ، واخراجها من معنى إلى معنى آخر، بينه وبين الأول مشابهة كالألفاظ الفقهية والشرعية مما لم يرد في القرآن الكريم، ومما كان له من الأوضاع المفردة كلفظة (المخيلة)

---

(1) الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، ص107.

مثلاً في قول لبعض العرب : "إياك والمخيلة[1] . فقال يا رسول الله، نحن قوم عرب، فما المخيلة؟ فقال : " سبل الازرار " [2]، ومرت الكلمة بعد ذلك على هذا الوضع يراد بها الكبر، وهذا باب واسع جداً ذو شأن في توسيع المادة اللغوية.

4- وسع الأساليب بابتكار أوضاع التراكيب الفنية، وهي مظهر أسرار اللغة وجمال البيان، وقد اتفق له من ذلك ما لم يتفق لأحد مثله في حسن البلاغة، وكلها صار مثلاً وأصبح ميراثاً خالداً في البيان العربي، كقوله عليه الصلاة والسلام: " بعثتُ في نَفَس الساعة" [3]، وقوله : " مات حتف أنفه" [4]، وقوله في حديث الفتنة: "هدنة على دَخَن" [5]، وقوله في صفة الحرب يوم حنين[6] : " الآن حَمِي الوطيس" [7]، وقوله للحادي أنجشة: " رويدك ! رفقاً بالقوارير" [8].

---

(1) المخيلة : الكبر، كالخيلاء. وفي الحديث: " من جر ثوبه خيلاء، لم ينظر الله إليه" .

(2) سبل الازرار: إرساله إلى الأرض.

(3) أي بعثت وقد حان قيامها وقرب، فأطلق النفس على القرب وقيل : معناه انه جعل للساعة نفساً كنفس الإنسان، أراد بعثت في نفس وقت قريب منها أحس فيه بنفسها كما يحس الإنسان بنفس الإنسان إذا قرب منه، يعني بعثت في وقت بانت اشراطها فيه وظهرت علاماتها. ويروي في (نسم الساعة).

(4) هو ان يموت على فراشه، كأنه سقط فمات، والحتف: الهلاك.

(5) أي على فساد واختلاف وغير صفاء.

(6) حنين: موضع بين الطائف ومكة، كانت فيه الموقعة المشهورة بين المسلمين والمشركين.

(7) الوطيس: التنور، والحديث كناية عن شدة الأمر واضطرام الحرب.

(8) رويدك: امهل وتأن، والقوارير : أراد بها النساء شبههن بالقوارير من الزجاج، لأنها يسرع اليها الكسر. وكان انجشة يحدو وينشد القريض والرجز، فلم يأمن ان يصيبهن، أو يقع قلوبهن حداؤه، فأمر بالكف عن ذلك، أو انه أراد أن الابل اذا سمعت الحداء، أسرعت في المشي واشتدت، فأزعجت الراكب وأتعبته، فنهاه عن ذلك لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة.

وبلغاء العرب وان كانت تفعل ذلك، غير أنها ي أكثره إنما كانت تتسع في موجود، ولا تبتكر إلا نادراً.

5- دفع العلماء إلى تتبع لغة الحديث وتدوينها، فألفوا في لغة الحديث ومجازه كتباً كثيرة لا تحصى، كتب في ذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى والنضر بن شميل المازني، والأصمعي وقطرب وأبو عبيد القاسم بن سلام، وابن قتيبة، وإبراهيم بن إسحاق الحربي، وثعلب، والمبرد، والخطابي، وابن الأثير، والزمخشري، والرضي، وغيرهم من أئمة اللغة.

6- أنشأ للثقافة العامة ثروة لا تنفد من الحكم الخالدة، والأمثال السائرة، كالأحاديث التي رويناها من قبل، ونحوها كثيرة جداً، وهي للبيان حلة، وللسان قوة، وللقلب زاد، ، وللأدب ذخر، وللحياة الطيبة معين[1].

---

(1) الأساس في تاريخ الأدب العربي ص 153.

موقف الإسلام من الشعر

قال أحدهم : " سقط الشعر بظهور الإسلام " ، وقال شاعر الرسول حسان بن ثابت الانصاري عندما سئل عن رآيه في الشعر : " الشعر يزينه الكذب والإسلام حرم الكذب" ، ولكن على الرغم من هذا كله فلقد كان النبي محمد ﷺ بحاجة الى من يسانده بلسانه ، لذلك كان له شاعره الخاص، حسان بن ثابت الأنصاري وكان له مناصروه امثال كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وكعب بن زهير الذي راحوا يمدحونه ويمدحون الاسلام ويردون على المناوئين والخصوم وقد داخلت الشعر معان اسلامية كثيرة كذلك الله والبعث والثواب والعقاب والجنة والنار والايمان والكفر والتقى والورع كما انه حفل بالفاظ وتعابير مستوحاة من ادب القرآن والحديث.

ولقد وردت لفظ (الشعر) في آية واحدة وتحدث عن الشعراء في أية واحدة، وان الله سبحانه وتعالى اراد ان ينفي عن رسوله صفة وصفها به المشركون وهي الشاعرية ((بل قالوا اضغاث احلام، بل افتراء، بل هو شاعر)) وجاءت هذه صفة لان المشركين سمعوا عنه ما نزل عليه من الوحي الذين احتاروا في شأنه فنسبوه الى نوع من انواع الكلام المؤثر وهو الشعر وسجع الكهان، وهكذا فان دعوى المشركين لا تمس الشعر مباشرة من حيث كونه شعراً وانما جاءت الآيات لإبطال هذه الدعوى التي تخص الرسول محمد ﷺ بالشاعرية وأراد الله سبحانه ان ينفي الشاعرية عنه ﷺ لان العرب كانوا يرون في الشاعر مساً من الجن او الشياطين يوحون اليهم ثم ان الشعراء عرفوا بمسلك خلقي يتسم بالإسراف في اللهو والإقبال على الملذات المادية ثم كان نفي الشاعر امر حتمياً تفرضه السامية للدين الحنيف.

أما الموقف الخاص من الشعراء فقد جاء في قوله: " والشعراء يتبعهم الغاوون، الم تر انهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون" ، يقول ابن رشيق بأن المقصود بالشعراء هم شعراء المشركين الذين تناولوا الرسول محمد

ﷺ بالهجاء والاذى واستثنى سواهم من المؤمنين (الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ماظلموا) ويريد بذلك الشعراء الذين وقفوا انتصاراً للرسول محمد ﷺ.

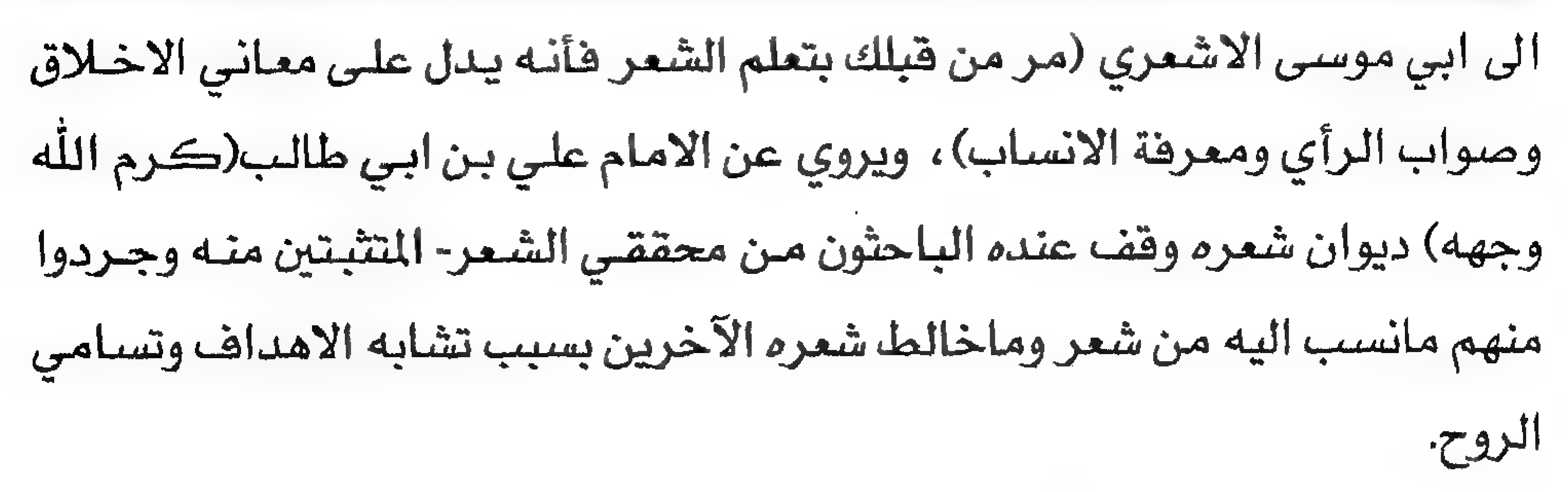
وفي ضوء ذلك فان الاسلام في موقفه انما ينبع من موقف الشعراء أنفسهم وهم فريقان: فريق بعد عن الحق ووقف الشعر يصد عن سبيل الله ويهجو رسوله ﷺ واصحابه، وفريق امن بالحق ووقف يدافع عنه رادا كيد المشركين وعلى ذلك جاءت اقوال الرسول محمد ﷺ : (انما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه) وظهر موقف الرسول محمد ﷺ من الشعر من امرين، الاول نهيه من الشعر الذي ينكر الاعراض ويثير الاحقاد ويشيد بالعصبية، والثاني غلبة الشعر على قلب المرء الذي يشغله عن دينه وإقامة فروضه وتلاوة آياته القرآنية الكريمة (لئن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من ان يمتلئ شعراً) وهكذا يبدو ان موقف النبي محمد ﷺ من الشعر موقفاً مشجعاً وايجابياً في جملته هذا لا ينفي اشادته ببعضهم ومن ذلك اباح ﷺ قول الشعر واستمع الى الشعراء واشاد بهم واثابهم فحينما قال النابغة الجعدي:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وانا لنرجو فوق ذلك مظهراً

وقد احس الرسول (ص) روحاً جاهلية في هذا البيت، فقال له، الى أين يا ابا ليلى ؟ فيجيبه النابغة : الى الجنة، فيعجب الرسول ﷺ للجواب، فيقول ان شاء الله وقد قرأ كعب بن زهير قصيدة البردة عليه فلما بلغ قوله:

ان الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الهند مسلول

قال له ﷺ من سيوف الله، فأصلحه كعب، ورأينا الخلفاء الراشدين والصحابة الاوائل مستمدين موقفهم من الشعر من موقف القرآن الكريم وموقف الرسول محمد ﷺ فحثوا على قول الشعر الذي يوافق الحق ونهوا عن الشعر الذي لا يوافق ذلك ويروى عن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) اعتناؤه بالشعر اذ كتب



الى ابي موسى الاشعري (مر من قبلك بتعلم الشعر فأنه يدل على معاني الاخلاق وصواب الرأي ومعرفة الانساب)، ويروي عن الامام علي بن ابي طالب(كرم الله وجهه) ديوان شعره وقف عنده الباحثون من محققي الشعر- المتثبتين منه وجردوا منهم مانسب اليه من شعر وماخالط شعره الآخرين بسبب تشابه الاهداف وتسامي الروح.

وقال إبن عباس : (اذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه من اشعار العرب فأن الشعر ديوان العرب).

وهكذا يبدو ان موقف الاسلام من الشعر في النتيجة لم يكن سلبياً بقدر ما يكون الى جانب السيف مسارين متلازمين لخدمة الدين الحنيف.

موقف الرسول ﷺ من الشعر

إذا ما أخذنا ننظر في السنة النبوية المطهرة في الأحاديث الصحيحة خاصة، وجدنا السنة تتخذ مواقف معينة تؤيد وتؤكد موقف القرآن الكريم من الشعر، وتظهر الأحاديث النبوية مواقف الرسول الكريم محمد ﷺ من الشعر، في ضوء ذلك، فمن ناحية كان ﷺ يذم الشعر، وهو من ناحية ثانية يعجب بالشعر ويستمع إليه ويثني على صاحبه، وهو في ناحية ثالثة يقف منه موقف الحذر فيقوم الشعر ويوجهه الوجهة الإسلامية الصحيحة.

1- ذم الشعر:

كان من الطبيعي أن يتضح موقف الرسول ﷺ من نوع معين من الشعر فيذّمه وفقاً لموقف القرآن الكريم من ذلك الشعر . فقد نهى عليه الصلاة والسلام عن لون معين منه وعن موضوعات خاصة لا تتعدى هجاءه الذي يعني هجاء الدعوة. ومن الطبيعي أن ينصرف عن شعر العصبية والمنافرات والهجاء الذي يؤذي النفوس ويبعث الضغائن بين المسلمين، وعن الشعر الماجن الذي لا يتفق والفضائل النفسية

ويعين على الرذائل : فكل هذه الألوان من الشعر تخالف المبادئ التي قرر الإسلام أن تكون أسس مجتمعه الجديد[1].

فلكي يؤكد المصطفى ﷺ موقف القرآن الكريم من ذم بعض الشعر والشعراء، وردت أحاديث عنه ﷺ في ذلك . منها ما رواه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة وسعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال : " لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير من أن يمتلئ شعراً [2] " . وذكر الإمام الحافظ ابن كثير في تفسيره رواية أخرى لهذا الحديث " قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة حدّثنا ليث عن ابن الهاد عن مخنس مولى مصعب بن الزبير عن أبي سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال النبي ﷺ : " خُذوا الشيطان- أو أمسكوا الشيطان- لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعرا [3] " . وهذا الحديث وإن اختلفت الروايتان فيه إلا أنه يؤكد موقف الرسول ﷺ من الشعر المستهجن القبيح، شعر الهجاء الشخصي الذي يؤذي النفوس ولا يحض على الفضائل ويثير الأضغان والأحقاد ، فذلك شعر مرفوض رفضه القرآن[4]، والمجتمع الإسلامي كله الذي يدعو إلى الفضائل ويبعث على الإخوة والوئام، وروى عن أم المؤمنين عائشة،أنها قد استدركت على أبي هريرة وذكرت نص الحديث كاملاً عن رسول الله ﷺ بما يتفق ومنهجه ﷺ وموقفه الحصيف الحكيم من الشعر المروذل البغيض، ذلك الموقف الثابت الذي لم يختلف عن موقف القرآن من ذلك الشعر نفسه بل أكده وأيده، لقد قالت السيد

---

(1) دراسات في الأدب الإسلامي : للدكتور سامي مكي العاني ص 15.

(2) صحيح البخاري ج7 ص45، وصحيح مسلم 1769/4 ، وانظر كذلك إحياء علوم الدين للغزالي، ودلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني 5، 13، والعمدة لابن رشيق القيرواني 31/1.

(3) تفسير القرآن العظيم : للحافظ ابن كثير 3ص 353 (دار الفكر).

(4) شعر المخضرمين للجبوري: ص42.

عائشة : " لم يحفظ أبو هريرة الحديث، إنما قال رسول الله ﷺ (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلئ شعراً هُجيتُ به)[1]، وقد أجمع المسلمون على ان الكلمة الواحدة من هجاء النبي ﷺ موجبة للكفر قالوا: بل الصواب أن المراد ان يكون الشعر غالباً عليه مستولياً عليه بحيث يشغله عن القرآن والحديث وغيرهما من العلوم الشرعية وذكر الله تعالى وهذا مذموم من أي شعر كان، فأما إذا كان القرآن والحديث هو الغالب عليه فلا يضر حفظ اليسير من الشعر مع هذا لأن جوفه ليس ممتلئاً شعراً والله أعلم.

والواقع ان هذا الحديث هو الشاهد الوحيد الذي وصل إلينا من الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ في ذم الشعر وتهجينه وكان خاصاً بذلك الشعر الذي هُجي به عليه الصلاة والسلام، ولبس بين أيدينا شاهد آخر أو حديث صحيح آخر كشاهد على موقف الرسول ﷺ من الشعر، ولا يعني ذلك أبداً ان موقف الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لم يتضح أو لم تكتمل الصورة من الشاهد الأول حتى تخرج بموقف صريح من الرسول ﷺ تجاه الشعر، بل إننا نعتقد اعتقاداً جازماً ان هذا الحديث وحده يكفي لتوضيح الموقف الأول من الرسول ﷺ وهو تهجين الشعر وذمه، خاصة ذلك الشعر القبيح الذي هجي به عليه الصلاة والسلام، وهو موقف لا يدل على تناقض أو تعارض أو اختلاف في مواقف الرسول ﷺ حاشا وكلاً.

ولهذا ترانا لا نقبل ما ورد إلينا من أقوال وأخبار ذكرت في مصادر الأدب وتاريخه نسبت إلى رسول الله ﷺ استشهد بها بعض مؤرخي الأدب ونقاده، للدلالة على كراهية الرسول ﷺ لشعر امرئ القيس وذمه، ذلك لأن الأشعار التي وردت

---

(1) الإجابة لا يراد ما استدركته عائشة على الصحابة: لأبي عبدالله الزركشي (تحقيق: سعيد الأفغاني – دمشق)، ص 67، وانظر الدكتور العاني ص15، وانظر صحيح مسلم بشرح النووي ج15 ص 14- 15.

في تلك الأخبار منسوبة إلى امرئ القيس ليست[1] صحيحة أبداً ولم ترد في قصائد الديوان الذي بين أيدينا، فقد ذكر ابن قتيبة ومحمد بن أبي الخطاب وابن منظور المصري خبراً بعضهم جعله لجهينة وبعضهم لقوم من اليمن أقبلوا منها " يريدون النبي ﷺ، فضلوا الطريق ومكثوا ثلاثاً لا يقدرون على الماء، إذ اقبل راكب على بعير وأنشد بعض القوم:

لما رأتْ أنّ الشريعة همُّها	وأنّ البياض من فرائصها دام
تيّممتِ العين التي عند ضارج	يفيء عليها الظّلُّ عرمضُها طام

فقال الراكب: من يقول هذا ؟ قالوا : امرؤ القيس، فقال : والله ما كذب، هذا ضارج عندكم، وأشار إليه، فمشوا على الرّكب، فإذا ماء غدق، وإذ عليه العرمض والظل يفيء عليه، فشربوا وحملوا لولا ذلك لهلكوا[2]، وتضيف بعض الروايات (وهي رواية الجمهرة) قولا إلى النبي ﷺ مفاده انه عليه الصلاة والسلام قال لهم : " أما اني لو أدركته لنفعته، وكأني أنظر إلى صفرته وبياض إبطيه وحموشة ساقيه في يده لواء الشعراء يتدهدى بهم إلى النار" [3]، ويرد على هذه الرواية بأنه لم يثبت لدينا حديث عن رسول الله ﷺ هكذا، وإنما الحديث الذي يروى عن الرسول ﷺ بشأن امرئ القيس هو ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة ولفظه : " امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار"[4]، هذا وقد تفننت مصادر الأدب في ذكر الروايات الخاصة بها في هذه القضية التي لا تسند إلى أصل صحيح، فرواية ابن قتيبة الثانية التي ذكرت في

---

(1) انظر : ديوان امرئ القيس تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ص 456- 457، 475- 476.

(2) ابن قتيبة : الشعراء 55/1 أدب الكاتب: ص 28، عيون الأخبار 143/1، وانظر : ياقوت في معجم البلدان (ضارج) 3/ 460 (ط. أوربا)، ولسان العرب (ضرج) ومعجم البكري (ضارج).

(3) جمهرة اشعار العرب (ط. بولاق) ص17.

(4) مسند الامام احمد 228/2 ومنتخب كنز العمال 300/5.

الشعر والشعراء تختلف عن الأولى وهي على هذا النحو: فقال النبيﷺ : " ذاك رجلٌ مذكور في الدنيا شريف فيها، منسي في الآخرة خامل فيها، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار" [1].

وهي رواية تتفق ورواية ابن عساكر في (التهذيب)[2]، وتختلف عن رواية نشوان الحميري في (الحور العين)[3]، التي ورد فيها : إن الرسولﷺ قال عنه : " ذلك سيّد الشعراء، وحامل لوائهم يوم القيامة، بيده يقودهم حتى يد هدى في النار" .

وإذا كنا قد رفضنا قبول تلك الأخبار والروايات المصنوعة في كتب الأدب العربي القديم عن ذم الرسول ﷺ شعر امرئ القيس، فإننا نتردد كذلك فيما يرويه بعض المؤرخين القدامى والنقاد المحدثين من روايات عن رسول الله ﷺ في ذم الشعر وتهجينه وبخاصة ما رواه ابن جرير الطبري ومصطفى صادق الرافعي من ان الرسول ﷺ كان يقول رداً على من سأله في حقيقة نبوته : " ثم إنها ولدتني فنشأت، فلما نشأت بُغّضت إلى أوثان قريش وبُغّض إلى الشعر.." [4] وإن سبب ترددنا في قبول هذه الرواية انه لم يقم دليل من حديث صحيح عن رسول الله ﷺ يؤيد هذه الرواية أو يكون سنداً قوياً لها . وكل ما ورد هو حديث مختلف ورد عنها ذكره الإمام أحمد[5] في مسنده وذكره الطيالسي[6] في مسنده كذلك ولفظه : " كان الشعر أبغض الحديث إلى النبي ﷺ " .

---

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة (ط. دار الثقافة بيروت) ج1 ص 68.

(2) التهذيب: لابن عساكر ج3 ص 105.

(3) الحور العين: لنشوان الحميري ص117- 118.

(4) تاريخ الأمم والملوك : للطبري (ط: الاستقامة) ج1 ص575، وانظر: اعجاز القرآن : الرافعي.

(5) مسند الامام احمد 6/ ص134، 148، 188.

(6) مسند الطيالسي: حديث 1490.

وعلى أي حال فان الرسول الكريم محمداً ﷺ وقف موقفاً حازماً من نوع معين من الشعر المرذول الذي لا يحترم حقوق الفرد المسلم في المجتمع الإسلامي الكبير، وهذا الموقف من رسول الله ﷺ من هذا النوع من الشعر هو الحكمة نفسها حتى يكون المجتمع الإسلامي سليماً من الأمراض الاجتماعية التي يثيرها ويبذر بذرها المستهجن.

إن الشعر في نظر الرسول ﷺ كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح، فالشعر الحسن الذي فيه تهذيب للنفس ودعوة إلى نشر الفضائل بين أفراد المجتمع المسلم، والذي فيه حكمة بالغة تؤدي إلى دعم الصرح الإسلامي الخالد، كان يثني عليه الرسول الكريم محمد ﷺ ويقف منه موقفاً ايجابياً، ويحث المسلمين على اتخاذه وسيلة من الوسائل الكلامية للردّ على أعداء الله أعداء الدين، وطالما ان المشركين كانوا يعولون على سلاح الشعر كوسيلة فتاكة في الحرب الكلامية أو ما نسميه بالحروب الباردة بالمصطلح العسكري الحديث، فإن الرسول محمداﷺ آثر استعماله وحرّض الشعراء المسلمين المجاهدين على الأخذ به والاستفادة منه في الدفاع عن حمى الدين الإسلامي الحنيف، وعن المقدسات الإسلامية وحرمات المسلمين.

ولقد قرر عليه الصلاة والسلام أن يرد على المشركين في حربهم الكلامية ضد المسلمين، وقرر ان يفل من سلاح المشركين الذين أرادوا ان يتخذوا من الشعر سلاحاً فتاكاً يوجهونه ضد المسلمين في حروبهم معهم ولما لم يكن من المهاجرين إبان الدعوة الإسلامية من يتصدى للردّ على المشركين بأسلوبهم الخاص، فطلب من الأنصار ان يقوموا بهذه المهمة، وهم الذين آووه وأيدوه قائلاً لهم : " ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم ان ينصروه بألسنتهم؟"[1]، فاستجاب له شعراء الأنصار في الحال، وهم: حسان بن ثابت وكعب بن مالك

---

(1) انظر: دراسات في الأدب الاسلامي للدكتور سامي العاني ص16.

وعبدالله بن رواحة (رضي الله عنهم أجمعين)، فسرﷺ لاستجابتهم لطلبه ﷺ وانشرح صدره لذلك.

وقد ذكر ابن كثير في تفسير الآية الكريمة في سورة الشعراء : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ " قال ابن عباس : يردون – أي شعراء المسلمين- على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين، وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد، وهذا ما ثبت في الصحيح، ان رسول الله ﷺ قال لحسان : " اهجهم – أو قال – هاجهم وجبريل معك"، وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه انه قال للنبي ﷺ : إن الله عز وجل قد انزل في الشعراء ما انزل، فقال رسول الله ﷺ : " إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل" [1].

ويمكننا هنا ان نشير إلى الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي وردت في الكتب الستة، وهي كلها تؤكد ان الرسول ﷺ أثنى على شعراء المسلمين وطلب منهم الدفاع عن المسلمين، والجهاد في سبيل إعلاء لكلمة الحق سبحانه وتعالى، والفوز برضوانه جل جلاله، من ذلك ما رواه الإمام البخاري[2] في صحيحه وما رواه الامام مسلم[3] في صحيحه كذلك، وما رواه الترمذي[4] وابن حنبل[5] في المسند، من ان النبي ﷺ قد وجه حسان بن ثابت ﷺ للدفاع عن الإسلام والمسلمين ومحاربة شعراء المشركين بشعره، وقد روى الإمام مسلم قال: " حدثنا

---

(1) صحيح مسلم (فضائل حسان)، 16/ 46، وتفسير القرآن العظيم: للحافظ ابن كثير ج3 ص355 وهذا الحديث رواه الامام احمد في مسنده ج3 ص456، 465.

(2) صحيح البخاري (بدء الخلق 6).

(3) صحيح مسلم (فضائل الصحابة 2486/4، 2489، 2490).

(4) سنن الترمذي (أدب 91).

(5) مسند الامام احمد (286/4، 289، 299، 301، 303).

عبيد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا شعبة عن عدي، وهو ابن ثابت قال: سمعت البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: أهجهم أو هاجهم، وجبريل معك" [1]وروى الإمام مسلم كذلك قال: حدثنا يحيى بن يحيى قال: أخبرنا يحيى بن زكرياء عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، قال: قال حسان: يا رسول الله ائذن لي في أبي سفيان " كيف بقرابتي منه؟ قال: والذي أكرمك لأسلّنك منهم كما تسب الشعرة من الخمير، فقال حسان:

وإنّ سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدكَ العبدُ[2]

وروى مسلم في صحيحه كذلك قال: " حدثنا عبد الملك بن شعيب بن الليث، حدثني أبي عن جدي خالد بن يزيد، حدثني سعيد بن أبي هلال، عن عمارة بن غزية عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة ان الرسول ﷺ قال: "أهجوا قريشاً فانه أشد عليها من رشق بالنّبل"، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: (اهجهم) فهاجهم فلم يرض، فأرسل إلى كعب بن مالك ثم أرسل حسان بن ثابت فلما دخل عليه حسان : قد آن لكم ان ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه فجعل يحركه فقال: والذي بعثك بالحق، لأفرينهم بلساني فري الأديم : فقال رسول الله ﷺ : "لا تعجل، فأنْ أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وان فيهم نسباً، حتى يلخص لك نسبي"، فأتاه حسان ثم رجع فقال: يا رسول الله، قد لخّص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسُلّنك منهم كما تسل الشعرة من العجين، قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: " ان روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله"، وقالت: " سمعت رسول الله ﷺ يقول: هجاهم حسان فشفى واشتفى"، قال حسان:

---

(1) صحيح مسلم (4/1933- 1935)، محمد فؤاد عبد الباقي.

(2) صحيح مسلم (فضائل حسان) ج16 ص47.

هجـوت محمـداً فأجبـت عنـه   وعنـد الله في ذاك الجـزاء[1]

وان الأحاديث الصحيحة التي ذكرت في الكتب الستة التي تذكر دعاء الرسول ﷺ لحسان بن ثابت ﷺ كثيراً جداً، فقد قال له عليه الصلاة والسلام فيها: " اللهم أيده بروح القدس" وقد ذكرهما الإمامان [2] البخاري ومسلم[3] وأبو داود[4] والترمذي[5] وابن حنبل[6] والطيالسي [7] في مسنده، ولقد أوردت مصادر الأدب العربي هذا الدعاء وان كانت قد اختلفت رواياتها فيه، فقد أورده محمد بن أبي الخطاب[8] وابن رشيق[9] القيرواني في مؤلفيهما الشهيرين : جمهرة أشعار أشعار العرب والعمدة في نقد الشعر وآدابه.

ولقد انفردت مصادر الأدب العربي، مثل كتاب (العمدة لابن رشيق القيرواني بأقوال ينسبونها – والحجة عليهم – إلى رسول الله ﷺ يستشهدون بها على توجيه رسول الله ﷺ للشعراء المسلمين الذين أولعوا بحب الشعر وقويت عندهم الملكة الشعرية في الاستفادة من تلك الملكة، التي هي سلاح ذو حدين قد يفيد في أغراض الخير والمساهمة في إصلاح المجتمع وبنائه خير البناء، وقد يكون أداة هدامة إذا ما أُسيء استخدام تلك الملكة الشعرية . يروي ابن رشيق في هذا

---

(1) صحيح مسلم ج16 (فضائل الصحابة) ص 48- 51.

(2) صحيح البخاري (الكتاب الثامن) . الباب :68، والكتاب 59 الباب 6، ك 64 ب30 ك78 ب91.

(3) صحيح مسلم ك 44 ح151- 153.

(4) سنن أبي داود (ك 37 ب 87).

(5) سنن الترمذي: (ك 41 ب 80).

(6) مسند ابن حنبل 269/2، 286/4، 298، 299، 301، 302، 303، 222/5، 72/6.

(7) مسند الطيالسي حديث 730، 2309.

(8) جمهرة اشعار العرب (بولاق ص13) .

(9) العمدة لابن رشيق 31/1.

الصدد في (باب الرد على من يكره الشعر) قولاً يؤكد به صنيع الرسول ﷺ في استغلال ملكة الشعر عند الشعراء المسلمين: " لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين" [1].

ولقد روت كتب الحديث عن رسول الله ﷺ حديثاً يبين وجهة نظره ﷺ في الشعر ومدى فائدته في المجتمع إذ هو حكمة وقد يكون حكماً، فقد روى عنه ﷺ انه قال: "إن من الشعر حكمة وحُكماً" [2]. وروي عن أبي عباس ﷺ قال: " جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فجعل يتكلم بكلام فقال رسول الله ﷺ : إن من البيان لسحراً وإن من الشعر حكماً" [3]، وإن هذا القول من رسول الله ﷺ يؤكد يؤكد القيمة الفنية الهامة للشعر الحسن ودوره في بناء المجتمع السليم.

ولقد ذكرت مصادر الأدب واللغة هذا الحديث مشفوعاً بقصة مشهورة رددتها تلك المصادر، فقد رووا : أن أحد أصحاب رسول الله ﷺ جرح في غزوة من الغزوات، وكان الدم يسيل من جرحه دون انقطاع، ولم ينفع فيه ضماد، حتى جاء حسان بن ثابت فقال: ائتوني بكافور، فوضع الكافور على الجرح فجفّ الدّم، ثم سأل النبي ﷺ حسان بن ثابت: من أين اقتبست هذا يا حسان ؟ قال: من قول الشاعر:

فكرن ليلة وصلها في هجرها	**فجرت مدامع مقلتي كالعندم**
فطفقت أمسح مقلتي بخدّها	**إذ عادة الكافور إمساك الدم**

---

(1) العمدة 1/ 30.

(2) صحيح البخاري 47/8 وسنن أبي داود الترمذي (ك 41 ب 69)، وسنن ابن ماجه (ك 33 ب 41) وسنن الدارمي (ك 19 ب 70) ومسند الامام احمد بن حنبل 269/1، 303، 309، 313، 327، 323، 3/ 456، 125/5) ومسند الطيالسي حديث 556، 557، 2670.

(3) سنن أبي داود 277/5- 278، البخاري 42/8.

فقال النبي ﷺ : " إن من الشعر لحكمة" [1].

وذكر الماوردي كذلك في كتابه (أدب الدنيا والدين) رواية لهذه الكلمة. ففيه : ان النبي ﷺ أنشد عنده الأعرابي "

وحي ذوي الأضغان تسب قلوبهم … تحيتك الحسنى فقد يرقع النعل

فإن الذي يؤذيك منه سماعه … وإن الذي قالوا وراءك لم يقل

فقال النبي ﷺ : " إن من الشعر لحكمة، وان من البيان لسحرا"[2].

والحقيقة التي لا مراء فيها ولا جدال أبداً ان الرسول الكريم ﷺ كان يقدر الشعر في مجالس السلم والحرب، ويعتقد اعتقاداً يقيناً أن مهمة الشعر والشاعر المسلم في المجتمع الإسلامي مهمة شاقة، وانه يلعب دوراً هاماً إصلاحياً في خدمة الدين وبث الفضائل بين المسلمين، وان الشاعر المسلم داعية مجاهد يجاهد بسيفه ولسانه، لا يستغني عنه مجتمعه أبداً لأداء مهمته، ولهذا أثر عن رسول الله ﷺ انه قال: " إن هذا الشعر سجع من كلام العرب، به يُعطى السائل، وبه يكظم الغيظ، وبه يؤتى القوم في ناديهم[3] . فكان عليه الصلاة والسلام يعرف مهمة الشعر في (الحياة العربية وانه ديوان العرب وسجل مفاخرها، فحاول ان يوجه هذه الأداة التي يحسن العرب استعمالها ولا يستطيعون الاستغناء عنها إلى حيث يخدم الفكرة وينصر الدين ويبعث الفضائل الكامنة في نفوس العرب" [4].

---

(1) جمهرة اشعار العرب : (بولاق ص12)، وإحياء علوم الدين للغزالي، والعمدة لابن رشيق 27/2، وزهر الاداب للحصري 1 والمزهر 291/2، وتاج العروس(حكم).

(2) أدب الدنيا والدين للماوردي ص116 (الطبعة الأولى 13/7هـ)، المرزباني معجم 107، والأضداد : للأنباري 327، الصاحبي :23.

(3) طبقات الشافعية للسبكي1/ 134.

(4) في الأدب الإسلامي : د. العاني،شرح التبريزي للحماسة 3/1.

وإن القاعدة التي لا يمكن أن تستنتج من موقف الرسول ﷺ من الشعر هي ان الرسول ﷺ نظر إلى الشعر على انه سلاح ذو حدين، فمنه الحسن، ومنه القبيح، فما جرى من الشعر مع الحق وسار في ركابه فهو الجدير بالعناية والتشجيع، وما لم يوافق الحق وابتعد عنه فهو قبيح يجب تركه والابتعاد عنه، وفي هذا الصدد يذكر ابن رشيق القيرواني قولاً للرسول ﷺ في الشعر انه قال: " إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه" . وقد قال عليه الصلاة والسلام: " إنما الشعر كلام، فمن الكلام خبيث وطيب" [1].

وعلى أية حال فإن الرسول ﷺ كان يقف موقفين من الشعر الصادر عن الشعراء المسلمين خاصة وكلاهما مبني على أساس إصلاح حال المسلمين في المجتمع الإسلامي الكبير.

والموقف الأول كان يحرص فيه الرسول الكريم ﷺ على إرشاد الشعراء المسلمين وتوجيههم الوجهة الإسلامية الصحيحة في إنشاء الشعر، فيوقفهم على قيمة الإسلام ومبادئه والشعور بالمسؤولية في تبليغ هذه المثل والقيم الإسلامية إلى المسلمين. وهي مثل تحض على التمسك بمبادئ الدين الإسلامي، ونبذ العصبية والمثل الجاهلية البالية، والابتعاد عن الأمراض الاجتماعية التي تتفشى في المجتمعات غير الإسلامية من عبث وخلاعة ومجون وفساد أخلاق، مما لا يقبله الدين الإسلامي الحنيف، بل يحاربه وينهى عنه ويحرمه، وكأنما كان الرسول ﷺ يتمنى في الشاعر المسلم أن يأخذ نصيبه الأوفى من مسؤولية الداعية المسلم المجاهد في الجهادين الأصغر والأكبر.

أما الموقف الثاني لرسول الله ﷺ من الشعر الصادر عن الشعراء المسلمين فيبدو واضحاً جلياً فيما كان يفعله ﷺ مع شعراء الدعوة الإسلامية إذا ما بدر

---

(1) العمدة 1/ 27.

منهم، أو لوحظ عليهم خروج عن المنهج الإسلامي في تقصيد القصيد، كان عليه الصلاة والسلام يوجه ويحذر وينبه شعراء المسلمين بما يجب تركه إذا ما أحسوا في شعرهم بعض الخروج عن القاعدة الإسلامية في إنشاء الشعر.

إن الأمثلة كثيرة جداً التي توضح الموقف الأول لرسول الله ﷺ من الشعر الإسلامي الحسن، فكثير من أولئك الشعراء المسلمين نالوا حظهم من تشجيع الرسول محمد ﷺ على شعرهم الحسن وأثنى عليهم ثناءاً عطراً منه ﷺ، وربما كان حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر النبي ﷺ أسعد الشعراء المسلمين وأوفاهم حظاً من تشجيع الرسول ﷺ والثناء عليه، ذلك التشجيع والثناء اللذان تمثلا في الأحاديث التي روتها كتب الحديث الشهيرة، بل لقد بلغ إحسان رسول الله ﷺ لشاعره حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه كان يضع له منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر أو ينافح عن رسول الله ﷺ فيما ترويه السيدة عائشة عنه ﷺ وكان يقول ﷺ " إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما يفاخر أو ينافح عن رسول الله "[1].

ولقد روت كتب الحديث الصحيحة أحاديث كثيرة[2] تؤكد ان رسول الله ﷺ قد سمح لحسان بن ثابت رضي الله عنه ان ينشد الشعر في المسجد، بل وكان يدعو له كذلك . ومن تلك الأحاديث أحاديث ثلاثة رواها الإمام مسلم في صحيحه عن عمرو الناقد وإسحاق بن إبراهيم وابن أبي عمر كلّهم عن سفيان قال عمرو: حدثنا سفيان بن عينية عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة ان عمر مرّ بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه فقال: قد كنت أُنشد وفيه من هو خير

---

(1) سنن ابي داود ج5 ص280.

(2) انظر صحيح مسلم 45/16، وسنن أبي داود (ك 37 ب87)، وسنن الترمذي (ك 41 ب70)، ومسند احمد بن حنبل 222/5، 6، 72.

منك . ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: أجب عني اللهم أيده بروح القدس" قال اللهم نعم" [1].

وتروي مصادر الأدب العربي روايات مختلفة عما روته كتب الحديث عن صور تشجيع الرسول ﷺ لشعر حسان بن ثابت ﷺ ودعائه له ﷺ . من ذلك ما رواه أبو الفرج الأصفهاني في كتابه (الأغاني) أن النبي ﷺ سأل ليلة – وهو في سفر- "أين حسان بن ثابت ؟ "، فقال حسان : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال: (أَحْدُ) فجعل ينشد والنبي ﷺ يصغى إليه، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى كان رأس الراحلة يمس الورك، حتى فرغ من نشيده . فقال النبي ﷺ : " لهذا أشدٌّ عليهم من وقع النبل" [2] . ومن ذلك التشجيع النبوي الكريم لحسان بن ثابت ﷺ ما رواه ابن رشيق القيرواني في كتابه (العمدة في نقد الشعر وآدابه) وقد ذكر ابن رشيق أن الرسول ﷺ قضى له بالجنة مرتين في ساعة واحدة وسبب ذلك شعره . يقول ابن رشيق في باب (من قضى له الشعر ومن قضى عليه) : وأنشده حسان بن ثابت حين جاوب عنه أبا سفيان بن الحارث بقوله:

هجوت محمداً فأجبتُ عنه　　　وعند الله في ذاك الجزاءُ

فقال له: جزاؤك عند الله الجنة يا حسان، فلما قال:

فإنّ أبي ووالده وعرضي　　　لعرض محمد منكم وقاءُ

---

(1) صحيح مسلم بشرح النوري 45/16، لقد سمح له بالانشاد في المسجد على الرغم من الأحاديث الكثيرة التي تنهى عن تناشد الاشعار في المساجد. انظر: سنن ابي داود (م 37 ب37)، وسنن النسائي 8 ب23، 24، وابن ماجه 30/204، وموطأ مالك 9 ح93، وسنن الدارمي 15، 6 ومسند زيد بن علي ح 839 ومسند ابن حنبل 434/3 أمّا بروكلمان لقد شك في هذا الحديث (تاريخ الأدب العربي 153/1).

(2) الأغاني 136/4.

قال له : وقاك الله حرّ النار، فقضى له بالجنة مرتين في ساعة واحدة، وسبب ذلك شعره" [1].

ولقد كان هذا هو صنيع رسول الله ﷺ مع كل شاعر إسلامي ملتزم بمبادئ الإسلام ومثله العليا، وكان ﷺ يقدر الشعر الخالي من شوائب الوثنية الجاهلية، ويقف منه موقف المشجع ويكافئ صاحبه بالدعاء الكريم منه ﷺ مثلما كان يفعل مع حسان بن ثابت ؓ . فمن ذلك ما فعله ﷺ بشعر عبدالله بن رواحة ؓ فيما يرويه النسابة ابن عبد البر " أن النبي ﷺ دعا يوماً عبدالله بن رواحة وقال له: " قل شعراً تقتضيه الساعة وأنا أنظر إليك" فانبعث عبدالله بن رواحة يقول:

إنّي تفرسّتُ فيك الخيرَ أعرفهُ	**والله يعلم أن ما خانني البصرُ**
أنت النبي ومن يحرم شفاعته	**يوم الحساب فقد أزرى به القدرُ**
فثبت الله ما آتاك من حسن	**تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا**

فدعا له رسول الله ﷺ بقوله: " وأنت فثبتك الله يا ابن رواحة" [2] .

وحقاً فإن ابن رواحة المجاهد الشهيد والصاحبي الجليل ؓ شجعه رسول الله ﷺ كثيراً ونال من الدعاء والاستحسان لشعره والإحسان له ما ناله حسان بن ثابت ؓ . فمن تشجيعه له كذلك لشعر ابن رواحة الحسن الهادف البناء ما رواه ابن هشام في (السيرة النبوية) قال ابن إسحاق: وحدثني عبدالله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ حين دخل مكة في تلك العمرة – عمرة القضاء أو عمرة القصاص في ذي القعدة سنة سبع– دخلها وعبد الله رواحة آخذ بخطام ناقته يقول:

---

(1) العمدة 1/53.

(2) الاستيعاب : لابن عبد البر (ج3 ص900).

خلُّوا بني الكُفّار عن سبيله خلُّوا فكُلُّ الخير في رسوله

يا ربّ إني مُؤمنٌ بقيله أعرف حقَّ الله في قبوله[1]

ويكفي ابن رواحة تشجيعاً ومحبة من رسول الله ﷺ انه قال عنه فيما رواه أبو هريرة : " إن أخاكم لا يقول الرفث" [2] يعني بذلك ابن رواحة ﷺ وقد قال قصيدة يردّ فيها على قيس بن الخطيم:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشقَّ معروفٌ من الفجر ساطعُ

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أنّ ما قال واقعُ

يبيتُ يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ

وأعلم علماً ليس بالظّن أنني إلى الله محشورٌ هناك وراجع

وكان ممّن ناله التشجيع والتقدير من الرسول الكريم ﷺ نابغة بني جعدة الذي هذب الإسلام نفسيته، وقد قال بيتين أمام رسول الله ﷺ هما :

ولا خير في حلمٍ إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

ويروي الرواة في مصادر الأدب أن النبي ﷺ كافأه بدعائه الكريم له بعد ذلك: " لا يفضض [3] الله فاك" . ويروي الرواة كذلك أن النابغة الجعدي عمّر طويلاً لم تنفضّ له ثنية، فقضت له دعوة النبي ﷺ بالصحة والسلامة وسبب ذلك

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام (القسم الثاني ص 371).

(2) صحيح البخاري 46/2، وتاريخ دمشق لابن عساكر ج7.

(3) الشعر والشعراء 208/1- 209، جمهرة اشعار العرب (بولاق ص148) مجالس ثعلب 595/2، والعقد الفريد 276/5، شرح الانباري للمفضليات 681- 82.

شعره . ويبدو أن النابغة الجعدي ربما استفاد من ثقافته الإسلامية، إذ أن المعنى الذي تناوله الجعدي في بيتيه إنما هو تضمين لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [1] وهو كذلك تضمين لقوله تعالى ﴿... وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [2] . وربما استفاد كذلك الجعدي من أحاديث رسول الله ﷺ التي تحض على الحلم وتنهى عن الغضب، من ذلك ما رواه أبو هريرة عنه ﷺ قال: " ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب" [3]. وقال الإمام أحمد، عن عبدالله مسعود ، قال رسول الله ﷺ : " ما تعدون الصرعة فيكم" ! قلنا : الذي لا تصرعه الرجال، قال: " لا ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب" . وأخرج الإمام عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: " من كظم غيظاً وهو قادر على ان ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء" . وروى عن أبي هريرة ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ أن النبي ﷺ قال: " من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ جوفه أمناً وإيماناً" [4].

ومن الهام جداً أن نلاحظ أن تشجيع رسول الله ﷺ لم يكن مقصوراً على فئة من الشعراء المسلمين دون غيرهم بل امتد تشجيعه عليه الصلاة والسلام إلى كل شاعر مسلم أحسن في شعره والتزم بالمنهج الإسلامي في ركب الدعوة الإسلامية . ولقد كانت عادته ﷺ فيما يرويه أصحاب السيرة انه إذا كان في مسيرة ما طلب من الشعراء أن ينشدوا شعراً ليطمئن عليهم وليعرف حقيقة شعرهم، وهذا ما فعله عليه الصلاة والسلام في مسيره إلى خيبر سنة سبع. وقد روى ابن هشام في سيرته خبراً يؤكد به صنيع رسول الله ﷺ هذا . قال ابن

---

(1) الأعراف :199.

(2) آل عمران :134.

(3) مسند الإمام احمد بن حنبل.

(4) انظر :مختصر تفسير ابن كثير 319/1.

إسحاق: فحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي عن أبي الهيثم بن نصر بن دهر الأسلمي أن أباه حدثه : انه سمع رسول الله ﷺ يقول في مسيره إلى خيبر لعامر بن الأكوع، وهو عم سلمة بن عمرو بن الأكوع، وكان اسم الأكوع سنان : " انزل يابن الأكوع، فخذ لنا من هناتِكَ"، قال فنزل يرتجز برسول الله ﷺ، فقال:

والله لولا الله ما اهتدينا	ولا تصدّقنا ولا صلينا
إنّا إذا قومٌ بغوا علينا	وإن أرادوا فتنةً أبينا
فأنزلنْ سكينةً علينا	وثبّتِ الأقدام إن لاقينا

فقال رسول الله ﷺ : " يرحمك [1] الله"، فقال عمر بن الخطاب : وجبت والله يا رسول الله، لو أمتعتنا به ! فقتل يوم خيبر شهيداً" .

ومن الشعراء الإسلاميين الذين أثنى رسول الله ﷺ على شعرهم لبيد بن ربيعة العامري، فقد روى أبو هريرة ﷺ عنه أن رسول الله ﷺ قال: " أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد " [2] : ألا كل شيء ما خلا الله باطل، وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم" . وكان كعب بن زهير كذلك من الذين نالوا تقدير رسول الله ﷺ وتشجيعه. ذلك أن كعباً عدل عن المنهج الجاهلي وأسلم وأعلن توبته أمام رسول الله ﷺ، تلك التوبة التي نال كعب عليها بشعره بردة المصطفى ﷺ . وقد مدح رسول الله ﷺ بما فيه معلناً خروجه عن المنهج الجاهلي في المديح فإذا مديحه له له صبغة إسلامية صرفة : "يقول فيها – أي كعب – بعد تغزله وذكر شدة خوفه ووجله:

أنبئت أن رسول الله أوعدني	والعفو عند رسول الله مأمولُ

---

(1) السيرة النبوية (القسم الثاني ص 328- 329).

(2) روى هذا الحديث الإمام البخاري والترمذي في مسنده انظر صحيح البخاري 8/43.

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ ـقرآن فيـه مـواعيظ وتفصـيل

لا تأخـذني بـأقوال الوشـاة فلـم أذنـب، ولـو كثـرت في الأقاويـل[1]

ويعلّق ابن رشيق بقوله : " فلم ينكر عليه النبي ﷺ قوله، وما كان ليوعده على باطل، بل تجاوز عنه ووهب له بردته، فاشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم وقال العتبي : بعشرين ألفاً، وهي التي توارثها الخلفاء يلبسونها في الجمع والأعياد تبركا بها وذكر جماعة – منهم عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي الشاعر – انه أعطاه مع البردة مائة من الإبل .."[2].

والذي يبدو ان الرسول ﷺ أدرك أن الأغراض الشعرية التي طرقها العرب لن يهجروها بالأمر والنهي، ولذلك فأنه ﷺ لم يحرم الشعر ولم يحدد الأغراض الشعرية، بل ترك للشاعر الحرية المطلقة في عصره، وان كان قد عاقب على الأذى وأثاب على المديح، فان الرسول أمر جماعة من الأنصار بقتل كعب بن الأشرف لأنه : " بكى قتلى بدر وشبب بنساء رسول الله ﷺ ونساء المسلمين" [3].

الرسول والاستماع للشعر

وكان ﷺ يعجبه الشعر ويمدح به، فيثيب عليه ويقول: " هو ديوان العرب"[4].

ويستمع إلى شعر المسلمين، ويبدي ارتياحاً إليه، وسروراً به، ويشجع الناس على استماعه، كما ورد في قصة قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد)، وكان

---

(1) انظر: شرح ابن الانباري لقصيدة البردة (الطبعة الأولى تهامة 1400هـ) ص110-11.

(2) العمدة :1/23- 24؛ دراسات في أدب الدعوة الإسلامية، ص84.

(3) طبقات الشعراء : 238.

(4) الجمهرة: 30.

من أسباب فتح مكة استنصار عمرو الخزاعي بالنبي ﷺ - كما في سيرة ابن هشام- بأبيات منها :

يا ربِّ إنّي ناشدٌ مُحمّدا	حلفَ أبينا وأبيه الأتلدا[1]
قد كنتمُ ولداً وكنّا والدا	ثُمتَ أسلمنا فلم ننزع يدا[2]
فانصر- هداكَ اللهِ- نصراً اعتدا	وادع عبادَ الله يأتوا مددَا[3]
فيهم رسولُ الله قد تجرّدا	إنّ سيم خسفاً وجهه تربّدا[4]
في فيلقٍ كالبحر يجري مُزبِدا	إن قُريشاً أخلفوكَ الموعدا[5]
ونقضوا ميثاقكَ المُؤكّدا	وجعلوا لي في كداء رصدا[6]
وزعموا أن لست تدعو أحدا	وهم أذلُّ وأقلُّ عددا
هم بيّتونا بالوتير هُجّدا	وقتّلونا رُكّعاً وسجّدا[7]

---

(1) ناشد: طالب وذكر، والأتلد: القديم.

(2) يريد ان ام بني عبد مناف من خزاعة، وكذلك قصي أمه فاطمة بنت سعد الخزاعية والولد (بالضم) : بمعنى الولد (بالتحريك). واسلمنا: من السلم. قال السهيلي: " لأنهم لم يكونوا آمنوا بعد . غير انه قال : "ركعاً وسجداً " فدل على انه كان فيهم من صلى الله فقتل" .

(3) اعتد: من العتيد، وهو الحاضر، المدد: العون والنجدة.

(4) تجرد: من رواه بالحاء المهملة، فمعناه : غضب، ومن رواه بالجيم، فمعناه : شمّر وتهيأ للحرب وسيم: طلب منه وكلف، الخسف: الذل، تربد: تغير إلى السواد.

(5) الفيلق: الجيش.

(6) كداء- بوزن سحاب- : موضع باعلى مكة، ورصّد: كركّع – جمع راصد: وهو الطالب للشيء الذي يرقبه.

(7) الوتير: اسم ماء باسفل مكة لخزاعة، والهجد: النيام، وربما استعمل في المستيقظين فهو من الاضداد، تنظر الأبيات في أسد الغابة (3929)، الإصابة (5851)، الاستيعاب 3/ 260.

قال رسول الله ﷺ : " نُصرت يا عمرو بن سالم "، وخرج بمن معه لنصرهم.

وكذلك عندما جاءه شاعر هوازن يستعطفه للإفراج عن قومه الذين وقعوا أسرى بأيدي المسلمين بعد حُنين، فقال من قصيدة له:

أمْنُنْ علينا رسول الله في كرمٍ ... فإنّك المرءُ نرجوه وندّخر

أمْنُنْ على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فُوك يملؤهُ من مخضها الدّرر[1]

أمْنُنْ على نسوةٍ أعتاقَها قدرٌ ... مُمزّقٌ شملها في دهرها غِيَرُ

إلى أن يقول:

فألبس العفو من قد كنتَ تَرضعهُ ... من أُمهاتك إنّ العفو مشتهرُ

إنّا نُؤمّلُ عفواً منكَ تُلبسهُ ... هذي البريّة اذ تعفو وتنتصر

فاعفُ عفا الله عمّا أنت واهبه ... يوم القيامة إذ يهدى لك الظّفرُ

تأثر النبي ﷺ بما سمعه تأثراً جعله يسأل أصحابه أن يطلقوا سرح أسراهم، وأن يردّوا عليهم ما غنموه منهم، فاستجاب المسلمون لرغبته، وفكّوا عنهم، وأعادوا إليهم مواشيهم، وما أخذوا من منازلهم[2] .

وعرضت قتيلة بنت النضر بن الحارث للنبي ﷺ وهو يطوف، وكان قد قتل أباها، فاستوقفته، وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه، وأنشدته أبياتاً مطلعها:

يا راكباً إنّ الأثيل مظنّةٌ ... من صبحِ غادية وأنت مُوفّقُ[3]

إلى ان قالت:

---

(1) المخض: اللبن . الدرة : اللبن أو كثرته.

(2) الكامل لابن الأثير 2: 142، الأدب الإسلامي د. نايف معروف 144- 145.

(3) الاثيل: موضع بعينه قتل فيه النضر.

أمُحَمّدٌ ها أنت نجلُ نجيبةٍ ... من قومها والفحل فحل معرقُ[1]

ما كان ضرُّكَ لو مننتَ وربّما ... من الفتى وهو المغيظ المُحنق[2]

النَّضرُ أقربُ من قَتَلتَ وسيلةً ... وأحقُّهم إنْ كان عتقٌ يعتقُ

فقال النبي ﷺ : " لوكنت سمعت شعرها هذا ما قتلته " [3].

وحين انشده ضرار بن الأزور أبياتاً أبدى ﷺ إعجاباً بها وفيها يقول:

خَلَعتُ القِداح وعَزفَ القيا ... نِ والخمرَ أشرَبُها والثُّمالا[4]

وكَرّي المُحبَّرَ في غَمْرةٍ ... وجهُدني على المُشركين القِتالا[5]

وَقالَتْ جَميلةُ : شَتَّتنا ... وَطَرّحتَ أهلَكَ شَتّى شِمالا

فيا رَبِّ، لا أُغبَنَنْ صَفقَةً ... فَقَدْ بِعتُ أهلي وَمالي بِدالا

فقال الرسول ﷺ : " ربح البيع، ما غُبِنَتْ صَفقَتُكَ يا ضِرَار" [6]

إدراك الرسول ﷺ لقيمة الشعر في الحياة الإسلامية

---

(1) معرق : أصيل.

(2) منّ: صفح . المحنق المملوء بالغيظ.

(3) انظر السيرة النبوية ق2/ 42 . الأغاني 30/1 . زهر الآداب 1: 66، الاستيعاب 4: 458.

(4) القداح : ج قدح وهو السهم قبل أن يراش، وأن يثبت فيه النصل .

الثمال : ج ثُمالة وهي الزبدة، كنى بتركها عن ترك التنعم والرفاه إلى الحرب.

(5) المحبّر : جواد سابق لضرار بن الأزور . انظر الاستيعاب 2: 299.

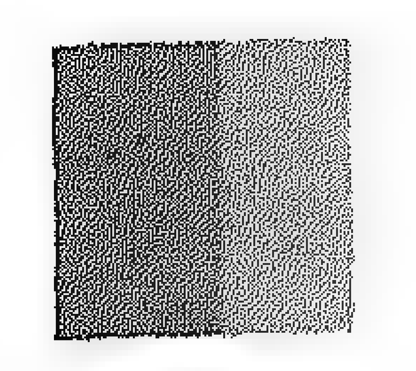
(6) ويبدو ان هذا الشاعر لم يثبت على دينه هو الذي قتل مالك بن نويرة يوم اليمامة بأمر خالد بن الوليد سنة ثلاثة عشر في خلافة أبي بكر، ويقال أنه ممن شرب الخمر مع أبي جندب في زمن عمر (الإصابة 2/ 200).

لقد عرف الرسول ﷺ قيمة الشعر ومهمته في الحياة الإسلامية الجديدة، ومدى أثره فيهان ونفاذه إلى الأعماق، فاستفاد من هذه الأداة التي يحسن العرب استعمالها في موضعها في حماية العقيدة، ونصرة الدين والتبليغ للفكرة بين القبائل . ومن أجل ذلك كان موقفه هذا الذي نعرفه من شعراء الأنصار ومن تشجيعهم . وحتى قصيدة كعب بن زهير على الرغم من أنها تكاد تخلو من الروح الدينية أو الثر الروحي، إلاّ أنها لقيت صدى عميقاً في تنفس الرسول ﷺ، لأنه صلوات الله عليه وآله يسعده أنْ يرى هناك ميلاً عن الجانب الجاهلي إلى الجانب الإسلامي، وانتقالاً للقوّة الفنية عند كعب من مجراها الجاهلي في العصبية والتفاخر إلى مجراها الإسلامي في دعم الدعوة، والتمكين لمُثُلها الرفيعة في نفوس الناس، فحين وضع الرسول ﷺ البردة على كتفي كعب، كان يضعها في الوقت نفسه على أكتاف كل الشعراء النادمين، الذي أحسّ النبي ﷺ تمزقهم وخجلهم، ويكون قد أسلمهم للعالم الجيد من غير النظر إلى الماضي والإشغال بما كان فيه.

فالقيمة الفنية عند الرسول ﷺ هي قيمة ترتبط بمعاييره الخلقية، وإذا كان للإسلام موقف من الشعر، فإنه لم يحرمه فناً، ولنتذكر أن الإسلام من الناحية الفنية الخالصة قد قدم للشعر فرصة ذهبية للتجدد والنمو، والتوسع والتعمق، لم تتح له لولا مجيء الإسلام.

فكان لزاماً على الشاعر أن يتحمل مسؤولية المهمة التي أُنيطت به في ظل الرسالة الكريمة التي وضعت الضوابط المناسبة لكي يُسْهِم الشعر بدوره في معركته، فكان الالتزام بمبادئ الرسالة وتعاليمها النبيلة يمثل خلاصة الموقف الذي حدده الإسلام للشعراء، بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ الشعراء 224-226.

فالإسلام جاء لهداية البشرية إلى طريق الخير والرشاد، وكان من الطبيعي أن يحدد موقفه من الأمور بوضوح ودقة، فالشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مكانتهم وقيمتهم في الإسلام، أما سواهم فلا مكان لهم في دولته، وهم مطرودون منها لا محالة.



موقف القرآن الكريم من الشعر

إن القرآن الكريم إذا تدبره الباحث وجده في موضع واحد منه يبين موقفه في سورة الشعراء خاصة، أما بقية الآيات التي تحدثت عن الشعر أو ذكرت فيها لفظة (شعر) و(شاعر) فهي خمس آيات. قال تعالى في الآية الأولى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[1]، وقال تعالى في الآية الثانية: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾[2]، وقال تعالى في الآية الثالثة: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴾[3]، وقال تعالى في الآية الرابعة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾[4]، وقال تعالى في الآية الخامسة: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾[5].

ولقد جاءت تلك الآيات الخمس لا لتبين الموقف الإسلامي من الشعر فحسب بل لتبين عنت المشركين وسفسطاتهم وافتراءاتهم على رسول الله ﷺ بأنه شاعر أو كاهن أو ساحر، وقد ردّ الله على جميع افتراءاتهم، وتبين وتؤكد أن القرآن الكريم كلام الله العزيز، وحي أوحاه الله تعالى إلى خاتم أنبيائه ورسله.

ويبدو ان القرآن الكريم قد وقف من الشعر والشعراء موقفين متميزين رئيسين، كان أحدهما في بداية الدعوة الإسلامية، عندما هاجم القرآن الكريم الشعر والشعراء الذين وقفوا حجر عثرة في سبيل نشر الدين الإسلامي، وقد تمثل ذلك الموقف في الآيات القرآنية التي وردت في موضع واحد في القرآن الكريم وبخاصة في سورة الشعراء، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾

(1) سورة الأنبياء: الآية 5.

(2) سورة يس: الآية 69.

(3) سورة الصافات: الآية 36.

(4) سورة الطور: الآية 30.

(5) سورة الحاقة: الآية 41.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[1]، وكان ثاني الموقفين يتمثل في فترة الغزوات وفترة اتساع رقعة الدعوة الإسلامية، عندما كان القرآن يشجع الشعراء المسلمين في سبيل نصرة الحق والدين ومؤازرة المسلمين في كفاحهم ضد الوثنية والكفر والشرك.

لقد كان المسلمون بحاجة ماسة إلى ان يقاتلوا المشركين باللسان، كما كانوا يحاربونهم بالسيف والسنان، وبعبارة أخرى رأى المسلمون أن يحاربوا أعداءهم المشركين بالأسلحة نفسها التي كان المشركون يعرفونها عن خصومهم، وان يستعملوا اللغة نفسها التي كان المشركون يفهمونها آنذاك ألا وهي لغة الشعر، ولقد أدى الشعر الإسلامي دوره في تلك الفترة من التاريخ، وبانتهاء فتح مكة والطائف ودخول الذين كانوا بالأمس مشركين وأصبحوا بعد الإسلام إخوة للمسلمين، حينئذ أصبح دور ذلك اللون من الشعر ذي السلاح الحاد وأعني به شعر الهجاء الشخصي غير مرغوب فيه، وأصبح التفكير في اجترار[2] ذلك اللون من الشعر الذي يثير الضغائن وآلام الماضي بعد ان عفى الإسلام عليه بعفوه وتسامحه أصبح إثماً من الآثام، وهنا ينبغي أن لا يفهم أن دور الشعر قد توقف تماماً بانتهاء الغزوات، بل لقد استمر الشعر الإسلامي الملتزم الهادف يؤدي عمله إلى بناء المجتمع الإسلامي السليم، وسيبقى كذلك أبد الدهر، بإذن الله ما بقي الإسلام إلى ان يرث الأرض ومن عليها.

ولكي يتضح موقف القرآن أكثر فأكثر هناك حقائق هامة توضح ذلك وتقربه وتفصح عن الحقيقة فيه.

أولا- ان القاعدة الهامة التي لا يختلف عليها اثنان هي: ان الشعر غير النبوة أو الدين، وبالتالي طبيعة كل منهما تختلف تمام الاختلاف عن الأخرى،

---

(1) سورة الشعراء : الآيات 224- 226.

(2) انظر: شعر المخضرمين للدكتور يحيى الجبوري: 40.

فأهداف الشعر الجاهلي ووسائله كانت أهدافاً بشرية جاهلية خالصة للقبيلة، وهي هي العصبية العمياء للقبيلة أو القوم، تؤدي بأسلوب متكلف فيه تمويه ومبالغة وتغيير للحقائق في كثير من الأحيان، كان الشاعر الجاهلي يبالغ بل يكذب في تصوير أمجاد قبيلته تعظيماً لها وتفخيماً لجنسها وشأنها بحق وبدون حق، ومن اجل هذا لاحظ النقاد المسلمون الأوائل مثل ذلك اللون من الشعر الجاهلي الذي يبالغ فيه صاحبه بل ويكذب في بعض الأحيان فقالوا: " أعذب الشعر أكذبه"، لقد قال ابن العشرين في الجاهلية:

رأيتُ القوافي تتّلجْنَ مَوَالجاً ... تضايقُ عنها أن تَوَلجّها الإبر

وأكد ذلك الجاحظ[1] بما رواه لأحدهم من قول:

وللشّعراء ألسنةٌ حدادٌ ... على العورات موفية دليله

ومن عقل الكريم إذا اتقاهُمْ ... وداراهم مداراةً جميله

إذا وضعوا مكاويهم عليه ... وان كذبوا فليس لهنَّ حيله

ومن اجل هذا لم يكن الشعر – مهما كان سحره وبيانه – صالحاً لأن يكون رسالة نبي من الأنبياء لأمة من الأمم وبخاصة للأمة العربية، وعلى الرغم من أن العرب في جاهليتهم كانوا أمة شعر وخطابة ملكوا زمام الفصاحة والبيان إلا أنهم غلبوا على أمرهم وأعلنوا استسلامهم الكامل أمام القرآن الكريم، الرسالة الآلهية الخالدة ورسالة المصطفى ﷺ للعالمين بشيراً ونذيراً.

ولقد شاءت إرادة الله أن تكون معجزات الأنبياء السابقين لنبي الله محمد ﷺ في معظمها حسّية، وكانت أكثر المعجزات بني إسرائيل حسية لبلادتهم

---

(1) البيان والتبين للجاحظ ج1 ص 159، وانظر كذلك: العمدة لابن رشيق القيرواني ج1 ص 78.

وقلة[1] بصيرتهم فيما يقوله السيوطي، فكانت معجزة موسى ﷺ عصاه التي غلب بها بحول الله وقدرته ألوان السحر الذي برع فيه قومه، إلى جانب المعجزة الثانية وهي يده التي كان يدخلها في جيبه فتظهر بيضاء من غير سوء، فتبهرهم جميعاً بحول الله وقدرته، وكانت معجزات عيسى بن مريم ﷺ تتلخص في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإرادة الله ومشيئته، وكلها لا علاقة لها باللغة وإنما هي من جنس ما كان قد ألفه قوم عيسى ﷺ وبرعوا فيه ألا وهو الطب.

وشاءت حكمة الله أن تكون معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ معجزة عقلية هي القرآن الكريم كتاب الله العزيز، وذلك ان الله أراد للدين الإسلامي البقاء أبد الدهر، فخضعت معجزته بالمعجزة العقلية الخالدة ليتدبر آياتها ذوو العقول والبصائر، وقد صح فيما يرويه الإمام البخاري عن رسول الله ﷺ انه قال: " ما من نبي من الأنبياء إلاّ أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، إنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله تعالى إلي، فأرجو ان أكون أكثرهم[2] تابعاً" .

وشاءت حكمة الله ان تكون معجزة الرسول ﷺ بلسان عربي مبين، أعجزت أفصح الفصحاء، ومصاقع الخطباء، فلم يقدر أحد على معارضة القرآن الكريم بعد تحديهم بذلك، قال الله تبارك وتعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ... ﴾[4] .

---

(1) الاتقان في علوم القرآن: للإمام السيوطي ج2 ص 116 (الحلبي 1370هـ)، وانظر : رسالة حجج النبوة للجاحظ ص 114- 145، وكتاب:دراسات في الأدب الإسلامي للدكتور سامي العاني ص33-34.

(2) الاتقان في علوم القرآن : للسيوطي ج2 ص 116.

(3) العنكبوت: الآية 50.

(4) العنكبوت: الآية : 51.

لقد تحدى القرآن الكريم العرب أن يأتوا بمثل القرآن فلم يفلحوا، قال تعالى مصوراً ذلك في سورة الطور: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [(1)]، وتحداهم ان يأتوا بعشر سور منه فلم يستطيعوا فيما قال الله جل جلاله في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [(2)]، بل لقد تحداهم بسورة واحدة منه فأظهروا عجزهم الكامل عن الإتيان بشيء أبداً، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ ﴾[(3)] وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [(4)]، فلم يقدر العرب ولن يقدر غيرهم في كل عصر وزمان على شيء من ذلك كله، وأظهروا عجزهم الكامل عن معارضته والإتيان بشيء منه وهم أفصح الفصحاء والخطباء، وحقت كلمة العزيز الجبار في قوله الحكيم:﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [(5)].

فالقرآن الكريم حقاً معجزة الله الخالدة والسلاح الماضي للرسول محمد ﷺ في تبليغ الثقلين الجن والإنس برسالة الله لتوحيده وإخلاص العبودية له سبحانه وتعالى، ونزول القرآن كان بلسان عربي مبين ليخاطب العقول ويحرك القلوب بما يثيره من انفعالات الحس ومشاهد العيان جرياً على أسلوب مخاطبة النفوس لتوجيهها وتقرير الإيمان في قلوب أصحابها[(6)].

---

(1) الطور: الآية 34.

(2) هود: الآية 13.

(3) سورة يونس: الآية 38.

(4) سورة البقرة : الآية 23.

(5) الاسراء: الآية 88.

(6) دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية، عبد الرحمن خليل ابراهيم: ص 240.

ولقد اعترف بهذه الحقيقة واستسلم لهما زعماء مشركي قريش إبان بعثة النبيﷺ، ومن ذلك اعتراف الوليد بن المغيرة الذي ردّ على قومه المشركين آنذاك بردّ برأ فيه القرآن الكريم من التهمة التي وصمه بها المشركون بأنه شعر، معترفاً أمام القوم كذلك بأن محمداً ﷺ ليس بشاعر، قائلاً: " فو الله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه، لقد سمعت كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة، وان أعلاه لمثمر، وان أسفله لمغدق، وانه يعلو ولا يعلى عليه" [1]، واعترف لهم كذلك صراحة فقال: " لقد سمعت الشعر رجزه وهزجه وقصيده وسجع الكاهن، فما هم بزمزمة الكاهن ولا سجعه، وما هو بالشعر، وان أقرب القول ان نقول فيه: انه ساحر جاء بسحر يفرّق بين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته" .

ولقد بين لهم عتبة بن ربيعة وكان سيداً حليماً بأنهم مخطئون فيما رموا القرآن بالسحر والكهانة، وقال لهم صراحة: إني سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله قط، وما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب كفيتموه بغيركم، وان يظهره على العرب فملكه ملككم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك بلسانه! قال: هذا رأي فاصنعوا ما بدا لكم" [2].

وعلى كل فإن إعجاز القرآن لم يكن تحدياً خاصاً بعصر أو مصر، وإنما هو عام يشمل الأزمان ويعم الأكوان، فالقرآن معجزة عامة عمت الثقلين وبقيت

---

(1) الاتقان في علوم القرآن: للسيوطي: 3:117.

(2) الرسالة الشافعية للجرجاني: ص113، وانظر كذلك: في الأدب الإسلامي للدكتور سامي العاني:ص43.

بقاء العصرين ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد[1].

ثانياً- والحقيقة الثانية الثابتة قررها القرآن الكريم بأن النبي محمداً ﷺ لم يكن شاعراً البتة، وقد برأ الله نبيه محمداً ﷺ مما اتهمه به مشركو قريش بأنه شاعر، فأنزل الله الآيات المحكمات في كتابه العزيز تفنيداً لتلك الاتهامات قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2]، **وردّ الله تبارك وتعالى رداً صريحاً في سورة يس قائلاً:** ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾[3].

وكانت تهمة الشاعرية هذه للرسول ﷺ من مشركي قريش تمثل نوعاً من أنوع المعارضة والتعنت بل والكذب إيذاء للرسول محمد ﷺ، فاتهموه مرة بالسحر ومرة بالجنون وأخرى بالشاعرية، وقد تمثلت اتهاماتهم في قول الوليد بن المغيرة: " ان أقرب القول فيه أن نقول فيه إنه ساحر جاء بسحر يفرق بين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته"، ومن أجل هذا التعنت أنزل الله في حق الوليد بن المغيرة حكمه الإلهي المتمثل في سورة المدثر، قال تعالى عن الوليد: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ

---

(1) اعجاز القرآن: للباقلاني: ص171.

(2) سورة الأنبياء: الآية 5-7.

(3) سورة يس: 69.

﴿ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴾ [1].

وكان من أنواع الأذى الذي لحف بالرسول الكريم محمد ﷺ من المشركين اتهامهم له بالشاعرية والجنون، مستخفين بنبوته ﷺ وهم يعلمون خلاف ذلك، وقد ردّ عليهم رداً شافياً مفنداً أباطيلهم تلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [2]، وعلى عادات المشركين في تهكمهم واستخفافهم بقول الشعراء الذين يضلون إلى درجة المجانين عندهم في بعض الأحيان، بل وإلى درجة السحرة المردة أحياناً أخرى، حاولوا أن يستخفوا بشخص النبي ﷺ وتحينوا الفرص لهلاكه، وأنّي لهم ذلك وقد حفظه الله من مكرهم وخبثهم، ولقد عرفوا في حقيقة الأمر انه ليس بشاعر، وإنما قالوا ذلك تعنتاً منهم ومكر السوء، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، وقد ذكر ابن قتيبة وكذلك النبي ﷺ قبل دخول الإسلام فقال ﷺ: " اللهم إن عمرو بن العاص قد هجاني وهو يعلم أني لست بشاعر..." [3].

ورداً على ذلك التحدي والتربص والتعنت بل والكذب من جانب المشركين ضد رسول الله الصادق والوعد الأمين محمد ﷺ، وأنزل الله في محكم كتابه الآيات البينات مسجلاً عنتهم وتربصهم هذا، متحدياً لهم في الوقت ذاته أن يأتوا بحديث مثله، إن كانوا صادقين قال تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾

---

(1) سورة المدثر: الآيات 11- 30.

(2) الصافات: الآيات 35- 37.

(3) مشكل اعراب القرآن: ص 215، وكتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية: ج1 ص115.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾[1].

هذا وقد أجمل القرآن الكريم الردّ على أباطيل المشركين وادعاءاتهم على الرسول ﷺ بالشاعرية والجنون والكهانة والسحر في سورة الحاقة، مبيناً ان هذا القرآن معجزة النبي الكبرى كلام إلهي أوحى إلى نبي الله الكريم محمد ﷺ، وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن، قال تبارك الله تعالى:﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[2] [3].

لقد أشار القرآن الكريم إلى جنوح خيال الشاعر وتطوافه في رسم الصور الغريب والموضوعات المختلفة، وهذا تأكيد على الفرق بين الشاعر والقرآن، أو الشعر والنثر الذي يعتمد على المنطق والتفكير السليم، والإقلال من استعمال الخيال المفرط.

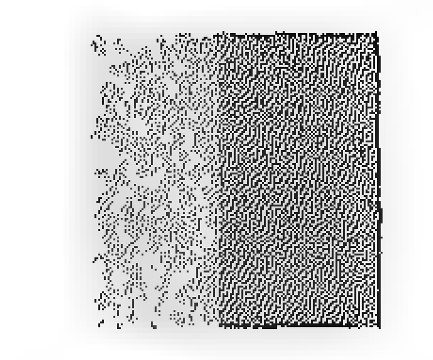
وتكلم عن الشيء الذي أكّده مجتمع الرسول ﷺ بأنّ الشاعر قد يدعي ما لا يفعل، ويقول ما لا يعتقد، ويذكر ما لا يملك، وهي صفة من صفات الشعر الذي يصور ما ليس بموجود بل ما يمكن أن يوجد، وهذا خلاف طبيعة المفكر أو المصلح الذي يطابق قوله عمله. أمّا الشاعر فقد يدعو إلى فضيلة وهو غير فاشل، أو يدعو إل الرذيلة وهو خير.

---

(1) سورة الطور: الآيات 29- 34.

(2) سورة الحاقة : الآيات 40- 52.

(3) د. محمود حسن زيني، دراسات في أدب الدعوة الإسلامية، ص24.



وكأنّ القرآن شجع الحدّ من هذا الميل، ومجدّ الشعراء الذين ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ونشم من الآية التوجيه الضمني نحو الأخلاق والأعمال الحميدة.

ومن الجدير بالذكر ان هناك آيات تنفي عن النبي ﷺ أن يكون شاعراً[1] ؛ لأن العرب كانوا يظنون أن بعض الشياطين يوحون إلى الشعراء بما يجري على ألسنتهم، لذا أصرّ المشركون على إلصاق هذه الصفة بالنبي ﷺ، وهم يقصدون من وراء ذلك تكذيب رسالته [2].

وعليه فإن القرآن الكريم لم يصدر حكماً معيناً على الشعر كفنّ ولم يتخذ من الشعر موقفاً خاصاً، وإنّما وصف القرآن الكريم الشعراء غير الملتزمين بتلك الأوصاف القاسية ليصور متاهاتهم الضالة المضلّة.

---

(1) كقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ الحاقة / 41 وغيرها.

(2) كان المجتمع في زمن الرسول يؤكد على شخصية الشاعر التي تهتم بالخيال وصياغة العواطف، وكان الشاعر آنذاك يعتبر من الذين تظهر قوتهم لا فيما يبدعونه بأيديهم، بل بما يبدعونه بعقولهم واخيلتهم، ولذلك فان القرآن أكد قول المعاصرين للرسول نفسه حين قالوا :﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾، فكأن الآية العملية هي ما يميز المفكر أو القائد أو النبي، وانَّ الآية البلاغية هي من علم الشاعر، وقد يتهم الشاعر المفردط في أو القائد أو النبي، وإنَّ الآية البلاغية هي من علم الشاعر، وقدي تهم الشاعر المفرط في تأمله بالجنون، وقال القرآن عن لسان قريش : ﴿لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾، ولعل هذا يلقي الضوء على تفسير الجاهليين والمسلمين الأُول لقابلية الشاعر، وأنه يتلقى العون من الشياطين أو الجن، وكانت الفكرة سائدة= =- كما يبدو – في عصر الرسول حتى قال القرآن الكريم :﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ الشعراء / 222.

ولذلك فان الرسول الكريم حين خاطب حساناً أكد وجود الوحي الخارق عند شاعره، ولم يجعل القوة الخارقة في شاعره قوة شريرة.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنَّ الإسلام أذكى جَذْوة الشعر وأشعلها إشعالاً، فإنّ أحداثه حلّت من عُقِد الألسنة، وأنطقت بالشعر كثيرين ولم يكونوا ينطقون به، فإذ بنا نجد مكة التي لم تُعرف في الجاهلية بشعر كثير، يكثر شعراؤها، وإذا بنا إزاء عشرات الشعراء في الفتوح الإسلامية لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبل الإسلام وفتوحه، وهو يسمون جميعاً (مخضرمين) [1].

خصائص أسلوب القرآن

1- مسحة القرآن اللفظية، فإنها مسحة خلاّبة جيبة، تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي، فالقرآن يتأنق في اختيار ألفاظه، فكل كلمة توضع في مكانها كاللبنة في البناء، ولا يصلح غيرها موضعها، ولو تقارب المعنى وتساوى معها في الطول والعرض؛ لأنّ لكل كلمة دلالة خاصة وإيحاءً خاصاً وانسجاماً مع التركيب. ولا يستطيع أن يُلمّ بسائر الدلالات، ويوازن بيد دلالة وأخرى، ويضع الكلمة المعبّرة عن الموقف أصدق تعبير، والمصورة لخلجات النفوس، وخطرات الضمائر إلاّ العليم الخبير، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الرحمن :54، فان لو قال مكانه : وثمر الجنتين قريب، لما قام مقامه من جهة الجناس بلين الجنى والجنتين، ومن جهة إشعارهما بالقطاف دون لفظ الثمر، ومن جهة مؤاخاة الفواصل . ومنها قوله تعالى:﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ ﴾ العنكبوت : 48، فإنّه أحسن من التعبير بـ (تقرأ) لثقله بالهمزة.

وقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ هود : 44.

---

(1) من الخضرمة : وهي الاختلاط؛ لأنهم خلطوا في حياتهم بين الجاهلية والإسلام، فعاشوا في العصرين معاً.

فكلمة (ابلعي) أفضل من (امتصي) مثلاً ؛ لأنها لا تدل على ما تدل عليه الأولى من الإسراع في التشرب، وفي إضافة الماء إليها ما يوحي بأنها جديرة بأن تمتص ماءً هو ماؤها ، فكأنّها لم تكلّف من أمرها عسراً.

ولاحظ التناسق الموسيقي بين (ابلعي، واقعلي) وكلمة (استوت) دون(رست) للدلالة على الثبات المستقر، ولما فيها من الدلالة على التمكن والاطمئنان والسلام. وبناء الأفعال للمجهول : (قيل، غيض، قُضِيَ) في نسق واحد، يترك النفوس في تيه من الحيرة، للتطلع بان هناك قوّة وراءَ الملوك تسيطر عليه.

2- جودة سبك القرآن وإحكام سرده، فإن القارئ المتذوق حين يقرأ القرآن يستطيع أن يدرك ان تركيب الجمل القرآنية، وسبكها هو الذي يمنح كلماته حظّها من الحياة، فهو يعتمد على الجملة : اسمية أو فعلية، مع ما يستتبع كلاً منها من مكملات، وهو بما يشتمل عليه من ألفاظ متمكنة في مواضعها، صورة لمعناها تدل عليه أبلغ الدلالة، فلتقديم الكلمة على أختها نمط من البيان، وسرٌ لا يفهمه إلاّ البصير، وتأخير الكلمة عن موضعها لدلالة يقتضيها السياق، قد تخفى حتى على أهل النظر . وحذف المبتدأ أو الخبر، مثلاً لون جديد فريد من النظم، لعلل بلاغية تروق وتعجب، مضافاً إلى تجانس الأصوات فيما بينها، ثم تجانس الأصوات مع دلالاتها، ثم صلة أوائل السوَر بأصواتها، ثم صلة هذه الأصوات بمجموع السور الكريمة، مع ما يستتبعه من ربط الآيات بعضها ببعض وبنائها المتكامل، لذا نرى أننا لا يمكننا أن نؤخر ما قدّم ن أو نقدّم ما أخّر، أو نذكر ما حذف، أو نحذف ما ذكر، أو نوجز ما أطال، أو نطنب فيما أوجز، فلكل كلمة مع صاحبتها موقف، وكأنّما لم يخلق تلك الدلالات غير هذه القوالب على اتساع اللغة بألفاظها وأشكالها.

3- الملاءمة الواضحة بين الألفاظ والمعاني من حيث جرسها وإيقاعها التي

تشكل جزءاً لا يتجزأ من كل سور القرآن الكريم وآياته، فلكل سورة ظاهرتها الصوتية المعينة التي لا توجد في غيرها من السور وقد يكون للسورة – وبخاصة حينما تميل إلى شيء من الطول- أكثر من نغمة صوتية، ويتبين – دائماً- التوافق التام بين النغمة الصوتية وبين طبيعة الموضع الذي يدور الحديث حوله.

وقد وافق القرآن- مضموناً وشكلاً، ومعنىً ومبنىً – طبيعة المرحلتين الرئيسيتين اللتين مرّت بهما الدعوة الإسلامية في مكة قبل الهجرة، وفي المدينة المنورة بعد الهجرة، فكان قصر السور، وقصر الآيات، وكثرة الفواصل، وشدّة التأثير، هي السمة الغالبة التي تتمشى مع الجو المعين، كقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ الفجر / 1-8.

ولما كان الاطمئنان من سمات المجتمع الإسلامي المدني اقتضى الأسلوب الجزل الهادئ، وهدوء البيان يستلزم طول الجمل، وتفصيل الآي، ووضح الغرض وإحكامه، واستعمال الألفاظ الرقيقة الوادعة لمخاطبة المؤمنين. وتتوارى ظواهر التوكيد والقسم والوعد والوعيد، بأسلوب تقريري سلسن قوامه التفقيه والإرشاد والتبيين، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ البقرة : 264 - 265.

ونلمس التوافق التام بين النغمة الصوتية وبين طبيعة الموضوع الذي يدور الحديث حوله، فالآيات التي سيقت في التهويل والوعيد جاءت نبرتها قوية رهيبة، والتي وردت في موضع اللين جاءت ألفاظها ليّنة، فهو يهيئ للمعاني ألفاظاً سحرية

متناسقة الإيقاع، ويرسم صورة حيّة لهذه المعاني تكسبها جمالاً وقوّة لها أثر خلاّب في النفس، فخصائص الألفاظ تتطبق على المعنى، ويزيد على ذلك النسق الذي يسمح لكل لفظ بان تتسع شحنته من الإيقاع والصور والظلال.

4- الالتفات : وهو الانتقال من صيغة إلى صيغة أخرى، كالانتقال من صيغة المخاطب إلى صيغة الغائب، أو من الخبر إلى الإنشاء، وهذا التنويع يضفي على الأسلوب حياة ورونقاً ، وهو من مظاهر الجمال فيه ، وهو كذلك من ظواهر الأسلوب الخطابي.

وإذا دققنا النظر في الالتفاتات وبحثنا في الغاية من العدول من صيغة إلى أُخرى أو من موقف إلى آخر، وجدنا ان ذلك لا يكون إلا لخصوصية بلاغية ، كالتعظيم أو التحقير أو التوكيد أو الإيضاح أو التوبيخ، وهو يعد لذلك من أوجه البلاغة بل من أركانها الرئيسة. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ الكهف 47-48.

فانظر كيف تواثب من المضارع إلى الماضي، ومن المعلوم إلى المجهول، ومن الغائب إلى المخاطب، ثم إلى الغائب فالمخاطب فالغائب فالمخاطب تواثباً يجعل للكلام من جلال الوصف وتعظيم الحال ما ينفرد به هذا النوع من ضروب البلاغة.

فعندما يتحول السياق من الوصف إلى الخطاب، فكأنما المشهد حاضر اللحظة، شاخص نراه، ونسمع ما يدور فيه، ونرى الخزي على وجوه القوم الذين كذبوا بذلك الموقف وأنكروه.

وآثر الماضي في (حشرناهم) بعد (نسير) و(ترى) للدلالة على تحقق الحشر التفرع على البعث الذي ينكره المنكرون، وعليه يدور أمر الجزاء. وكذلك الكلام فيما عطف عليه منفياً وموجباً.

وفي الالتفات إلى الغيبة في (عرضوا) وبناء الفعل للمجهول مع التعرض لعنوان الربوبية، والإضافة إلى ضميره ﷺ تربية للمهابة وجريٌ على سنن الكبرياء، وإظهار اللطف به ﷺ كما لا يخفى .

ثم خاطب الكفار المنكرين للبعث: (لقد جئتمونا) واستعمل أسلوب الإضراب والانتقال من كلام إلى آخر (بل زعمتم ألن نجعل لكم موعداً) وكلاهما للتوبيخ.

5- الإكثار من التمثيل وعرض الأفكار المعنوية عرضاً حسياً، وهو بعيد الوقع في النفوس، وأكثر هذه الأمثال مستمدة من مشاهد الطبيعة في البيئة العربية، أو مستقاة من حودث التاريخ بقصد الإنذار والتذكير، أو الحثّ على السجايا الحميدة ومكارم الأخلاق كقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ الحج : 11، حيث صوّر ببلاغة أسلوبه المعاني النفيسة المجردة، أي حالة تزعزع العقيدة، فرسم لهذا التزعزع صورة تهتز وتترنح توشك على الانهيار.

إنّ الخيال ليكاد يجسم هذا (الحرف) الذي يعبدُ الله عليه هذا البعض من الناسن أي الاضطراب الحسي في وقفتهم وهو يتأرجحون بين الثبات والانقلاب، وهذه الصورة ترسم حالة التزعزع لأنها تنطبع في الحس وتتصل من خلال ذلك بالنفس[1].

وقوله تعالى لمن باعوا الهدى بالضلالة: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ ، حيث صور حال المنافقين في تركيب صفاتهم من كذب ورياء ومداهنة في إظهار خلاف ما يسترونه من كفر، بمن

---

(1) التصوير الفني سيد قطب : 41-42.

باعوا الحسن بالرديء، والجيد بالقبيح، وبهيأة رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة فاستضاء بها ما حوله، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فبقي هو في الظلام الدامس.

6- براعته في تصريف فن القول، ثورته في أفانين الكلام، ومعنى هذا أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، وبمقدرة فائقة وخارقة.

7- التناسب في التنقل من غرض إلى غرض آخر، فمن وعد وتبشير إلى وعيد وتخويف وهكذا ... وهو من خلال ذلك يسخر التفكير، ويثير الوجدان، ويأخذ النفس من أقطارها، لينتهي بها إلى القناعة والهداية والإيمان.

وأخيراً الإيجاز العجيب في الكلام، حيث عبّر بأقل عدد من الكلمات عن أفكار كبيرة يصعب التعبير عنها في العادة إلاّ بجمل مطولة نسبياً، مع ترك كل ما يمكن فهمه من سياق الكلام كقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ الزمر: 24، فانظر إلى الإيجاز في تقدير الخبر أي: (كمن هو آمن منه). وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ الاحقاف: 4، أي بكتاب أو بقية من علم الأولين تشير إلى استحقاق للعبادة(1).

(1) جعفر السيد الحسيني، تاريخ الأدب العربي – أدب صدر الإسلام- نقد وتحليل ص58.

خصائص البلاغة النبوية

أ- أما أسلوب الرسول ﷺ فهو السهل الممتنع والبلاغة القريبة والبعيدة والفصاحة المعجزة الرائعة، والنمط الغريب والطريقة المحكمة والنظم العجيب، كان رسول الله ﷺ يوجز غالباً، ولذلك كانت كلماته حكماً وجوامع وقال: " إنا معشر الأنبياء بكاء" [1]، وكان يكره الفضول والتشدق وخلابة القول وإلباس الباطل ثوب الحق، وربما أطال صلوات الله عليه في كلامه للإرشاد والوعظ وتبليغ الرسالة، وإن كان الغالب أن يقل كلامه، ويخرج قصداً في ألفاظه، محيطاً بمعانيه . هذا إلى إحكام الأسلوب في غير تعقيد ولا تكلف، مع الوضوح والسلاسة، ومع التخير والرونق، ومع العذوبة والجلالة، ومع الإفراغ الجيد والسبك المحكم، ومع الجزالة والقوة والإشراق وجودة التصوير والتأثير، وحسن الإفهام والمهابة، والحلاوة والروعة والقبول، ومع تجنب سجع الكهان ومن شابههم.

ب- وأما ألفاظه ﷺ فقد نفي منها الوحشي والغريب والمبتذل والساقط والمستكره ونزهت عن الخطأ واللحن والقصور، واختيرت اختيار الطبع المتمكن والفطرة السليمة فهي رشيقة جليلة قوية بليغة مشرقة عذبة تنطق عن سلامة الملكة وقوتها.

ج- وأما معانيه صلوات الله عليه فهي الحكمة الصادقة والأدب الرفيع والحق المنزه عن الريب، والهدى والنور، وللرأي الناضج والبصيرة النافذة والإلهام الذي وهبه الله إياه.

□



(1) أي قليلو الكلام.



د- وأما موضوع حديثه وكلامه صلوات الله عليه فهو:

1- تبليغ الدعوة وتأييد الرسالة والدعوة إلى الدين الحق الخالد الذي لا ريب فيه.

2- شرح القرآن والإرشاد إلى أحكامه وعبره وعظاته.

3- تشريع النظم الاجتماعية والسياسية وللعبادات الدينية لخير الفرد والمجتمع والأمة والإنسانية.

4- النعي على المشركين وتقبيح ما هم فيه من عناد وضلال وبهتان وتوجيه عقولهم وألبابهم بأبلغ بيان وأقوم حجة إلى الدين والمحجة الواضحة.

5- تقرير الإيمان بالأنبياء والمرسلين والملائكة واليوم الآخر.

إلى غير ذلك من شتى الموضوعات النبيلة، والأغراض السامية، التي دعا إليها الرسول الكريم، والتي هي من خصائص بلاغته ﷺ .

ولا بدع في كل ذلك، فميلاده ﷺ في بلاد العرب ونشأته في مكة، وانحداره من قريش أبلغ العرب وأفصحهم، وتربيته في بني سعد ومخالطته للعرب في مواسم الحج ورحلات التجارة، وتمكن البلاغة والطبع والملكة من نفسه، والمواقف الفذة الخالدة التي شهدها الرسول ﷺ من الحرب، ومشاهد العرب ولهجاتهم، إلى غير ذلك كله، كان من بواعث البلاغة وأسباب الفصاحة في نفسه وحياته صلوات الله عليه.

ويقول الزيات في البلاغة والنبوة[1]: إن بلاغة الرسول من صنع الله، وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه وتقصر مقاييسه عن قياسه، فنحن لا ندرك كنهه، وإنما ندرك أثره، ونحن لا نعلم إنشاءه وإنما نعلم خبره .

---

(1) وحي الرسالة3/ 79.

هل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة، وهلم يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة، وهل يجد في نفسه أغوار البحر غير الشعور بالجلال والروعة، إن البلاغة النبوية هي المثل الأعلى للبلاغة العربية . وإذا كان كلام الله كتاب البيان المعجز، فإن كلام الرسول سنة هذا البيان، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول فإن البلاغة صفة محمد وحده.

ضعف الشعر

لعل أول من أثار هذه القضية هو عبد الملك بن قريب الأصمعي المتوفى سنة 215هـ، فقد أثر عنه أنه قال: " الشعر نكد فإذا دخل في الخير ضعف، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره" [1].

وروى المرزباني هذا القول مع زيادة حيث ذكر أن الأصمعي قال: " طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان، الا ترى حسان بن ثابت علا في الجاهلية والإسلام فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي النبي ﷺ وحمزة وجعفر (رضي الله عنهما) وغيرهم لان شعره وطريق الشعر هي طريق الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة من صفات الديار والرحلة والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الحمر والخيل والافتخار فإذا أدخلته الخير لان" [2].

وروى له أيضاً أنه قال: حسان بن ثابت أحد فحول الشعراء فقال له تلميذه أبو حاتم : تأتي له أشعار لينة فقال الأصمعي : تنسب له أشياء لا تصح عنه" [3].

ولقد تتبعت كتب القدامى في شأن ضعف الشعر في صدر الإسلام فلم أجد – فيما وقفت عليه منها - سوى أقوال الأصمعي هذه منثورة بين الكتب، وذلك باستثناء ابن خلدون الذي ذهب إلى توقف الشعر أول الإسلام حيث قال: " انصرف العرب عن الشعر في أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما

---

(1) الشعر والشعراء: لابن قتيبة ج1، ص224.

(2) الموشح ط السلفية القاهرة ص59.

(3) الاستيعاب لابن عبد البرج1 ص 334، وقد يقول قائل إن هناك تناقضاً بين رأيه الأول الذي رواه ابن قتيبة والمرزباني ورأيه هذا الذي رواه صاحب الاستيعاب فأقول ليس هناك من تناقض لأن الأصمعي في رأيه الأول يتحدث عن شعره الصحيح النسبة إليه وهو- شعر مع ما فيه من لين يتصل بما قاله في الاسلام- لا يبعده عن الفحول أما هذا الشعر الذي عناه أبو حاتم ففيه من الركاكة والإسفاف ما يبعده عن الفحولة ولذا نفى الأصمعي ذلك.

أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ثم استقر ذلك، وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره، وسمعه النبيﷺ وأثاب عليه، فرجعوا إلى دينهم منه" [1].

وبديهي أن قول لبن خلدون هذا لا يتلاءم والكثرة الكاثرة من الشعر التي نجدها في دواوين الشعراء الذين واكبوا أول الإسلام وفي كتب السير والأخبار التي سجلت أحداث الإسلام الأولى وما قيل فيها من أشعار، أما أقوال الأصمعي فنستطيع أن نستخرج منها شيئين أحدهما : أنه يرجع ضعف الشعر في الطور الأول من الإسلام إلى الأغراض ذاتها، فالأغراض التي نظم فيها المخضرمون أشعارهم بعد الإسلام والمعاني التي تناولوها في هذه الأغراض هي التي أدت إلى ضعف شعرهم في الإسلام، والآخر خاص بحسان بن ثابت وهو أن جملة من الشعر الركيك المسف الذي ينسب إلى حسان ليست له وإنما هي منحولة محمولة عليه.

وإذا كان الذين جاءوا بعد الأصمعي من القدماء قد وقفوا من قضية ضعف الشعر في صدر الإسلام موقف الأصمعي حيث رددوا أقواله في هذا الخصوص فإن الباحثين المعاصرين الذين قالوا بضعف الشعر في صدر الإسلام قد داروا في فلك هذه الأقوال، فكما جعل الأصمعي حسان بن ثابت نموذجاً لحديثه عن ضعف الشعر ذي المعاني الدينية جعل المعاصرون حسان نموذجاً أيضاً، وأخذوا يؤكدون ما قاله الأصمعي ترديداً أو ضمناً، فأحمد حسن الزيات نراه يقول عن شعر حسان في الإسلام ما نصه: " ولكن كثيراً من شعره في هذا الطور كان خشيباً فكثر به السقط، وقلت فيه الجزالة، وغلبت عليه السهولة، فرأى الأصمعي أن شعره لم يقو إلا في الشر فلما جاء الإسلام بالخير ضعف"[2].

---

(1) تاريخ ابن خلدون ط مكتبة المدرسة ودار الكتاب العربي م1 ص1122.

(2) تاريخ الأدب العربي ط دار الثقافة بيروت ص28.

وعمر فروخ يردد الشيء نفسه فيقول: " حسان بن ثابت كثير الشعر جيده، ومن أشهر أهل المدر غير انه كان في الجاهلية أشعر منه في الإسلام ثم يورد قول الأصمعي الذي رواه ابن قتيبة في (الشعر والشعراء)[1].

وشوقي ضيف يرد على الأصمعي بالأصمعي وذلك حيث يقول: " والحق تن شعر حسان الإسلامي كثر فيه الوضع وهذا هو سبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة لا لأن شعر لان وضعف في الإسلام كما زعم الأصمعي ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال[2] وهو تعليل قال به الأصمعي لينفي عن حسان الركاكة والإسفاف التي تبعده عن الفحول ولا ينفى عنه اللين في الأشعار ذات الصبغة الإسلامية الصحيحة النسبة إليه.

وربما كان مؤلفو المفصل في تاريخ الأدب العربي أكثر الباحثين تعليلاً وإضافة في ضعف شعر حسان في الإسلام، فهم وإن لم يبعدوا كثيراً عما قاله الأصمعي فقد أضافوا تعليلات أخرى حتى بلغوا بها خمسة هي:

1- انبهار حسان بما قاله القرآن الكريم، ونطق به رسول الله ﷺ .

2- ضعف شعره في غير الهجاء للسبب نفسه الذي قال به الأصمعي في رواية ابن قتيبة.

3- ما علله حسان نفسه حين قيل له: لان شعرك أو هرم في الإسلام يا أبا الحسام فأجاب : إن الإسلام يحجز عن الكذب والشعر يزينه الكذب.

4- إن كثيراً من شعره قاله بعد أن بلغت منه السن، والشعر صورة من صور النفس تسيح إذا ساحت.

---

(1) تاريخ الأدب العربي ط دار العلم للملايين بيروت ج1 ص 326.

(2) العصر الاسلامي ط دار المعارف مصر ص81.

5- إن كثيراً من شعره الإسلامي قاله ارتجالا عند حدوث الواقعة الداعية إليه[1].

ويخرج الدكتور عمر رضا كحالة عن دائرة الأصمعي قليلاً حين يرجع ظاهرة الضعف هذه لسببين الأول: أن الجو قد تغير على الشعراء المخضرمين فلم يستطيعوا مجاراته دائما، والثاني أن جملة من شعراء هذه الفترة كانوا مغمورين فلم يقولوا من الشعر إلا القطع في المناسبات[2].

ولا أدري ماذا يعني بتغير الجو في عبارته السابقة فإن كان قد عنى بها تغير الأغراض والمعاني فهو لم يبعد عن الأصمعي وان كان قد عنى بها التطور الهائل الذي أحدثه الإسلام في الحياة وهو تطور سريع عجز الشعراء المخضرمون عن تمثله فانه يبعد عن الأصمعي كثيراً لا قليلاً.

على أن الباحث الذي تناول القضية بشيء من الجدة والتفصيل هو الدكتور عبد القادر القط، فهو يأتي برأي جديد حين يذكر: ان هؤلاء الشعراء – وبخاصة المسلمين منهم- قد واجهوا منذ البداية عبء الاتصال المباشر بالقيم الجديدة، وما تحمله من مظاهر التغير في الأخلاق والسلوك والقيم الاجتماعية والروحية، كما كان عليهم أن يشاركوا مباشرة مستمرة في المعركة من جانبها الكلامي، ولم يكن من اليسير على شاعر قضى الجانب الأكبر من حياته في الجاهلية كحسان بن ثابت مثلاً أن يجد لنفسه أسلوباً جديداً من الشعر يحسن التعبير عن تلك القيم والقضايا الجديدة، ويحتفظ في الوقت نفسه بتلك الخصائص الفنية التي نمت وتطورت في ظل مجتمع مختلف في قيمه وقضاياه[3].

---

(1) ينظر المفصل في تاريخ الادب العربي للاسكندري وأحمد أمين ومن معهما ط الآداب القاهرة ص 107 وما يليها وينظر الأدب العربي وتاريخه ط محمد علي صبيح القاهرة ج1 ص64، فقد اعتمد مؤلفوه على ما قاله اصحاب المفصل بنصه.

(2) الادب العربي في الجاهلية والاسلام ط التعاونية دمشق ص89.

(3) في الشعر الاسلامي والأموي ص12.

ويأتي بالجديد الذي لم يسبقه إليه أحد حين يقول: " ان ذلك الضعف الذي لاحظناه في الشعر الإسلامي كان قد بدأ قبل الإسلام لا بعده، كان قد انقضى عصر الفحول ولم يبق في الحقيقة منهم إلا الأعشى الذي مات قبل أن يعلن إسلامه، ولبيد الذي بلغ الستين وأوشك أن يكف عن قول الشعر، ولم يبق عند ظهوره الإسلام إلا شعراء مقلون بعضهم مجيد في قصائد مفردة ولكنهم لا يبلغون شأو هؤلاء الفحول"[1].

ثم يمضي فيفرد الحديث عن حسان فيتكلم عن شعره في الجاهلية ويرى أنه يحمل مسحة مدنية تميز أسلوبه فهو يكاد يخلو من ذلك المعجم الشعري المألوف عند فحول الشعراء الجاهليين حتى ليوشك أن يكون قريب الشبه في لغته بلغة العصر الإسلامي نفسه ثم يقول: " إن هذه اللغة المدنية قد حرمته تلك النفثات النفسية والومضات الفنية الكثيرة التي نصادفها في شعر الفحول من شعراء الجاهلية" .

وأخيراً يختم حديثه بقوله: " والحق ان حسان لا يمكن بحال أن يعد من هؤلاء الفحول فهو دونهم في الموهبة والمقدرة اللغوية وسعة التجربة وصدق الملاحظة، ولعلنا لو وضعناه في موضعه الصحيح بالنسبة إلى هؤلاء الشعراء نضع قضية ضعف شعره بعد الإسلام في موضعها الصحيح أيضاً إذا ثبت لدينا أنه لم يكن في قمة من قمم الإبداع في الجاهلية ثم هوى عنها بعد الإسلام" [2].

هذه هي الآراء الجديدة التي طرحها الدكتور القط في بحثه الجيد وقد حرصنا على أن نوردها بنصها ما استطعنا ذلك حتى نمكن القارئ من الوقوف عليها من جهة، ومتابعة مناقشتنا لها من جهة أخرى.

---

(1) المصدر نفسه ص 13.

(2) المصدر نفسه ص34.

ونحن قد نؤيد الدكتور القط فيما ذهب إليه في أن الشعراء المخضرمين لم يكونوا قادرين – وقد قضوا قدراً كبيراً من عمرهم في الجاهلية – على إيجاد أسلوب جديد من الشعر يحسن التعبير عن القيم والمفاهيم الجديدة مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بالخصائص الفنية التي نمت وتطورت في ظل المجتمع الإسلامي الجديد، قد نؤيده في هذا، ولكننا نختلف معه في أن الشعر قد ضعف قبل الإسلام لا بعده، ذلك لأن شعر الفحولة لم يكن مقصوراً على أصحاب الطوال فقط، بل كان هناك شعراء عاشوا في الجاهلية، ليسوا من أصحاب السبع الطوال أو العشر ولكن شعرهم كان يمثل الفحولة بالمعنى الذي حدده القدماء، ومن هؤلاء من أدرك الإسلام، وكان له شعر رصين فيه، فقد أدرك الإسلام كعب بن زهير والحطيأة وكلاهما شاعر مجيد فحل، وضعهما ابن سلام في الطبقة الثانية من فحول الجاهلية[1]، وأدركه أيضاً النابغة الجعدي أول الطبقة الثالثة عند ابن سلام[2]، وهو مع ما في شعره من تفاوت لم يخرجه القدماء من أصحاب الجودة والرصانة وقد ظل يقول الشعر الجيد إلى آخر أيامه، انظر إلى هذه الأبيات التي قالها في أيام معاوية حين أخذ مروان بن الحكم ابنه وإبله لأنه كان علوي الرأي فقال:

فمن راكب يأتي ابن هند بحاجتي ... ومروان والأنباءُ تنمى وتجلبُ

ويخبر عني ما أقول ابن عامر ... فنعم الفتى يأوى اليه المعصّب

فان يأخذوا مالي وأهلي لظنةٍ ... فإني لحرّاب الرجال محرّب

صبورٌ على ما يكره المرءُ كله ... سوى الظلم إني إن ظلمت سأغضب

---

(1) طبقات الشعراء ص46.

(2) المصدر نفسه ص 52.

أصيب ابن عفان الإمام فلم يكن   لذي حسب بعد ابن عفان مغضب[1]

فهذه الأبيات وان جاءت في موضوع بعيد عن الموضوعات التي برع فيها الفحول فانها تخفي من ورائها شاعراً مجيداً يحسن التعبير عن نفسه في كل الأمور التي تتصل به، ويملك القدرة على الشعر ولو بلغت به السن مبلغاً.

وبجانب من ذكرت أدرك الإسلام أبو ذؤيب الهذلي، وقد قال عنه ابن سلّام "كان شاعراً فحلاً لا غميزة فيه" وقدمه على لبيد في الطبقة الثالثة من الفحول[2]، وأجود شعره قصيدته العينية وقد قالها بعد الإسلام وبزمن ليس بالقليل.

وأدرك الإسلام أيضاً الشماخ الذي وصفه ابن سلام بأنه " شديد متون الشعر أشد أسر الكلام من لبيد" [3]، كما أدركه المخبل السعدي وهو شاعر فحل ذكره ابن سلام في الطبقة الخامسة، مقدماً إياه على عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة، وعنترة العبسي وجميعهم من أصحاب الطوال، كما أدركه النمر بن تولب وضابئ بن الحارث البرجمي وسويد بن كراع وسويد بن أبي كاهل، وسحيم بن عبد الحسحاس، وأمية بن حرثان، وحريث بن محفض، والكميت بن معروف، وعمرو بن شأس بن بلى، وجميعهم من فحول ابن سلام[4]، وهم وإن كانوا لا يبلغون شأو أصحاب الطوال فإنهم كانوا يقولون الشعر الجيد الذي يؤكد أن الشعر لم يصب بضعف في الجاهلية قبل الإسلام بل ان من هؤلاء من جاء شعره الجيد في الإسلام مثل أبي ذؤيب الذي مر ذكره، وسحيم في قصيدته الديباج الخسرواني وعميرة ودع إن تجهزت غاديا" .

---

(1) طبقات الشعراء، ص55.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه: ص63.

(4) انظر المصدر السابق الطبقات 6، 8، 9، 10 من شعراء الجاهلية.

وإذن لم يكن قد بقي من الفحول سوى الأعشى الذي مات قبل أن يسلم ولبيد الذي أوشك أن يكف عن الشعر، ولا يخفى علينا أن لبيداً هذا الذي وصفه الدكتور القط هذا الوصف لم يكف عن قول الشعر فهم بالرغم من الروايات التي تشير إلى انه قد كف عن الشعر فان هناك جملة صالحة من شعره لابد أن يكون قد قالها في الإسلام، وهذا ما جعل الدكتور شوقي ضيف يقسم شعره إلى قسمين، قسم قاله قبل الإسلام، وقسم قاله بعده، وقد لاحظ في القسم الثاني ان قراءته للقرآن الكريم قد هذبت من لفظه وأدخلت عليه غير قليل من الطلاوة الأمر الذي جعل أسلوبه في بعض قصائده الإسلامية يتميز بجمال السبك والصياغة[1].

ولعل الذي دفع الباحثين إلى القول بتوقف لبيد عن الشعر هو تلك الرواية التي تقول: ان عمر ﷺ قد كتب إلى عامله بالكوفة ان سل لبيداً والأغلب ما أحدثا من الشعر في الإسلام فأجاب لبيد بأن الله قد أبدله بالشعر سورة البقرة وآل عمران، فزاد عمر في عطائه فبلغ به ألفين[2].

وهي رواية يمكن أن نوجهها بأن عمر ربما يكون قد طلب شعراً بعينه، ولم يكن عند لبيد هذا الشعر فاعتذر بما اعتذر به، أو ربما كان لبيد قد تنسك في أخريات أيامه فشغله هذا التنسك عن قول الشعر، فالتنسك هو الذي دفعه إلى ترك الشعر لا دخوله في الإسلام، وإذا كان عمر قد كافأه بزيادة عطائه فان هذه المكافأة لم تكن بسبب أن عمر يسره ان يترك الشعراء قول الشعر لأن هذا يخالف كل ما روي عنه من مواقف نحو الشعر والشعراء بل يتنافى واهتمامه بالسؤال عما أحدثه الشعراء البعيدون عنه من شعر، وإنما كان ذلك – في رأينا- بسبب أن عمر يعلم أن الشعراء حتى بعد الإسلام يستطيعون أن

---

(1) العصر الاسلامي ص92.

(2) طبقات الشعراء لابن سلام ص57.

يحققوا لأنفسهم وسيلة تزيد من دخلهم السنوي المتمثل في العطاء فلما أجابه لبيد بما أجاب رأى أن يزيد في عطائه حتى يعوضه عما يحققه غيره من الشعراء.

وبناء على ما ذكرت يصبح القول بأن الشعر قد بدأ يضعف في الجاهلية قبل الاسلام قولاً لا يقوم على شيء ويبعد عن الحقيقة كثيراً، وخير منه قول الدكتور شوقي ضيف " ان الشعر ظل مزدهراً بعد الإسلام فليس بصحيح انه قد توقف أو ضعف كما ظن ذلك ابن خلدون وتابعه فيه بعض المعاصرين" [(1)].

وثمة أمر آخر نختلف فيه مع الدكتور القط وهو رأيه في حسان بن ثابت الذي حاول أن يدعم به نظريته في ضعف الشعر قبل الإسلام، فقد ذهب -كما رأينا – إلى ان حسان دون الفحول في الموهبة والقدرة اللغوية وسعة التجربة، وانه لم يكن في قمة من قمم الإبداع في الجاهلية ثم هوى عنها بعد الإسلام، وهو رأي غريب في حد ذاته، وغرابته تكمن في اختلاف الحكم الذي نستخلصه من القدماء عن حسان، وما ذهب إليه الدكتور القط في هذه الأقوال، فالقدماء لم ينظروا إلى حسان شاعراً بين فحول أهل البادية كما فعل الدكتور القط، وإنما نظروا إليه شاعراً بين شعراء القرى العربية في الجاهلية والإسلام، وابن سلام حين تكلم عن شعراء هذه القرى وهي المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحران[(2)]، قال : ان أشعر هذه القرى قرية المدينة وان شعراءها الفحول خمسة أشعرهم حسان بن ثابت[(3)]، ولا شك في أن الأصمعي حين حكم عليه بالفحولة لم يحكم عليه بالنظر إلى فحول أهل الجاهلية في البادية وإنما حكم عليه بالنظر إلى هذا الاعتبار، وربما نظر إلى هذا الاعتبار المزرد أخو الشماخ حين رد على كعب بن زهير في قوله:

---

(1) العصر الاسلامي 43

(2) هكذا وردت في كتاب ابن سلام والشائع الان (البحرين) بالياء.

(3) طبقات الشعراء ص 87.

فمن للقوافي شأنها من يحوكها　　　إذا ما مضى كعب وفوّز جرول

فقد رد عليه المزرد بأبيات منها:

ولست كحسان الحسان بن ثابت　　　ولست كشماخ ولا كالمخبل[1]

والثابت ان حسان كان فحلاً كما قال الأصمعي بل ان من الشعراء الإسلاميين من كان يراه فحلاً حتى في الإسلام، فهذا الفرزدق يفتخر بالفحول الذي أخذ عنهم الشعر في أبياته المشهورة المتداولة في كتب الأدب والتي يقول في أولها، فقد قالها مشيراً إلى حسان وشعره في الإسلام.

وهب القصائد لي النوابغ اذ مضوا　　　وأبو يزيد وذوا القروح وجزول

وابنا أبي سلمى زهير وابنه　　　وابن الفريعة حين جدّ المقول[2]

فحسان شاعر فحل بالحق إذا ما نظر إليه شاعراً مدنياً لا بالموازنة مع فحول الشعر من أهل البادية، وهذه المسحة المدنية التي لاحظها الدكتور القط في شعره الجاهلي إنما هي حقيقة يلمسها كل من يقرأ شعره، ولكنها لا تجعل شعره في الجاهلية شبيهاً بشعره في الإسلام كما ذهب الدكتور القط، فشعره

---

(1) الشعر والشعراء ج1 ص91، وأراد كعب بجرول الحطيئة، وفوز بمعنى مات وأراد المزرد بالشماخ أخاه وهو معقل بن ضرار من أنمار بن بغيض وأراد بالمخبل، المخبل السعدي وهو أبو يزيد ربيعة بن مالك من بني أنف الناقة

(2) الابيات من نقيضة الفرزدق اللامية التي يقول فيها:=

= إن الذي سمك السماء بنى لنا　　　بيتاً دعائمه أعز وأطول

وهي في نقائض جرير والفرزدق ص 200 ومن ديوان الفرزدق ط القاهرة ص 720 وأراد بأبي يزيد المخبل السعدي، وبذي القروح امرأ القيس وبجرول الحطيأة كما مضى وأراد بابن الفريعة حسان بن ثابت.

في الإسلام لا يشبه شعره في الجاهلية إلا في القصائد التي ينحو فيها منحى جاهلياً.

ونحن نظلم حسان حين نوازنه بالفحول من شعراء البادية أصحاب الطوال أو غير أصحاب الطوال، وإنما يجب ان نضعه موضعه بين شعراء القرى، إننا نظلمه حين نقول عنه " انه لا يكاد يلم بتلك الموضوعات المقصودة في شعر كبار الشعراء الجاهليين من وصف للرحلة ومظاهر الطبيعة والرحلة وأنواع الوحش والحيوان، وهي موضوعات كان هؤلاء الشعراء يستخدمون في تصويرها كثيراً من الغريب، ويعتمدون فيها على كثير من المعاني والصور المشتركة فيما بينهم"[1]، ونزداد ظلماً له حين نقرر في ضوء هذا الكلام حكماً يقول: " إنَّ حساناً لا يمكن بأي حال أن يعد من هؤلاء الفحول فهو دونهم في الموهبة والقدرة اللغوية وسعة التجربة وصدق الملاحظة" [2].

ماذا نرجو من شاعر لم يعش حياة البادية، ولم يلامس لغة أهلها انه يملك الموهبة الشعرية، ولكن موهبته لم تصقل بالحياة البدوية وإنما صقلت حيث نمت وترعرت في كنف الحياة المدنية وهو يملك أيضاً القدرة اللغوية على التعبير ولكنها لغة هذبتها حياة الحضر، ورققت منها ليونة الحياة لم يعرفها أهل الوبر، إنّ من التعسف أن نطالب شاعراً كهذا بأن يلم بموضوعات الفحول من أهل البادية، وأن يلم بلغتهم وما فيها من غريب، وأن يكون واسع التجربة صادق الملاحظة مثلهم ولو أن حساناً فعل هذا بأن تشبه بأهل البادية في لغتهم وأساليبهم وموضوعاتهم التي كانوا يعالجونها في شعرهم لكان أشبه بالكميت بن زيد الأسدي في غريبه الذي كان يأخذه من أهل البادية بالسماع ثم يتعمده في هاشمياته، وهو الرجل الذي كان يعيش في الكوفة، ولم ير البادية ولم يعش

---

(1) في الشعر الاسلامي والأموي ص24.

(2) المصدر نفسه.

حياتها فجاء شعره الذي وصف به الناقة في هذه الهاشميات وتكلف فيه كلام أهل البادية باهتاً لا روح فيه ولا حياة.

وإذا كنا نختلف مع الدكتور القط في هذه الأمور فإننا نتفق معه في أن بعض شعر حسان قد ضعف في الإسلام، شأننا في هذا الشأن جل العلماء والباحثين الذين قالوا بذلك، وليس الضعف هنا ناتجاً عن أن حساناً كان ضعيف الشعر في الجاهلية أو ان الشعر العربي قد بدأ يضعف قبل الإسلام، كما يبدو من حديث الدكتور القط وإنما ضعف حسان في بعض شعره الإسلامي يرجع إلى أسباب أهمها وأولها ما ذكره الدكتور القط نفسه، وهو أن حسان واضرابه من الشعراء المخضرمين حين واجهوا عبء الاتصال المباشر بالقيم الجديدة التي جاء بها الإسلام لم يستطيعوا ان يوجدوا لأنفسهم أسلوباً يتلاءم مع القيم والقضايا الجديدة، فقد ظلوا يتأرجحون بين ما ألفوه من أسلوب شعري في الجاهلية، وما وجدوه في القرآن الكريم من أساليب بهرتهم وهزت أعماقهم فحاولوا تقليدها ومحاكاتها في شعرهم ذي المعاني الدينية ولكنهم فشلوا في ذلك إلى درجة التقريرية الفجة التي تبعد عن الشعر وتدنو من النظم غير المستحب.

وأدل دليل على ذلك أنهم في الموضوعات البعيدة عن الإسلام كانوا يقولون الشعر ويبدعون فيه فإذا ما حاولوا الاقتراب من المعاني الدينية وتمثل مظاهر التغير في القيم والمفاهيم الاجتماعية والروحية ضعف شعرهم وبعد عن الفنية كثيراً.

ونحن لا نرجع السبب في ضعف شعر حسان في الإسلام إلى اختلاطه بشعراء الأنصار مثل كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وابنه عبد الرحمن أو لأن شعره الإسلامي قد كثر فيه الوضع كما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف[1]، وذلك لأننا نجد هذا الضعف في القصائد التي حملت عليه فحسب بل نجده في

(1) ينظر العصر الاسلامي ص 81.

قصائده الصحيحة النسبة إليه، فالذي يقرأ همزته التي قالها بعد فتح مكة وهي من القصائد التي أجمع الباحثون على صحتها ومنهم الدكتور شوقي ضيف نفسه[1]، نجد الضعف واضحاً في مثل قوله:

وجبريـــلٌ أمـــينُ اللّه فينــا	وروحُ القــدس لــيس لــه كفــاءُ
وقــال اللّه قــد أرســلت عبــداً	يقــولُ الحــق إن نفــع الــبلاءُ
شــهدت بــه فقومــوا صــدقوه	فقلــتم لا نقــوم ولا نشــاءُ
وقــال اللّهُ قــد ســيرتُ جنــداً	هــمُ الأنصــارُ عرضــتها اللقــاءُ[2]

فلا شك أنك تلحظ هذه التقريرية التي تصوغ المعاني الدينية صياغة بعيدة عن روح الفن الشعري، وما ينبغي أن يكون فيه من أسلوب رصين يهز نفس القارئ أو السامع فيتأثر به.

وكذلك لا نرجع السبب الى الارتجال لأن بعض الشعر الذي كان يرتجله حسان بعيداً عن المعاني الدينية قد جاء جيداً لا قدح فيه، وبخاصة في المدح أو الفخر وهما الفنان الذي أجاد فيهما حسان مع الهجاء، ومن أمثلة ذلك قصيدته التي ارتجلها حين طلبه منه النبي ﷺ أن يجيب الزبرقان بن بدر على شعره الذي قاله لما وفد مع قومه تميم إلى رسول الله فقد قال حسان:

إن الــذوائب مــن فهــر وأخــوتهم	قــد بينــوا ســنةً للنّــاس تُتّبــعُ
يرضى بهم كل من كانت سريرته	تقــوي الإلــه وكــل الخــير يصــطنعُ
قــومٌ إذا حــاربوا ضــروا عــدوهم	أو حــاولوا النفــع في أشياعهم نفعــوا

(1) المصدر السابق ص82.

(2) ينظر القصيدة في السيرة ج4 ص 49 وديوان حسان ص 224.

سجيةٌ تلك منهم غير محدثةٍ ... إن الخلائق فاعلم شرها البدعُ

إن كان في الناس سباقون بعدهم ... فكلُّ سبق لأدنى سبقهم تبع

لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا[1]

فهذه الأبيات مع كونها مرتجلة فقد جاءت بالغة في أدائها أو استطاع حسان أو يوظف فيها المعاني التي يجيدها في موضوع المديح توظيفاً جيداً، وأن يخلق من هذه المقابلات التي ساقها في مديحه عملاً فنياً رائعاً نقرأه فنعجب به ويحقق أثره في نفوسنا دون مبالغة أو تزيد.

وإذا كنا قد ذهبنا مع الدكتور القط إلى ان هؤلاء الشعراء المخضرمين قد عجزوا عن إيجاد أسلوب جديد يتلاءم مع القيم والقضايا الجديدة التي جاء بها الإسلام فليس معنى ذلك أنهم لم يتأثروا بالقرآن الكريم في لغته وأساليبه، ولكن تأثرهم به أو بالرسول في روائع كلمة جاء نتيجة انبهار بالإعجاز والفصاحة وقوة الأداء، فلم يتمثلوا هذه الأساليب تمثيلاً تاماً ولم تنصهر في نفوسهم انصهاراً يتولد منه أسلوب جديد في الشعر بل وقفوا عند القرآن الكريم وأساليبه والرسول وأحاديثه وكلمه موقف الناقل للألفاظ المردد للمعاني في تقريرية باعدت بهم عن الإبداع الشعري، والقارئ لشعرهم ذي المعاني الدينية يستطيع أن يلمس هذا الأداء التقريري دون عناء . انظر مثلاً قوله سبحانه وتعالى وهو يتحدث عن نبيه الكريم: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، ثم انظر إلى قول حسان في رثائه للنبي ﷺ :

عزيزٌ عليه أن يحيدوا مع الهدى ... حريصٌ على أن يستقيموا ويهتدوا

---

(1) السيرة ج4 ص 155 وديوان حسان ج1 ص 102 والذوائب الاعالي في الشرف وفهر هو جد قريش أراد المهاجرين وقوله أوهت في البيت الأخير يريد حطت واضعفت.

(2) سورة التوبة الآية 128.

لتدرك إلى أي مدى وقف حسان عند نقل الألفاظ وتقرير المعنى، الذي جاء في الآية الكريمة، في صورة تشبه النظم لا الفن الشعري ونحن هنا لا نوازن بين أسلوب حسان وأسلوب القرآن الكريم لأن حساناً مهما أوتي من البلاغة يعجز عن ان يجاري القرآن وأسلوبه ولكن غايتنا من ذلك أن نبين ان حساناً واضرابه من الشعراء المخضرمين، في تأثرهم بالقرآن الكريم قد كانوا نظامين لمعانيه أكثر منهم شعراء استوعبوا أساليبه وتفاعلوا معها ليخلقوا لنا أسلوباً جديداً في الشعر.

ويمكن أن نلحظ بجانب ما ذكرناه من تعليل لضعف الشعر ذي المعاني الدينية في هذا الطور سبباً آخر أشار إليه الدكتور عمر رضا كحالة - وقد تقدم حديثه- حين تحدث عن الشعراء المغمورين في صدر الإسلام، فقد رأينا في الفصل السابع كيف ان أحداثاً عديدة توالت على العرب بعد الإسلام، وكيف أن هذه الأحداث قد أثرت في الشعر تأثيراً ملموساً، كما ان الشعر ذاته قد اثر فيها، فغزوات النبي وسراياه وما اتصل بهما من أحداث، وما جدّ بعد وفاة النبي ﷺ من قيام الخلافة، وردة في العرب، وفتوحات إسلامية، وفتنة بين المسلمين بعد مقتل عثمان ﷺ كل هذه الأمور ذات الأحداث المتلاحقة جعلت الشعر يجري على ألسنة الكثيرين من العرب الذين لم يعرف لهم من الشعر سوى ما قالوه في هذه الأحداث، وجلهم ليست لهم قصائد معلومة، ولا ذكر في الكتب التي عنيت بالشعراء وأخبارهم وإنما جاء شعرهم من خلال كتب السير والتاريخ التي رصدت هذه الأحداث وسجلتها، ولم تكن هذه القطع الشعرية التي قالها هؤلاء الشعراء المغمورون من الشعر الجيد فقد جاء الكثير منها في أسلوب تقريري أشبه بتقريرية الشعراء المخضرمين في نظم المعاني الدينية التي حاولوا فيها محاكاة الأسلوب القرآني.

ويجدر بنا — وقد انتهينا من عرض آراء القائلين بضعف الشعر في صدر الإسلام ومناقشتهم فيما ساقوه من تعليلات لهذا الضعف وتوضيح ما ارتضيناه منها- أن نشير إلى ان بعض الباحثين يرفض القول بضعف الشعر في صدر الإسلام

ويرى (ان نهضة الشعر قد استمرت بعد الإسلام ان لم تكن قد تقدمت خطوات بما هيأ لها الإسلام من أسباب التقدم والنهوض)[1].

ومع ما في هذه العبارة من تعميم فإن صاحبها قد حاول أن يقيم لها الحجج والبراهين، وكان من أهم ما اعتمد عليه نص أورده من مقدمة ابن خلدون ولكنه لم يورده كاملاً، وإنما حذف منه أجزاء حتى يوجه النص الوجهة التي يريدها، ومن ثم رأينا أن نوقف قارئ هذا الكتاب على ما أورده الباحث من نص ابن خلدون ثم نورد له النص كاملاً كما جاء في المقدمة حتى يتسنى له الوقوف على نموذج من نماذج التدليس التي يلجأ إليها بعض الباحثين في عصرنا هذا. قال الباحث في بحثه: ذكر ابن خلدون : " أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين في منثورهم ومنظومهم، فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيأة أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام من القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلها فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية" [2].

هذا ما أورده الباحث من نص ابن خلدون أما ابن خلدون فقد عقد فصلاً في مقدمته، وهو الفصل السابع والخمسون يتحدث فيه عن حصول ملكة صناعة النظم والنثر فأشار الى ان هذه الملكة لا تتم إلا بكثرة الحفظ وجودة المحفوظ، ثم نبه إلى ان مخالطة هذا المحفوظ بالمحفوظ من العلم ومسائله المتعددة يضر بقريحة الأديب، ويخدش وجه ملكته ثم قال : " ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سرٌ آخر وهو إعطاء السبب في ان كلام الإسلاميين من العرب أعلى

---

(1) الاسلام والشعر د. سامي مكي العاني ط عالم الكتب الكويت ص20.

(2) ينظر النص كما نقله الباحث في المصدر السابق ص 20 وما يليها.

طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين في منثورهم ومنظومهم، فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة، والحطيأة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة، والأحوص وبشار، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية وصدراً من الدولة العباسية في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة بكثير من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم، والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة، والسبب في ذلك ان هؤلاء الذين أدروا الإسلام وسمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم، فتصفت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها"[1].

ولعلك حين تقرأ ما أورده هذا الباحث من نص ابن خلدون ثم تقرأ هذا النص الكامل في المقدمة تدرك كيف أن الباحث قد وجه النص بما بتره منه توجيهاً لم يرده ابن خلدون ولا رمى إليه، ذلك لأن ابن خلدون في هذا النص عالم يضع نظرية عامة في الأدب وهي نظرية تقوم وفق معطيات المجتمعات من الثقافة وتطورها عبر العصور فالأدباء أياً كانوا شعراء أو خطباء لابد لهم من ثقافة تصقل ملكاتهم وتقوي بيانهم في التعبير، وقد كان شعراء الجاهلية وخطباؤها يستقون ثقافاتهم من الموروث الأدبي الذي قاله من سبقهم من الأجيال الغابرة، ومن ملاحظاتهم وتجاربهم في البيئة التي نشأوا فيها والحياة التي عاشوها فلما جاء الإسلام كان لابد ان تتسع ثقافة شعرائه وخطبائه أكثر ممن سبقهم في الجاهلية إذ وجدوا من القرآن والحديث ثقافة جديدة وطبقة عالية من الكلام يستلهمون منها معانيهم وصورهم بجانب ما ورثوه من شعر الجاهليين وخطبهم

---

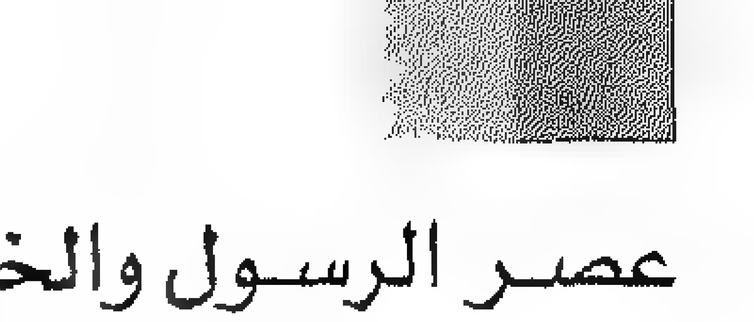
(1) ينظر تاريخ ابن خلدون ط مكتبة المدرسة ودار الكتاب العربي، بيروت المجلد الأول ص 1115 وما يليها.

ولكن هذا – وعلى حد تعبير ابن خلدون – تم للذين ولجت هذه الطبقة العالية في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم، أي تم ذلك للشعراء الذين تمثلوا أساليب القرآن ومعانيه تمثلاً تاماً، ولم يحدث هذا إلا عند شعراء العصر الأموي وما تلاه. أما الشعراء المخضرمين فإن تمثلهم لأساليب القرآن ومعانيه كان محدوداً ومن ثم وجد الضعف في شعرهم ذي الصبغة الإسلامية أما شعرهم المستوحى من ثقافتهم الجاهلية والسائر على نهج الجاهليين فلا ضعف فيه ولا لين.

وبناء على نظرية ابن خلدون هذه يمكن القول بأن شعراء العصر الأموي أكثر ثقافة في الشعر والبلاغة من شعراء الطور الأول من الإسلام لأن اتساع الفتوحات في عصرهم اتاح لهم فرصة الاختلاط بأجناس أخرى اكتسبوا منها معارف جديدة وثقافات عديدة وأنماطاً في الحياة والسلوك بالإضافة إلى تمثلهم التام لأساليب القرآن الكريم والحديث الشريف وما ورثوهم، تراث ونثري سابق ومن ثم أصبحوا أوسع معاني في الشعر وأبلغ في القول، وينطبق هذا على شعراء عصر بني العباس، فكلما تطورت حياة المجتمعات وارتقت ثقافتها نمت درجة البلاغة في شعر شعرائها وارتقت معانيهم.

هذا ما نفهمه من كلام ابن خلدون أو ما ينبغي أن يفهم من نصه، فأبو تمام- عند ابن خلدون- أبلغ في شعره جرير، وجرير أبلغ من الحطيأة، والحطيأة أبلغ من عنترة وهكذا.

وابن خلدون في نظريته هذه ينظر إلى الأدب نظرة كلية نظرة جزئية، بمعنى انه لا يخص بحديثه فترة زمنية معينة وإنما ينظر إلى الأدب قبل الإسلام وبعده دون أن يحدد الأطوار التي مر بها الأدب قبل الإسلام والأطوار التي مر بها بعده، ولذا نراه يجمع بين شعراء أولهم مخضرم وآخرهم عباسي أي يجمع بين حسان وبشار، وهو وإن لم يوفق في وضع حسان بين هؤلاء الشعراء الذين ذكرهم، فإنه على أية حال برهن على انه لا يعني مرحلة بعينها، وقضية الضعف التي يناقشها الباحث إنما تخص مرحلة معينة هي مرحلة الطور الأول من الإسلام-



عصر الرسول والخلفاء الراشدين- وهي لا تمس شعر هذا الطور كله وإنما الشعر المتصل بالمعاني الدينية فقط.

وابن خلدون عندما تكلم عن حصول ملكة صناعة النظم والنثر بكثرة الحفظ وجودة المحفوظ وقال ما قال لم يكن في باله قط قضية ضعف الشعر في هذا الطور من الإسلام وإنما كان همه درجات البلاغة بين الشعراء وفق معطيات عصورهم من الثقافة ولأن حال الشعر في هذا الطور من الإسلام قد وضح رأيه فيها في موضع آخر من مقدمته، وقد تغافل الباحث عن هذا الرأي أو لم يقف عليه، وهو الرأي الذي عرضناه في أول حديثنا عن هذه القضية ، فابن خلدون- كما رأينا- لا يقول بضعف الشعر في هذا الطور بل يقول بتوقفه وانصراف العرب عنه وهو أمر بالنسبة لهذا الباحث وما ذهب إليه من رأي.

وليت الباحث وقف عند بتر أجزاء من نص ابن خلدون ليوجهه حسب هواه، وإنما زاد على ذلك أن أسند إلى باحثين معاصرين آراء لم يقولوا بها أو لا تفهم مما قالوه، فقد ذكر الباحث أن كلاً من عمر فروخ والمستشرق الايطالي نالينو يرفض القول بضعف الشعر في صدر الإسلام، وأن الدكتور يوسف خليف يقف موقفاً وسطاً من هذه القضية[1].

فأما الدكتور عمر فروخ فقد نقلت في هذه القضية في موضع سابق، ولقد رجعت إلى الصفحة التي أحال إليها الباحث من كتاب (تاريخ الأدب العربي) فإذا بي أجد ما نصه (غير ان انعام النظر في أسلوب شعر المخضرمين يدلنا على أن الجانب الأقل منه كان قد بقي على نسجه المتين الجاهلي كشعر الحطيئة وبعض شعر حسان أما الجانب الأكبر منه فقد أصبح أضعف نسجاً وأقل براعة وأكثر تخلخلاً لضيق المجال الوجداني الذي كان للجاهليين من قبل)[2] ، فهل

---

(1) ينظر الإسلام والشعر ص21.

(2) ينظر تاريخ الادب العربي عمر فروخ ط دار العلم للملايين ج1 ص 257.

هذا الكلام يدل على أن صاحبه من المعارضين لضعف الشعر في صدر الإسلام أو يؤكد في وضوح هذا الضعف ويضع له ما يراه من سبب؟!!

أما كارلو نالينو فالذي يرجع إلى كتابه يجد انه لا يتكلم عن ضعف الشعر في صدر الإسلام – وإنما ينفي قولاً سبق أن نفيناه وهو القول القائل بتوقف الشعر في صدر الإسلام وانصراف العرب عنه، فقد أورد نالينو نص ابن خلدون الذي سبق أن أوردته، والذي يقول بانصراف العرب عن الشعر، كما أورد نصاً لابن سلام رواه عن عمر ﷺ يشير فيه إلى ان العرب تشاغلت عن الشعر بالإسلام والجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته، ثم أشار إلى الكتب الحديثة التي قالت بهذا الرأي وانتهى إلى نفي ان الشعراء انصرفوا عن قريضهم أو ان الخطباء انصرفوا عن نسج نثرهم[1]، فهو إذن لا يناقش قضية ضعف الشعر في صدر الإسلام، ولم يصرف همه إليها وإنما ركز كل حديثه على أقوال القدماء القائلين بتوقف الشعر في صدر الإسلام وانصراف العرب عنه، وحتى هذه الأقوال التي تقول بالتوقف قال: "انه ما كان ليناقشها لولا ان رأي بعض الباحثين المعاصرين قد قال بها" [2]. هذا ما جاء عن نالينو فمن أين للباحث القول بأنه يقف ضد القول بضعف الشعر في فترة صدر الإسلام ؟!!

وأما الدكتور خليف فقد أورد له الباحث نصاً من كتابه (حياة الشعر في الكوفة) وكل ما نخرج به من هذا النص ان صاحبه يرى (ان القرآن لم يصرف العرب جميعاً عن قول الشعر ولكنه أضعف من سيطرته على المجتمع الأدبي الإسلامي بعد ان كان هو اللون الأساسي في الحياة الأدبية الجاهلية، وإذا كان لبيد قد فكر في ان يحطم قيثارته فقد كان هناك غيره احتفظوا بقيثاراتهم دون أن يحطموها، وان الرجة الدينية والأدبية التي أثارها القرآن في نفوس الشعراء وفي

---

(1) يراجع تاريخ الاداب العربية ط دار المعارف مصر ص 103 وما يليها.

(2) المصدر نفسه.

المجتمع الإسلامي كادت تزلزل الأوتار في أيديهم، وتجعل الناس لا يجدون في شعرهم تلك المتعة الآسرة التي كان القدماء يجدونها في الشعر القديم أو على اقل تقدير لا يجدون في وقتهم ما يجعلهم يلتفون حولهم ليستمعوا لهم كما كان أسلافهم)[1].

وهذا الكلام لو جردناه من هذه الزوائد الإنشائية المتصلة بالقيثارات والأوتار والمتع الآسرة لوجدنا أن صاحبه يريد ان يقول ان الشعر لم يتوقف بعد الإسلام ولكنه لم يعد كما كان في الجاهلية إذ فقد السيطرة الأدبية التي كان يتمتع بها قبل الإسلام، وان الشعراء – وقد شغلهم القرآن بما أحدثه في نفوسهم من هزة دينية وأدبية- فقد كادوا يكفون عن قول الشعر، وان الناس- وقد شغلوا بالقرآن أيضاً- لم تعد لديهم متعة في الاستماع إلى الشعراء أو ان وقتهم لم يعد يسمح لهم بهذا الاستماع، وهو كما ترى لا يدل على موقف الوسط في قضية ضعف الشعر في صدر الإسلام بل يحاور بالأسلوب في تعمية والتواء للوقوف مع ابن خلدون وغيره من القائلين بتوقف الشعر وانصراف العرب عنه.

وهذا الموقف الملتوي من الدكتور خليف الذي لا يخفى على الدارس المتأني شبيه بموقف الدكتور محمد نجيب البهبيتي من هذه القضية فقد قال الدكتور البهبيتي ما نصه: " ضعف الشعر في صدر الإسلام نظرية صحيحة، والعرب قوم ذوو لسن وذوق قولي ممتاز فلم يلبثوا ان أخذهم القرآن بجماله كما أخذتهم بالدهشة تلك الشريعة الكاملة المبرأة من النقائض التي كانت تصيب الشرائع الأخرى فشغلوا بالقرآن وسكت الشعراء ليستمعوا إلى كلمة الله"[2].

---

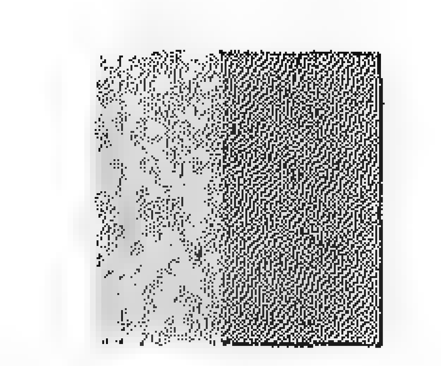
(1) ينظر حياة الشعر في الكوفة ط دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ص 156 وينظر النص في كتاب الاسلام والشعر ص21 وما يليها.

(2) تاريخ الشعر العربي الى نهاية القرن الثالث الهجري ط دار الكتاب العربي بيروت ص113.

فانظر إلى هذا القول كيف بدأ وكيف انتهى، لقد بدأ بان الشعر قد ضعف في صدر الإسلام، وانتهى بان العرب قد شغلوا عن الشعر وسكت الشعراء ليستمعوا إلى قول الله، وحشا ما بين البداية والنهاية بكلام لم يصل إلى مدارك العرب في ذلك الحين لأنه كلام لا يدرك إلا بالدراسة المتأنية في الإسلام، ومقارنته بالديانات الأخرى كما هو واضح في قوله : " الشريعة الكاملة المبرأة من النقائض التي كانت تصيب الشرائع" .

ومعلوم ان الأول الذي جاء في أول الكلام لا يعني القول بالتوقف الذي جاء في آخره، القول بالضعف يعني ان الشعر كان موجوداً ولكنه لسبب ما أصبح ضعيفاً، والتوقف يعني ان الشعراء قد شغلوا بشيء ما عن الشعر فسكتوا عنه، فلو ان باحثاً اخذ صدر النص ودعم به رأيه في القول بضعف شعر حسان أو غيره في الإسلام، لما قال له أحد شيئا، ولو ان باحثا آخر اخذ خاتمة هذا النص- كما فعل الدكتور سامي العاني- وجعله دليلاً على ان البهبيتي يقف مع ابن خلدون في رأيه بتوقف الشعر في صدر الإسلام لما قال له احد شيئا، أرأيت كيف يكون الالتواء في كلام بعض الباحثين وهو أمر كان ينبغي ان يحتاط منه هذا الباحث القائل بنهضة الشعر في صدر الإسلام حتى يجنب نفسه هذه المزالق.

إننا نرفض القول بتوقف الشعر الذي قال به ابن خلدون ودار حوله في غير وضوح الدكتور خليف وأطلّ من حديث الدكتور البهبيتي، وذلك لأننا قد أثبتنا من خلال الفصل السابق ان الشعر كان موجوداً في كل حدث من أحداث الإسلام، وان الشعراء لم يتوقفوا بل عبروا متأثرين ومؤثرين في سائر الأحداث التي طرأت على حياة العرب بعد الإسلام، ولكن شعرهم في هذه المرحلة قد أصيب بالضعف والتقريرية ليس كل الشعر وإنما الشعر الذي جاء معبراً عن بعض المعاني الدينية والقيم الروحية التي جاء بها القرآن الكريم والحديث الشريف.



وهذا الرأي الذي ارتضيناه قال به جماعة من العلماء نعتز بهم وبآرائهم ونحمد لهم – برغم الاختلاف أحياناً- أعمالهم وبحوثهم التي قاموا بها في هذا المجال، كما نحمد لغير القائلين بهذا الرأي أعمالهم وجهودهم في هذا السبيل، ولا نجرؤ أن نصفهم بأنهم (قليلو الاطلاع على النصوص الشعرية)، كما فعل صاحب (الإسلام والشعر)[1]، الذي لم نقصده لذاته وإنما قصدنا من توضيح مزالقه .

وان كان ثمة شيء يذكر فهو مجمل ما انتهينا إليه في هذه القضية وهو ان الشعر في هذا الطور من الإسلام لم يتوقف، وان الشعراء لم يسكنوا عنهن ولكن بعض شعرهم قد جاء ضعيفاً وبخاصة عند الشعراء الذين واكبوا الإسلام في أحداثه الأولى، وهذا الضعف لا يشمل كل شعرهم وإنما يظهر للقارئ في شعرهم الذي يصطبغ بصبغة دينية مستوحاة من القرآن، وهو ضعف يرجع إلى أنهم عاشوا مرحلة دقيقة في تاريخ الشعر العربي فقد مثلوا الجسر الذي يربط بين مجتمعين لكل منهما قيمه وقضاياه، الأمر الذي جعلهم يتأرجحون في فنهم بين ما ألفوه في حياتهم الأدبية قبل الإسلام وما جدّ عليهم في الإسلام، وقد حرصهم هذا التأرجح من ان يستوعبوا القيم والقضايا التي جاء بها الإسلام، كما حرمهم من ان يتمكن القرآن بأساليبه ومعانيه من نفوسهم فينصهر فيها ويخرج لنا أسلوباً شعرياً جديداً يتلاءم مع ما جاء به الإسلام من قيم روحية واجتماعية، أضف إلى هذا ان جل الذين نطقوا بالشعر في هذه الفترة من الإسلام كانوا من المغمورين ممن لم يعرفوا بالأصالة والجودة، كما ينبغي ان ندرك ان هناك شعراً موضوعاً قد حمل على شعراء تلك الفترة، ولكنه لا يصلح دليلاً على نفي ضعف الشعر عند هؤلاء الشعراء لأن هذا الضعف يوجد في أشعارهم التي لا يختلف الباحثون في صحة نسبتها إليهم، كما ان الارتجال وكثرة الشعر لا يقومان –

---

(1) الاسلام والشعر ص19.

وحدهما – دليلاً على هذا الضعف، ولا يكونان السبب المباشر فيه، إذ أنهما أمران يتصلان بالشاعر نفسه ومدى قدرته على التعبير في المواقف التي تستدعي الارتجال والكثرة وقد كان الشعراء في هذا متفاوتين[1].

(1) محمد عثمان علي، في أدب الإسلام، ص95.



ضياع الشعر الإسلامي

وكان للأحداث الكبرى التي شهدها العصر، أثر فيما آل إليه الشعر من الطمس والضياع، والنحل والتزيد، فالفترة مليئة بالأحداث الهامة الكبرى، وفي غمرة الأحداث هذه، يتعرض الشعر وكل الظواهر الأدبية، إلى الطمس والضياع، وإذا استعرضنا الأحداث التي تتابعت سريعا، نجد ان الإسلام قد لقي عداء شديداً ونضالاً عنيفاً من مشركي قريش، ومن والى قريشا من الثقفيين والاعراب واليهود، ولم يكن العداء هينا يسيراً، فقد قدم الفريقان لأجله من الضحايا العدد الكبير، وخلف الضغائن والأحقاد، واستمر النزاع طويلاً نيف على العشر سنين، وقد كاد الخطر يحدق بالإسلام والمسلمين، حتى قيض الله لدينه ان ينتصر على معقل الشرك وأهله في الفتح، ثم في حنين والطائف، ولم يكاد يطمئن المسلمون إلى درء الخطر والقضاء عليه، حتى أصيبوا بوفاة رسول الله ﷺ، وجوبهوا بتحد جديد وخطر رهيب من قبل القبائل التي أعلنت ردتها وتمرها عل سلطان المسلمين، المتمثل في خلافة أبي بكر، وكان ان أعلن أبو بكر الحرب، وجابه المرتدين بحزم وشدة، وكادت معركة اليمامة ان تهدد المسلمين بفناء أكثر الحفاظ، وما ان قمعت حركة الردة، حتى توجه المسلمون نحو الفتوح، وقبل ان يكتب لهم الطمأنينة على أمر دينهم، والاستقرار في دور الهجرة، حتى أشرأب عنق الفتنة وتطاول شرها واستفحل، فتخطفت ثلاثة من أمراء المسلمين، وهم عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب (رضوان الله عليهم جميعا).

ومن الطبيعي ان يتأثر الشعر بهذه الأحداث الجسام، فيضيع منه الكثير، ولعل ابن سلام كان ينظر إلى هذه الأحداث، عندما قال معقبا على قول لعمر بن الخطاب: "فجاء الإسلام فتشاغلت عنه [أي شعر] العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون، ولا

كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك، بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير" [1]، نعم (فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير)، وضياع الشعر عامة – الجاهلي منه والإسلامي – أمر يؤكده النقاد القدامى، فابن سلام يذكر في موطن آخر من كتابه[2]، قلة ما بقي لطرفة وعبيد بأيدي الرواة والمصححين، ويقول أبو عمرو بن العلاء: " ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير" [3].

وإذا عرفنا ان الشعر الذي قاله شعراء مكة، وغير شعراء مكة من خصوم الإسلام، كان يهاجم الرسول وأصحابه، والدين الإسلامي، ثم يشاء الله ان يكون النصر لدينه ولرسوله، ويدخل الخصوم طوعاً أو كرها في رحاب الإسلام، إذا عرفنا ذلك، أدركنا أن لابد ان يعمل الناس على تجنب ما قيل من الشعر الذي يمثل عهد الحرب والدماء والصراع بين الكفر والإيمان . ثم ان ولاة المسلمين قد نهوا عن رواية الشعر الذي تراد به أهل مكة والمدينة، فعمر بن الخطاب كان حازماً في منع ما قيل، دفعا للتضاغن والأحقاد، وبث القبيح ، وإذا تيسر للأنصار فدونوه وجددوه حمية وعصبية[4]، فما كان لقريش ان تفعل ذلك وقد تغير بها الزمان وتبدل وجه الدنيا، فشعرها كان يحارب الله ورسوله، ثم قد ثابتْ فآمنت بالله ورسوله، فالشعر الذي كان مفخرة عصبيتها بالأمس، أصبح اليوم سبة وعارا تتوارى منه، وتعمل على دفعه والتخلص منه، ثم ان المسلمين لا

---

(1) طبقات الشعراء ص22.

(2) المصدر نفسه، ص23.

(3) الخصائص: ابن جني ج1 ص386، ط الدار، طبقات الشعراء ص23.

(4) جاء في الاغاني : ان عمر بن الخطاب قال بعد ان حدث ما حدث بين حسان بن ثابت وبين غريمه عبدالله بن الزبعري وضرار بن الخطاب إني كنت نهيتكم ان تذكروا مما كان من بين المسلمين والمشركين شيئاً دفعا للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم، فأما إذا أبوا فاكتبوه واحتفظوا به"، قال الراوي " فأدركته والله وان الأنصار لتجدده عندها إذا خافت بلاه" الأغاني ج4 ص141 ط الدار.

يرضيهم حفظ شعر فيه تعريض برسول الله وأصحابه، فكان طبيعياً ان يعملوا على طمسه وأبادته،أضف إلى ذلك ان الرسولﷺ، كان قد نهى عن روايته اشعار بعينها[1].

وحتى الشعر الذي وصل إلى الرواة في العصور الأولى، وفيه تعريض برسول الله ﷺ وأصحابه، قد تحرجوا من روايته وأسقطوه من مدوناتهم، وكثيراً ما نجد في السيرة تعقيبات لابن هشام، يذكر فيها انه اسقط أبياتاً من القصائد والمقطعات، نال الشعراء فيها من رسول الله وأصحابه، أو ان الشاعر قد أقذع فيها، ولذلك فليس من الغريب ان نجد شعر قريش أو شعر مكة، خلوا من ذكر الدين الإسلامي، ومن ذكر رسول الله ﷺ - إلا في القليل النادر – وقد يلتبس لأجل ذلك هذا الشعر بشعر الأيام- أيام العرب في جاهليتها واسلامها – لولا ما في شعر الفترة من ذكر للمواقع والرجال.

وإذا كان كثير من الشعر المتعلق بأحداث هذه الفترة قد ضاع، نتيجة الصراع بين مكة والمدينة، ولحركة الفتوح والتوسع فللأسباب نفسها، مضافا إليها العصبية – التي بقيت قوية مستمرة في حياة المسلمين – كان احتمال الشك والتزوير في شعر الفترة، فان ما بقي من هذا الشعر لا يصح ان يؤخذ على انه صحيح لا ريب فيه، كما انه لا يصح ان يرفض على انه باطل لا نفع به، ولا خير فيه، وإنما يؤخذ هذا الشعر بالتنقية والتنقيح والتمحيص، فمنه الصحيح الذي لا غبار عليه، وقد وثقته الرواة وصححه الناقلون، ومنه الفاسد المصنوع ن ويتضح زيفه بالفحص والتمحيص، وان استجلاء الشعر الصحيح من الشعر الفاسد، مهمة غير يسيرة، وذلك ان كتب السيرة على العموم، أقرب الى القصص منها إلى التاريخ، وطبيعة القصص، تحتمل التزيد، بل يجملها المثل المصنوع والشاهد

---

(1) مثل شعر أمية ابن ابن الصلت في هجاء المسلمين وبكاء قتلى بدر من المشركين وعلينا ان نحذر هنا من الغلو في تقدير ما منع الرسول، فقصيدة أمية هذه مدونة في السيرة ويبدو ان الرواة دونوها فيما بعد حيث زالت ظروف منعها ينظر في السيرة ق2 ص30- 32.

الملفق، وقد فطن لذلك الرواة العلماء، فنبهوا الى ما فيها من شعر مصنوع منحول، وفي كتاب السيرة لابن اسحق — وهو من أهم وأقدم الكتب التي اعتنت بأحداث هذه الفترة — كثير من مثل هذا الشعر، فعمل ابن هشام على استدراكه على ابن اسحق — وأسقط كثيراً منه، وبين زائفه، وذكر نقد العلماء له، وابن اسحق نفسه كان قد نبه إلى ما في كتابه من منحول الشعر، فاعتذر بأنه لا علم له بالشعر، يحمل منه الجيد والرديء، قال : لا علم لي بالشعر أوتي به فأحمله" [1]، ولم يرض ابن سلام بذلك عذرا، فقال: " ولم يكن له ذلك عذرا، فكتب في السيرة اشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعارا كثيرة، وليس بشعر، إنما هو كلام مؤلف معقود بقوافٍ، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر ؟ ومن أدّاه منذ آلاف من السنين ؟ والله تبارك وتعالى يقول: نَقُطع دابر القوم الذين ظلموا أي لا بقية لهم[2].

ونقد ابن النديم ابن اسحق أيضاً فقال " ويقال: كان يعمل له الأشعار ويُؤتى بها، ويسأل أن يدخلها في كتابه السيرة فيفعل، فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر" [3]، وقد عمل ابن هشام على تعقب ابن اسحق، فاختصر بعض ما أورده ابن اسحق، ونقد بعضه الآخر، ونبه عليه وذكر روايات أخرى، فات ابن اسحق ذكرها، ومع ان ابن هشام كان يسقط ما لا يصح عنده من الشعر، فقد كان يثبت أشعارا منحولة مما أثبت ابن اسحق دون أن يخرم منها شيئا، ثم ينبه عليها بأن يقول: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لفلان أو انها لم تصح... وهكذا.

---

(1) طبقات الشعراء ص9.

(2) طبقات الشعراء ص9.

(3) الفهرست — ابن النديم ص 136 ط المكتبة التجارية بمصر.

وإذا كان ابن سلام قد فتح للنقاد طريقاً يؤدي – إذ أحسن الفهم والقصد- إلى تصحيح الخطأ، ورد المنحول، فانه كذلك يذكر أن: " ما اتفقوا [أي العلماء] عليه [أي الشعر] فليس لأحد أن يخرج منه" [1].

ثم ان من الشعر ما تُرجح صحته الأسانيد وأكثر الشعراء المخضرمين حظا من هذا الضرب في الروايات المسندة، هو حسان بن ثابت، ومرد ذلك إلى صلة حسان برسول الله ﷺ وشعره في الأحداث الإسلامية.

من هذا يتضح ان شعر الفترة، قد تعرض للضياع والشك، وذلك من طبيعة الفترة والأحداث التي شهدتها، والمنهج الصالح القويم، يقوم على اخذ ملاحظات النقاد القدامى باهتمام بالغ، إذ لا يمكن أن يركن إلى شعر نبه على بطلانه الثقات من الأقدمين، وعلى الباحث – إذا توخى الدقة والاطمئنان – ان يعرض الشعر على الحدث التاريخي، فإذا استجاب له قبلة وإلا رفضه، وان يقارن شعر الشاعر بما ثبت وصح من شعره، فإذا وافقه كان منه وإلا صد عنه.

ولابد من الحذر، فكما يطلب الحذر من الفاسد المصنوع، عليه ان يحذر من الغلو والإسراف في تقدير المنحول المصنوع، ومن إتباع الهوى الذي تحببه لذة التشكيك[2].

(1) طبقات الشعراء ص6.

(2) يحيى الجبوري، شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ص48.

الشعراء المخضرمون

الشاعر المخضرم هو الشاعر الذي عاش في عصر ما قبل الإسلام واستمر بالحياة في عصر صدر الاسلام، منهم من دخل الإسلام ومنهم من بقى على دينه.

لقد أثر الإسلام في الشعراء المخضرمين لاسيما شعراء مكة والمدينة وأهل البادية أيضاً وهو تأثير متفاوت حيث كان عميقاً لدى البعض منهم وضئيلاً في البعض الآخر ومنتفياً في البعض الثالث وسبب ذلك يعود إلى علاقة هؤلاء بالإسلام ومدى ارتباطهم به زمنياً ومكانياً فقد دخل جماعة منهم في الإسلام بعد الفتح في السنة التاسعة من الهجرة ثم شغلوا بالردة التي بدات بواكيرها في الإيام الأخيرة من حياة النبي محمد ﷺ وتفاقم أمرها بعد وفاته، وقد رأينا بعضاً من هؤلاء الشعراء قد ثبت على دينه وأخذ يناضل الردة بشدة، أما بعضهم الآخر فقد ظل مع الردة يقول الشعر مدافعاً عن الذين آثاروها معضداً ومؤيداً لهم، لذلك ظهر أتجاهان للشعر عند المخضرمين:

الاتجاه الاول:

إننا نلاحظ على شعراء هذا الاتجاه تحولاً في الموضوعاتِ والمعاني عن المسار الذي كان عليه الشعر في عصر ما قبل الإسلام إذ تطبع شعراؤه بما خطه الإسلام من خلق ديني وقيم جديدة فتأثر شعرهم تبعاً لذلك فعف لسانهم عن الكثير من أغراض الجاهليين ومعانيهم التي تسلك سبيل الغواية وتنأى عن الهدى والرشاد فتخلوا من الفخر القائم على العصبية القبلية الداعي إليها، والغزل المفحش الصريح، والهجاء الذي ينال الاعراض ويهتك الحرمات فلم يجر لسانهم به إلا في هجاء المشركين من قريش وغيرهم قبل الفتح حيث كان دافعه حماية الدين والذود عن الرسول ﷺ، كما ترفعوا عن وصف الخمرة وما يتصل بمجالسها من قيان وندمان إلا ما جاء عن موروث في البناء الشعري للقصيدة، وتجنبوا المديح الذي ينشأ لغرض العطاء أو العصبية القبلية واتجهوا إلى مدح

الرسول محمد ﷺ وصحابته وأنصاره ونهضت على أشعارهم معان جديدة مثل تأييد دعوة الإسلام والحض على الجهاد والبحث عن صالح الأعمال والمواعظ الحسنة ورثاء من استشهد من المؤمنين في غزوات النبي محمد ﷺ وسراياه ورثاء الرسول ﷺ ومن مات أو قتل من الخلفاء الراشدين. وجرى على السنتهم شعر حماسي في الغزوات والسرايا ثم في الفتوحات الإسلامية معبرين بذلك عن الفداء والتضحية في سبيل أعلاء كلمة الله كما وصفوا المعاقبل والحصون التي فتحوها والآت الحرب التي لم يروها من قبل ولم يألفوها.

وقد كان مدحهم للرسول محمد ﷺ يدور على مجيء الهدى على يديه وأنه صادق أمين فيما وكله الله إليه من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، يؤكدون بشعرهم ما قرره الإسلام من وحدة الجماعة تحت كلمة الحق التي تصدر عن الرسول محمد ﷺ.

وقد سخر الهجاء لخدمة الدين، وكان الموجه له هو رسول الله ﷺ نفسه، قال: (ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بالسنتهم، فلما قال حسان: أنا لها يا رسول الله، قال له أذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم أهجهم وجبريل معك).

وبدا واضحاً أن حسان بن ثابت وكعب بن مالك كانا يهجوان قريشاً بالمثالب والايام والوقائع وكان عبد الله بن رواحة يهجوهم بالكفر والصد عن سبيل الله.

وكان رثاؤهم موقوفاً على من سبقهم إلى الشهادة في غزوات النبي ﷺ وسراياه ثم رثاء النبي ﷺ، ورثاء خلفائه من بعده، كما ظهرت الحماسة واضحة في أشعارهم فهم يرون القتل مدحاً لأنهم يحققون به الشهادة من ربهم والفوز من نبيهم الذين يذودون عنه ذماره ويدفعون عنه بالسيف واللسان ولا يرون أمامهم في القتال إلا ما وعد الله به من الجنة والاجر العظيم وبدأ هذا في شعر الفتوحات الإسلامية، والشعر الديني الذي جرى على ألسنة الشعراء والذي يدعو إلى

الإسلام متحدثاً عن عقائد الدين وما جاء به من قيم ودعوة القبائل إلى الصلح وحماية الإسلام من الخصوم والأعداء والعمل على حث الأخرون على الدخول في الإسلام.

الاتجاه الثاني:

والملاحظ أن الشعراء ساروا بالشعر على نحو ما كان عليه في الجاهلية فمضوا يقدمونه في أغراضه المعروفة ومعانيه المعهودة فمدحوا من أجمل العطاء والعصبية القبلية، وتغزل بعضهم من غير ما تحرج، ووصفوا الخمرة كما كانوا يصفونها، وظل بعضهم مستمراً بكتابة الهجاء المقذع وأن تأثر بعضهم بالإسلام لكنه تأثير غير واضح.

وخلاصة القول أن الشعر في صدر الإسلام رغم ماجد عليه من تطور أو مادام فيه من تقليد كان استجابة لظروف الشعراء المخضرمين ومواهبهم وقناعاتهم، فمنهم من لم يتصل اتصالاً مباشراً بالدعوة الإسلامية ولم يواجه ضرورة للتعبير عن تجارب جديدة لا عهد له بها فظل شعره في جملته امتداداً للشعر القديم، ومنهم من كان له دور مشهود في نصرة الدين والمشاركة في وقائع الدعوة الإسلامية وعاش في بيئة جديدة في فكرها وأخلاقها وعلاقاتها الاجتماعية.

وهكذا كان شعر هؤلاء خليطاً من القديم والجديد، ولذلك كان لابد أن يظل هناك امتداد للشعر الجاهلي في شعر العصر الإسلامي على اختلاف المظهر والدرجة إذ ليس من اليسير أن يتخلى الشاعر عن تقاليد فنية جرى عليها الشعراء قبله منذ زمن بعيد وأن يبتكر لنفسه أسلوباً جديداً كل الجدة.

استقر العرف على إطلاق وصف المخضرم على من أدرك الجاهلية والإسلام، ولكننا حين نتتبع هذا الوصف نجد له دلالات أخرى، وإن كانت مرتبطة بما انتهى إليه العرف، ففي اللغة نجد استعمالات الخضرمة (بفتح الخاء)

تدور حول النقص، سواء أكان النقص مادياً أم معنوياً، فالملاحظ في كل هذه الاستعمالات أنها تشتمل على التقليل من قدر الموصوف بها، حيث لم يكن العرب في الجاهلية يستعملون وصف المخضرم عادة إلا لمن كان فيه عيب أو نقص نسبي شذ به عن غيره.

فمن استعمالات المخضرم [1] عند العرب، الدعى، وهو المنتسب إلى قوم ادعاء، ومنها الناقص الحسب، ومن لا يعرف أبوه، وكل ذلك فيه نقص واضح، ومن استعمالاته الأسود الذي أبوه أبيض، حيث كان ينبغي في عرف الناس أن يولد أبيض كأبيه، فكان سواده نقصا لذات السواد، ونقصا لتخلف الولد عن أبيه في اللون، والمعنى الأخير هو المناسب لاستعمالات المخضرم، فان هذه الاستعمالات لا تلتزم النقص لذاته، وإنما تلتزم النقص – النسبي، بمعنى أننا قد نجد في بعضها دلالة على وصف لا يعد في ذاته نقصا، وإنما يعد نقصا إذا قيس بغيره.

فمن استخدام اللغة لهذه الكلمة قولهم طعام مخضرم إذا كان حقيرا تافها، ولحم مخضرم إذا لم يكن يعرف أهو لحم حيوان ذكر أم أنثى، فاللحم حينئذ لا عيب فيه لذاته، ولكن الشك في مصدره يجعله أقل درجة من اللحم المعروف الأصل، وكذلك يقال ماء مخضرم إذا نزلت درجته عن الماء الجيد النقي، ويقال ناقة مخضرمة إذا قطع شيء من أذنها.

ومن هذا نتبين أن النقص بصفة عامة هدف واضح لاستعمالات المخضرم، وقد بلغت دقة مراعاة هذا المعنى في الاستخدام، أننا نجدهم يصفون من لم يختتن من الرجال بأنه مخضرم، بينما يصفون المرأة المختتنة بأنها مخضرمة، وكأنهم يراعون أن عدم الختان في الرجل نقص، والختان كمال في رجولته، بينما الختان نقص في أنوثة المرأة، وعدمه كمال فيها، فدار وصف المخضرمة حول النقص.

---

(1) المخضرم بفتح الراء وقد تكسر: انظر خزانة البغدادي 1- 268.

ومن هنا جاء وصف المخضرم لمن أدرك الجاهلية والإسلام، فكأنهم راعوا أن الحياة في الجاهلية نقص في صاحبها، هذا المعنى يصرح به صاحب أساس البلاغة حيث يقول (ناقة مخضرمة جدع نصف أُذنها، ، ومنه المخضرم الذي أدرك الجاهلية، والإسلام، كأنما قطع نصفه حيث كان في الجاهلية)[1].

وهذا يدعونا إلى التساؤل: كيف يتفق جلال الجيل المعاصر للنبيﷺ مع وصفه بالنقص الذي يوحيه لفظ المخضرمة؟

ويمكن الرد على هذا التساؤل بأن نظرة الإجلال التي ينظر بها إلى هذا الجيل، إنما تحددت بصورتها الكاملة بعد انقضاء الجيل نفسه، بل بالتدرج بعد انقضائه بمعنى انه كلما بعد العهد بهذا الجيل زاد جلاله في نظرة الأجيال إليه، أما الجيل نفسه على نطاقه الواسع في الجزيرة العربية، فلم يكن ينظر إلى نفسه هذه النظرة، بل كان على العكس من ذلك، أول ما يبدو في نظرته إلى نفسه هو الألم والضيق بما أسلفه من حياته في الجاهلية، وكان عمق إحساسه بالدين وسيطرة التشبث بالإيمان تزيد من إحساسه بالسخط، على ما أسلف في الجاهلية مما يخالف هذا الدين المسيطر على نفسه، وكثيراً ما بدا هذا من الذين يجيئون إلى النبيﷺ مسلمين، ولم يكن يخفف من حزن هؤلاء على ما ضيعوه في حياتهم الجاهلية، إلا مثل قول النبي لهم (الإسلام يجب ما قبله).

وهذا التعميم لا ينطبق كل الانطباق على الذين عايشوا النبي ﷺ واتصلوا به عن قرب، ومعظمهم من أهل المدينة سواء أكانوا من المهاجرين أم من الأنصار، فهؤلاء لا يعدون مجرد معاصرين للنبيﷺ، وإنما كانوا تلاميذ مباشرين، حملوا إلى الناس جوهر الدين ممثلا في القرآن الكريم وتعاليم الإسلام، وحملوا فرق ذلك آداب الإسلام ممثلة في سنة النبيﷺ وحديثه الشريف

---

(1) انظر الصحاح للجوهري والقاموس المحيط للفيروز أبادي وأساس البلاغة للزمخشري مادة (مخضرم).

ومع ذلك كان انبهارهم بالإسلام وعمق الإيمان في نفوسهم يجعلهم بين مخافتين، مخافة أن تلاحقهم مساوئ حياتهم الجاهلية، ومخافة أن يمسهم عذاب الله لشيء لم يرضه منهم، ولكنهم بعد حين أخذت نفوسهم تستقر، وبخاصة حينما استمعوا إلى مثل قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وإلى مثل قول النبيﷺ (خير القرون قرني) بعد ذلك وبخاصة بعد وفاة النبيﷺ، ثم مخالطتهم لغيرهم، أخذوا يقدرون قدرهم الديني ويدركون مدى أهميتهم.

أما من عدا هذه الجماعة من تلاميذ النبي ﷺ وصحبه والقريبين منه، فقد كانوا لبعدهم عن معايشة النبي أقل عمقاً في الدين، وممكن أن يقال إن أبناءهم الذين ولدوا في الإسلام كانوا خيرا منهم فقها في الدين، وعمقا فيه، ولا يخل هذا الحديث الشريف (خيرا لقرون قرني) فهم وأبناؤهم من قرن النبيﷺ.

وإذن ففي كل الأحوال كانت الفترة التي كان المسلمون قد قضوها من حياتهم في الجاهلية شجى في حلوقهم، أو ماضيا بغيضاً إلى نفوسهم في أيسر الفروض، ومن هذا الجانب نشأت تسمية المخضرم للذي أدرك الجاهلية والإسلام، تعبيراً عن حياة الجاهلية.

وحين نتابع استعمال العلماء القدماء لوصف المخضرم، نجدهم لا يلتزمون مدلولا ثابتا، ولا يلتزمون أيضاً تعليلا متفقا عليه لسبب تسمية الشخص بالمخضرم، فنجد أحدهم كأبي الفرج الأصفهاني يعمم استعمال الخضرمة في كل من عاصر عهدين، بالإضافة إلى خضرمة الجاهلية والإسلام، فهو أحياناً يقول عن بعض من يترجم لهم، هو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وأحياناً هو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية[1]. ولكن ابن رشيق يسلك في فهم اصطلاح المخضرم منهجا يختلف عن الفهم السابق، فهو يرى أن الخضرمة تنبئ

(1) انظر كتاب الأغاني للأصفهاني.

عن الكثرة والاتساع[1]، وان المخضرم إنما سمى بذلك لأنه جمع كل المزايا، أو لأنه يمتاز عمن عاش في عصر واحد، بأنه عاش في العصرين، كأنه استوفى الأمرين، أو نصيبه من الأمرين، وهو يعرف ان الأُذن المقطوعة تسمى عند العرب مخضرمة ولكنه يحمل ذلك على ان المخضرم انقطع عن الجاهلية، من حيث الدين إلى الإسلام، فيكون إذن قد انتقل إلى خير كثير لا حدود له، وينقل ابن رشيق عن الأخفش قوله ماء مخضرم (بكسر الخاء والراء) إذ تناهى في الكثرة والسعة ويرى ان منه اشتقاق المخضرم لاستيفائه الأمرين معا.

وينتقل ابن رشيق رأيا آخر عن ابن قتيبة، وهو ان المخضرم لا يكون صحابيا وإنما يشترط ان يكون قد أسلم بعد وفاة النبي ﷺ، ولكن ابن رشيق ينكر هذا الرأي مستشهدا على خطئه [2].

يبدو أن لفظ المخضرم في إطلاقه على من أدرك الجاهلية والإسلام، إنما بدأ استخدامه في الشعراء، بمعنى أنه بدأ الاصطلاح على ان الشاعر الذي أدرك الجاهلية والإسلام يسمى مخضرما، ثم توسعوا في إطلاقه فأطلقوه على الرجل الذي أدرك الجاهلية والإسلام، وأطلقوه أيضاً على الشاعر الذي عاصر عهدين، كما يقال للشاعر الذي عاصر دولة بني أمية ودولة بني العباس، أنه مخضرم، ومما يدل على انه لفظ المخضرم استخدم أولاً في الشعراء أن بعض علماء اللغة ظل يقصر تعريف المخضرم على انه الشاعر الذي أدرك الجاهلية والإسلام[3].

والبغدادي في تقسيمه للشعراء من حيث الزمن يجعل المخضرمين قسما مستقلاً، حيث يقول إن الشعراء أربع طبقات، جاهلي قديم، ومخضرم، وإسلامي، ومحدث[4]، ومعنى ذلك انه يراعي اختلاف الشعر باختلاف البيئات

---

(1) العمدة لابن رشيق 1- 113 .

(2) د.عبد الحليم حفني، الشعراء المخضرمون، ص8.

(3) انظر خزانة الأدب للبغدادي 1- 268.

(4) المصدر السابق، 1- 269.

والعصور والأحداث، وإلا لما كان هناك داع لهذا التقسيم الزمني، وهذا التقسيم الذي يبرزه البغدادي، والذي رعاه كثير من العلماء والنقاد القدماء، هو ما لجأت إليه الدراسات الأدبية الحديثة في تقسيم الأدب العربي إلى عصور زمنية، ولكن الكثيرين ينسبون هذا إلى اختراع المستشرقين، ويرونه وليد فكرهم وجهودهم، وليس هذا الاستطراد هو ما يعنينا لذاته، وإنما يعنينا منه أن علماء الأدب القدماء يجعلون الشعراء المخضرمين طبقة مستقلة بأدبها ومعنى ذلك أنهم يراعون أن لأدبهم طابعا معيناً، وخصائص تميزه عن غيره، ولكن الحديث عن أدبهم وخصائصه ينبغي ان يسبقه تحديد معنى الخضرمة في الشعراء، هل هي مجرد إدراك الشاعر للجاهلية والإسلام ؟ وهل إذا كان هناك شاعر أدرك الجاهلية والإسلام ولكنه لم يقل شعرا في الجاهلية، وإنما كان شعره كله في الإسلام، يسمى شاعراً مخضرماً ؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما الفارق بين هذا الشاعر والشاعر الذي نشأ في الإسلام ؟ فكلاهما كان شعره في الإسلام وحده، ومثل هذا يقال عن الشاعر الذي أدرك الجاهلية والإسلام، ولكنه لم يقل شعرا في الإسلام، وإنما كان شعره كله في الجاهلية كلبيد بن ربيعة، هل يسمى شاعراً مخضرماً ؟ وإذا كان كذلك فما الفرق بين هذا الشاعر والشاعر الجاهلي الذي لم يدرك الإسلام ؟ فكلاهما كان شعره في الجاهلية وحدها.

ونستطيع ان نخرج من هذا التساؤل بشيء محدد، هو ان هناك فرقا بين ان نقول هذا رجل مخضرم، وان نقول هذا شاعر مخضرم، فالأول يقصد بخضرمته انه جمع بين الدينين، دين الجاهلية ودين الإسلام، بمعنى انه كان يدين بدين الجاهلية، ثم جاء الإسلام فأسلم، أما حين نتحدث عن شخص بوصفه شاعراً، فنقول إنه مخضرم، فهذا يعني أن ينبغي أن يعني ان الخضرمة ليست منصبة على تدينه وإنما على شاعريته، بمعنى أننا نقصد أو ينبغي ان نقصد حينئذ أن شعره تناول العهدين، عهد الجاهلية وعهد الإسلام، بمعنى انه قال شعرا في كلا الزمنين، ونقول ينبغي ان نقصد لأن أحاديث القدماء لم تقف عند هذه النقطة

لتوليها شيئاً من توضيح أو اهتمام، وإنما انصب حديثهم على ان الخضرمة هي معاصرة للجاهلية والإسلام معاً، دون تفريق واضح بين الشاعر وغيره في هذه المعاصرة، ولعل لهم في ذلك بعض العذر، ومما يعذرون به ان التفريق بين الشعر الجاهلي والإسلامي في شعر المخضرمين بالغ الصعوبة والتعقيد فأغلب الشعراء المخضرمين لا يستطاع التفريق الواضح بين شعرهم الإسلامي وشعرهم الجاهلي، والقلة التي يستطاع هذا التفريق في شعرها، لا يستطاع ذلك في شعرهم كله، وإنما فيما ارتبط بمناسبة معينة، توضح انه قيل في الجاهلية أو الإسلام، ذلك لأن هؤلاء الشعراء لم يدونوا شعرهم في حياتهم، ولم يدونه الجيل التالي لهم، وإنما بدأ التدوين بعد ذلك، وكان هم جامعي الشعر حينئذ حصر ما يمكن حصره من شعر كل شاعر معروف، دون التركيز على الزمن الذي قيل فيه، ولم يكن يعنيهم حينئذ إلا ربطه بالمناسبة إن عرفت مناسبته ولم يكن تحديد المناسبات أو الأحداث في الشعر، وإنما كانت تذكر المناسبة من باب التوضيح للغرض من هذا الشعر، أو من باب سرد بعض الطرائف، أو نحو ذلك.

ونتيجة لهذا الغموض نلمس بوضوح أن الرواة وجامعي الشعر يعمدون غالبا إلى تحاشي التفصيل أو التحديد، لأنهم لا يملكون ذلك وبخاصة في نسبة الشعر إلى الجاهلية أو الإسلام، فهم يتحاشون تحاشياً تاماً أن يحددوا ما قاله الشاعر في الجاهلية، وما قاله في الإسلام، لأنهم لا يملكون هذا التحديد، ومثال ذلك ما صنعه السكري حين جمع شعر الهذليين [1] وفيهم بعض المخضرمين كأبي خراش وأبي ذؤيب، فأنه جمعه لشعرهما يتحاشى نسبة الشعر إلى الجاهلية أو الإسلام، ولو كان يملك هذا التحديد لعناه أن يثبته، كما عني باثبات المناسبات التي قيل فيها الشعر، فضلاً عن ناحية أخرى كان يدركها بعض النقاد، في الفارق بين الشعر الإسلامي والجاهلي للمخضرمين كالأصمعي الذي لحظ أن

---

(1) انظر شرح أشعار الهذليين للسكري.

شعر الجاهلية أقوى من شعر الإسلام في شعر المخضرمين، وعلل ذلك بأن الشعر نزاع إلى الشر، يقوي وينشط في بيئة الشر، ويذبل ويضمحل في بيئة الخير، وضرب لذلك مثلاً بحسان بن ثابت، حيث يقول الأصمعي (الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضعف، هذا حسان فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره) [1] وإذن فالأصمعي يقرر مذهبا ورأياً في الفارق بين شعر الجاهلية وشعر الإسلام عامة لدى المخضرمين، فكان يهمه ويهم مثله أن يميز الشعر الجاهلي من الإسلامي في حديثه عن المخضرمين وشعرهم ولو للاستشهاد على رأيه، ولكننا لا نجد ذلك التمييز في الأصمعيات، ولا في غيرها من الكتب التي عنيت بجمع شعر المخضرمين، ولم يكن ذلك الخلط في اغلب الظن عفوا، وإنما دعت إليه دواع كثيرة أحاطت بشعر هذه الحقبة التي سبقت التاريخ العربي المكتوب وهو الذي بدأ بجهود التدوين في أواخر العصر الأموي، ومن أهم هذه الدواعي إلى الخلط بالقياس إلى شعر المخضرمين، أنه لم يكن في مدتهم تاريخ أدبي مكتوب، ولم تحدد الروايات الشفوية على وجه دقيق، أي شعرهم قيل في الجاهلية، وأيّه قيل في الإسلام.

ونخرج من هذا كله بأن تعبير الشاعر المخضرم، كان ينبغي ألا يطلق إلا على الشاعر الذي له شعر في الجاهلية، وشعر في الإسلام، حتى تتحقق الخضرمة في شعره، فإن الخضرمة في الدين غير الخضرمة في الشعر، ومثال ذلك لبيد بن ربيعة العامري لاشك في انه مخضرم في الدين، بمعنى انه عاش في الجاهلية جاهلياً وعاش في الإسلام مسلماً، وهو من أكبر شعراء العرب، ومن أصحاب المعلقات، ولكن شعره كله كان في الجاهلية، ولم يقل شعراً في الإسلام، فشعره جاهلي فقط، ولا يصدق عليه انه مخضرم مع أن لبيداً نفسه مخضرم، وكذلك الشعراء الشبان في الإسلام الذين كانوا أسن قليلاً من النعمان بن بشير

(1) الشعر والشعراء لابن رشيق 1- 305.

الشاعر الأنصاري، الذي كان أول مولود للأنصار بعد الهجرة [1]، هؤلاء يصدق عليهم أنهم مخضرمون لأنهم أدركوا الجاهلية والإسلام، ولكن شعرهم كله كان في الإسلام، فشعرهم كله إسلامي، ولا يصدق عليه انه مخضرم لأنهم لو يقولوا شعراً في الجاهلية.

ولكن العلماء القدماء رغم قرب زمنهم من المخضرمين لم يكن من المستطاع لهم تحديد الشعر الذي قيل في الجاهلية، والشعر الذي قيل في الإسلام من شعر المخضرمين إلا ما كان منه مرتبطاً بمناسبة، كشعر شعراء الرسول، حسان وكعبدالله بن رواحة، الذي قالوه دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، فإنه معلوم انه قيل في الإسلام، وكقصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) التي ألقاها بين يدي النبي ﷺ وكقصيدة أبي ذؤيب الهذلي (أمن المنون وريبها تتوجع؟) التي قالها بعد فقد أبنائه الذين ماتوا في فتح المسلمين لمصر، أما ما عدا هذا الشعر المرتبط بمناسبة جاهلية أو إسلامية، فلم يكن مستطاعاً لهم تحديد نسبته إلى الجاهلية أو الإسلام وفي اغلب الظن أنهم لذلك لم يركزوا حديثهم على خضرمة الشعر نفسه، واكتفوا بالحديث عن الخضرمة الدينية، وقد يقال: إن الشعر لا يمكن أن تتصور فيه الخضرمة، فهو إما قيل في الجاهلية وإما قيل في الإسلام، فكيف يتصور شعر معين عاصر الجاهلية والإسلام ؟ والجواب أن هذا غير منازع فيه، ليس هذا ما نعنيه وإنما نعني أنه حينما يكون للشاعر شعر قاله في الجاهلية وشعر قاله في الإسلام، يمكن الموازنة بين الشعرين، على وجه هو أقرب ما يكون إلى الدقة في الموازنة، من حيث إن قائلها شخص واحد، بخلاف ما لو وازنا بين شعر قاله شاعر في الإسلام، وشعر قاله شاعر آخر في الجاهلية، فقد نجانب العدالة والدقة في الموازنة، بأن يكون أحد الشاعرين أقوى شاعرية من الآخر، فإذا كان هذا الشاعر القوي إسلامياً، فحكمنا بأن الشعر

---

(1) تلقيح فهوم الأثر في عيون التاريخ والسير لابن الجوزي ص 155.

الإسلامي أقوى، نكون قد ظلمنا الجاهلية، حيث اخترنا لها شاعراً ضعيفاً في شاعريته، ووضعناه في مجال الموازنة أمام شاعر أقوى منه، ولكن العلماء القدماء حين لم يتح لهم الوجه الدقيق الذي يستطيعون تعميمه على كل الشعراء المخضرمين، اضطروا إلى التجاوز وإلى غض النظر عن كون الشاعر قال شعرا في العصرين، أو في عصر واحد سواء في الجاهلية وحدها، أو في الإسلام وحده، وحينئذ سيختلف منهج الموازنة، فبعد أن كان يمكن أن تكون في شعر الشاعر نفسه، كما وازن الأصمعي بين شعر حسان الجاهلي وشعره الإسلامي، تصبح في جملة الشعر الإسلامي للمخضرمين، موازناً بشعرهم الجاهلي في جملته.

ومهما يكن من شيء فإن هذه البحوث المتعلقة بالخضرمة، وبالصحبة للنبي ﷺ كانت في معظمها بعيدة بعدا شديداً أو يسيراً على الواقع، فهي إما معتمدة على البحوث اللغوية كالخضرمة، وإما على العاطفة الدينية كالصحبة للنبيﷺ، وفي كل الأحوال كان اعتمادها على الجانب النظري أشد من اعتمادها على التطبيق العملي، واعتمادها على العاطفة أكثر من اعتمادها على القواعد العلمية وتعدد آراء علماء الحديث، وكثره اختلافهم في تحديد الصحبة للنبي دليل واضح على ان كل فريق أو أصحاب رأي كان يعتمد على عاطفته وميله الشخصي، أما لو اتجهوا إلى تحديد أسس عقلية أو علمية، فلن يكون هناك مجال واسع للخلاف.

ومثال الفجوة الكبيرة بين التعريفات النظرية لصحبة النبي ﷺ والجانب التطبيقي أنهم يعدون النعمان بن بشير من أصحاب النبي مع انه من المؤكد أنه كان طفلاً لم يبلغ العاشرة عند وفاة النبيﷺ، لأنه ولد بعد هجرة النبيﷺ إلى المدينة، ومعنى ذلك أنه حتى وفاة النبيﷺ لم يكن قد بلغ الحلم لأن بلوغ الحلم عادة يكون بعد العاشرة على تفاوت بين البالغين، والطفل الذي لم يبلغ الحلم لا يوصف بأنه قد صاحب النبيﷺ، بل إن علماء الحديث يعلمون انه حين تلتزم الدقة العلمية فلا يوصف من لم يبلغ الحلم بأنه مسلم ولا بأي شيء على وجه

التكليف[1]، ولكنهم مع ذلك يعدونه من أصحاب النبيﷺ، بل من المشهورين من أصحاب النبيﷺ[2] مع أنهم لو عرضوا هذا الوصف على أي تعريف مما عرفوا به صحبة النبيﷺ، أو اشترطوه لاستحقاق وصف الصحبة فلن يستقيم لهم، ولكنه من الواضح أن مجرد رؤية النعمان للنبيﷺ رغم انه كان طفلاً صغيراً أكسبته شرفا جعل علماء الحديث يتجاوزون حتى عن شروطهم التي اشترطوها لتحقيق الصحبة، والنعمان قد ثبت أنه وهو طفل رأى النبيﷺ، حين أراد أبوه بشير بن سعد الأنصاري أن يخصه دون سائر بنيه ببستان إرضاء لأم النعمان، وأبت أم النعمان إلا أن يشهد النبيﷺ على هذه الوصية، أو هذه المحاباة فذهب بشير بطفله النعمان إلى النبيﷺ وطلب منه أن يشهد على ذلك، فأبى النبي قائلاً: لا أشهد، أولاً أشهد على ظلم في رواية أخرى[3] بل هناك أمثلة أشد توضيحاً لهذه الفجوة التي نتحدث عنها، ومن هذه الأمثلة أبو ذؤيب الهذلي الشاعر، فالروايات جميعا تتفق على انه لم ير النبي ﷺ، وإنما حضر جنازة النبي والصلاة عليه، ثم دفنه عليه السلام، ومع ذلك يعدونه من أصحاب النبيﷺ ومن الذين رأوه[4] ولعلهم يعنون أنه رأى جنازة النبي صلوات الله عليه [5].

ومن يقرأ في شعر المخضرمين متصفحاً ما نشر في كتب الأدب والتاريخ، يجد جمهور الشعراء يصدرون في جوانب أشعارهم عن قِيمَ الإسلام الروحية التي آمنوا بها، وخالطت شغاف قلوبهم، ولشعراء (المدينة) القِدْحُ المُعَلّى في هذا الميدان، كالشاعر عبدالله بن رواحة الذي كان دائم الاستمداد من القرآن

---

(1) لأن التكليف في التشريع يبدأ من البلوغ.

(2) تلقيح فهوم أهل الاثر لابن الجوزي 155.

(3) انظر صحيح البخاري.

(4) تلقيح مفهوم أهل الأرض 214.

(5) الشعراء المخضرمون، ص18.

الكريم، يستلهمه في هجائه للمشركين، وفي كل ما نظم من أشعار، على شاكلة قوله :

شَهِدَتْ بأنّ وَعْدَ الله حَقٌّ　　　وأنّ النارَ مَثْوى الكافرينا

وكان بجانب هؤلاء شعراء آخرون لم يبلغوا الشهرة، وقد رويت لهم أشعار تَنمُّ عن مدى إيمانهم العميق. كقول أبي صِرْمَة بن أبي أنس الأنصاريٍّ في قصيدة رائعة :

وَنَعْلَمُ أنّ اللهَ لا شَيءَ غَيْرُهُ　　　وَأَنَّ كتابَ اللهِ أصْبَحَ هاديا

وكقول أبي الدَّرْداء:

يُريدُ المَرْءُ أنْ يُؤتَى مُناهُ　　　وَيَأبى اللهُ إلاّ ما ارادا

يَقُولُ المَرْءُ فائِدَتي وَمَالي　　　وَتَقوَى الله أفْضَلُ ما اسْتَفَادا

ومن الشعراء الذين لم يبلغوا مبلغهم من الشهرة عبدة بن الطبيب[1] من شعراء الفتوح، فقد روى له صاحب المفضليات قصيدة فيها الكثير من معاني القرآن، كالتقوى، والبر بالوالدين، والحذر من النَمَّام الذي يزرع الضغائن بين النسا، مستلهماً في ذلك كله آي الذكر الحكيم، يقول:

أوصِيكُمُ بِتُقَى الإلهِ فإنَّهُ　　　يُعطي الرَّغائِبَ مَنْ يَشاءُ ويَمْنَعُ

---

(1) شاعر مجيد ليس بالمُكثر، وهو مخضرم أدرك الإسلام فأسلم. قال الأصمعي : أرثى بين قالته العرب قول عبدة بن الطبيب:

وما كان قيسٌ هُلكُهُ هُلك واحد　　　ولكنّه بنيانُ قوم تَهدَمّا

وبــبرٌ والــدكُمْ وَطاعــة أمْــرِهِ إنَّ الأبــرَّ مِــنَ البَــنينِ الأطــوَعُ

وأعْصُو الذي يُزْجِي النمائِم بينكمُ متنصِــحاً ذاكَ السِّــمامُ المُنْقَــعُ [1]

يُزجِــي عَقارِبَــهُ لِيَبْعَــث بيــنكُم حَرْبــاً كمــا بَعَــثَ العُــروقَ الأخْــدَعُ[2]

وتحوَّل شعراء قريش منذ فتح (مكة)، ودخلوا في دين الله يُكفِّرون عما قدمت ألسنتهم بأشعار يعتذرون فيها لرسول الله ﷺ كقول عبدالله بن الزِّبعْرَي:

يــا رســول المليــك إنَّ لِســاني راتِــقٌ مــا فَتَقْــتُ إذْ أنــا بُــور[3]

إذ أُجــاري الشــيطانَ في سَنَنِ الغَــ ــيِّ وَمَــنْ مــالَ مَيلَــهُ مثبُــور[4]

آمــن اللحــمُ والعظــامُ بمــا قُلْــتَ فنفســي الفــداءُ وأنــت النــذيرُ

وحتى إذا انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أخذوا يرثونه ويتفجعون عليه، على شاكلة أبي سفيان بن الحارث:

أَرقــتُ فبــات ليلــي لا يَــزولُ ولَيْــلُ أخــي المُصــيبة فيــه طــولُ

وأســعدني البُكــاءُ وذاك ممّــا أُصــيب المُســلمونَ بــه قليــلُ

---

(1) يزجي : يدفع . السمام : السم : المنقع : القاتل.

(2) الأخدع : عرق في العنق إذا ضرب أجابته العروق.

(3) أي اني معتذر إليك عما صدر عني، فأصلح بذا ما أفسدت من ذلك.

(4) سنن: طرق: مثبور : هالك.

لقد عَظُمتْ مصيبتنا وجلّتْ ... عشيّةَ قيل: قد قُبض الرّسولُ

نبيٌّ كان يَجلو الشكَّ عنّا ... بما يُوحى إليه وما يقُولُ

وأَضحَت أَرضنا مما عراها ... تَكادُ بنا جوانبُها تَميلُ

فقَدْنا الوحي والتنزيلَ فينا ... يروحُ به ويغدُو جبرئيلُ

وذاكَ أَحقُّ ما ذهبت عليهِ ... نفُوسُ النَّاسِ أو كادت تسيلُ

إضافة إلى شعراء المدينتين الكبيرتين، شعراء نجد والبوادي، وفيهم الكثيرون يقبسون من أضواء الإسلام، كقول الحصين بن الحُمام زعيم بني مرة الذبيانيين:

ويومٍ تسعّرُ فيه الحروبُ ... لَبِستُ إلى الروع سِربالها[1]

فلمْ يبقَ من ذاك إلاّ التُّقى ... ونفسٌ تُعالجُ آجالها

أمورٌ من الله فوق السماء ... مقاديرُ تنزلُ أنزالها[2]

أعوذُ بربي من المخزيا ... ت يوم ترى النفسُ أعمالها

وخفَّ الموازين بالكافرين ... وزلزلت الأرضُ زلزالها

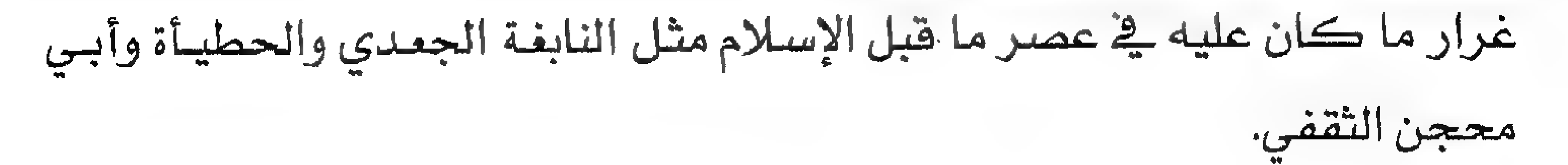
(1) تسعر: تتقد. السربال: الدرع. راجع الاغاني 14/ 14.

(2) أنزالها: منازلها.

موضوعات الشعر

أشار الأصمعي قائلاً: (هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلماء جاء الإسلام سقط شعره) وأشار ابن خلدون إلى أن الشعر توقف أولا الإسلام بما شغل العرب من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن الكريم، والملاحظ أن هؤلاء الشعراء قد واجهوا منذ البداية عبء الاتصال المباشر بالقيم الجديدة وما تحمله من مظاهر التغير في الأخلاق والسلوك والقيم الاجتماعية والروحية كما كان عليهم ان يشاركوا مشاركة مباشرة مستمرة في المعركة من جانبها الكلامي وأن هذا الضعف الذي لوحظ على الشعر الإسلامي كان قد بدأ قبل الإسلام فقد انقضى عصر الفحول ولم يبق إلا الاعشى الذي مات قبل أن يعلن إسلامه ولبيد بن ربيعة العامري الذي بلغ الستين من عمره ولم يبق عند ظهور الإسلام إلا شعراء مقلون بعضهم مجيد في قصائد مفردة ولكنهم لا يبلغون مبلغ هؤلاء الفحول ولم يجدوا أسلوباً جديداً يتلاءم مع القيم والقضايا الجديدة التي جاء بها الاسلام كما ان هناك شعراً موضوعاً قد حمل على شعراء هذه الفترة ولكنه لا يصلح دليلاً على نفي ضعف الشعر عند هؤلاء الشعراء لأن هذا الضعف يوجد في أشعارهم التي لا يختلف الباحثون في صحة نسبتها اليهم.

وترجع أسباب ذلك إلى تحريم الشعراء للكتابة في الخمر والفحش والمدح التكسبي فلا عصبية قبلية ولا منافرات ولم يعش من شعر صدر الإسلام إلا الجيد منه والحسن والبعيد عن المحرم وحل حفظ القرآن محل حفظ الشعر فمن الشعراء من افلح عن كتابة الشعر وانصرف إلى العبادة مثل لبيد بن ربيعة العامري ومن الشعراء من اضطهد النبي ﷺ بشعره وهجاء ولم يصلنا سوى القليل من شعرهم مثل أبي سفيان بن الحارث وكعب بن الاشرف وفئة ثالثة ناصرته ﷺ وكانت ترد على اعدائه بالمثل لتثبيت موقفه مثل حسان بن ثابت وكعب ابن زهير وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وفئة رابعة اخيرة بقيت تكتب الشعر على



غرار ما كان عليه في عصر ما قبل الإسلام مثل النابغة الجعدي والحطيأة وأبي محجن الثقفي.

أما المديح فتحول من مديح تكسبي إلى مديح ناتج عن احترام الشاعر للمدوح واعجابه به إذ انطبع المديح بطابع سياسي وديني لأنه كان يقال في مدح الرسولﷺ.

ومن هنا نستطيع أن نرى أن الشعر في موضوعاته في هذا العصر يمكننا تقسيمه إلى أربعة أقسام:

1. الشعر الذي كان يتابع الغزوات والسرايا ويسجل أحداثها حيث كان الشعراء ينظمون أناشيد حماسية يتغنون بها بأنتصاراتهم ويغرضون شجاعتهم وخير مثال ما قيل في معركة القادسية وما كتبه الشاعران ابو محجن الثقفي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي.
2. شعر الاهاجي الذي كان يدور بين شعراء المسلمين في يثرب وشعراء المشركين في مكة ويمكن أن نضيف إليه الشعر الذي قاله بعض شعراء المسلمين في هجاء بعض القبائل التي كانت لها مواقف ضد الاسلام والمسلمين.
3. شعر الرثاء الذي قيل في رثاء صرعى الغزوات والسرايا والمعارك سواء أكانوا من شهداء المسلمين أو من هالكي المشركين وتسجيل المواقف التاريخية لتخليدهم.
4. الشعر الذي قيل في مدح أبطال المسلمين وما قدموه من بلاء في هذه الغزوات والسرايا للسبب وارد الذكر في النقطة الثالثة نفسه.

يضاف إلى ذلك ما كتب من شعر في حروب الردة وشعر الفتوح الإسلامية وشعر فتنة عثمان وشعر الحنين إلى الديار والاهل وشعر الشكوى الذي أبداه الجنود من الولاة والعمال، والملاحظ أن هذه الأشعار على نسيج الأدب الشعبي فهي لا تبلغ مبلغ الأشعار المنسوبة في العصر نفسه إلى شعراء مجودين، وهناك

ظاهرة واضحة هي عدم نسبة الاشعار إلى قائل بحد ذاته أو تنازع عدة شعراء في قطعة أو نص، ويسود الشعر الايجاز فهو لمحة سريعة وموقف خاطف وزاد القصاص ورواة الاخبار الشيء الكثير إلى قصص أبطال الفتوح وجهادهم في حروب القدس والروم. ومن الاستشهاد بشعر هذا العصر ما قاله قيس بن بحر الاشجعي مادحاً الرسول ﷺ:

معانا يمدح القدس ينكى عدوه رسولا من الرحمن حقا بمعلم

رسولا من الرحمن يتلو كتابه فلما أنار الحق لم يتلعثم

أرى أمره يزداد في كل موطن علوا لمرحمه الله محكم

وقال حسان بن ثابت في هجاء ابي سفيان بن الحارث

وإن سنام المجد في آل هاشم بنو نبت مخزوم و والدك العبد

ومن ولدت أبناء زهرة منهم كرام ولم يقرب عجائزك المجد

وأنت هجين نيط في آل هاشم كما نيط خلق الراكب القدح الفرد

وقال كعب بن مالك راثيا الحمزة عم الرسول محمد ﷺ:

بكت عيني وحق لها بكاها وما يغني البكاء ولا العويل

على أسد الاله غداة قالوا أ حمزة ذاكم الرجل القتيل

أصيب المسلمون به جميعاً هناك وقد أصيب به الرسول

وقال عبد الله بن رواحة في مؤتة مرتجزاً:

أقسمت يا نفس لتنزلنه لتنزلن أو لتكرهنه

أن أجلب الناس وشدوا الرنه مالي أراك تكرهين الجنه

حسان بن ثابت

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي من سادة قومه واشرافهم، وكانت أمه خزرجية أيضا، شاعر من المعمرين يقال أنه عاش في الجاهلية ستين عاماً ومثلها في الإسلام، وهو شاعر مخضرم أدرك عصر ما قبل الإسلام وعصر صدر الإسلام. قيل أنه توفى قبل الاربعين وقيل بل سنة خمسين وقيل بل سنة اربع وخمسين للهجرة، له صلة قرابة ورحم مع الرسول محمد ﷺ كونه من بني النجار أخواله ﷺ. ومن اخباره قبل الإسلام أنه كان يتردد على بلاط الغساسنة والمناذرة وكان لسان قومه في حروبهم مع الاوس وقد اصطدم مع شاعريها قيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسلت، وأهتم به النابغة في سوق عكاظ لكنه قدم عليه الاعشى. دخل حسان الإسلام بعد الهجرة. أنبرى لهجاء شعراء قريش الذين أخذوا يهجون الرسول محمد ﷺ وصحبه بحث منه ﷺ وكان يدعو له (اللهم أيده بروح القدس)، واستمع ﷺ إلى بعض هجائه فقال: (لهذا أشد عليهم من وقع النبال) وفي حديث له ﷺ (أمرت عبد الله بن رواحة فقال أحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال احسن وأمرت حسان بن ثابت فشفى واستشفى) وكانت طريقته في الهجاء أنه يهجو قريش بالايام التي هزموا بها ويعيرهم بالمثالب والأنساب، أهداه الرسول محمد ﷺ بستاناً وأهداه سيرين أخت زوجته مارية القبطية، لقب شاعر الإسلام، وشاعر الرسول وخلف ديواناً ضخماً دخله كثير من الشعر المصنوع.

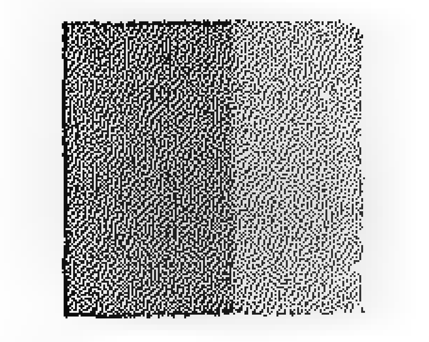
قال من قصيدة يتوعد فيها قريشاً بنصرة قومه لرسول الله ﷺ، ويهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وذلك قبل فتح مكة:

عدمنا خيلنا إن لم تروها

تُثير النَّقعَ، موعدُها كَداء(1)

---

(1) النقع: الغبار، كداء: الثنية العليا بمكة مما يلي المقابر وهو المعلى . وفي الحديث أنه دخل مكة عام الفتح من كداء، يهدد قريشاً ويتوعدهم بحرب حامية، وقوله (عدمنا خيلنا) : هو كقولك (لا حملتني رجلي ان لم تسر اليك، ولا نفعني مال ان لم أنفقه عليك) ومعناه الدعاء.



يُبـــارينَ الأعنَّـــةَ مُصـــعداتٍ

علـى أكتافهـا الأَسَـلُ الظمـاء[1]

تظـــلُّ جيادُنـــا مُتمطّـــراتٍ

تُلَطِّمهُـــنَّ بـــالخُمرِ النِسّـــاء[2]

فإمّـــا تُعرضـــوا عنّـــا اعتمرْنـــا

وكـان الفـتحُ وانكَشـفَ الغِطـاء[3]

وإلاّ فاصـــبروا لجـــلاد يـــومٍ

يُعـــزُّ اللّه فيـــه مَـــن يشـــاء[4]

و(جبريـــلٌ) أمـــينُ اللّه فينـــا

---

(1) يبارين الأعنة: يجارين الأعنة في اللين وسرعة الانقياد، مصعدات: ذاهبات صعدا، وفي رواية : (يبارين الأسنة مصغيات) ومباراتها الأسنة أن يضجع الفارس رمحه فيركض الفرس ليسبق السنان، ومصغيات : مميلات رؤوسها . والأسل الظماء: الرماح المتعطشة الى الدماء.

(2) متمطرات: مسرعات يسبق بعضها بعضاً، وتلطمهم مزيد لطمه يلطمة لطماً: ضرب خده بكفه مفتوحة، والخمر: جمع خمار وهو ما تغطى به المرأة رأسها، يقول: تسرع جيادنا فتتبعث النساء يضربن خدودها بخمورهم لتردها.

(3) اعتمرنا : أدينا العمرة، وهي في الشرع زيارة البيت الحرام بالشروط المخصوصة للمعرفة . والفرق بينها وبين الحج أن العمرة تكون للإنسان في السنة كلها،والحج في وقت واحد في السنة= =ولا يكون الا مع الوقوف بعرفة يوم عرفة، وهي مأخوذة من الاعتمار وهو الزيارة، المعنى: ان لم تتعرضوا لنا حين تغزوكم خيلنا، واخيلنم لنا الطريق قصدنا الى البيت الحرام وزرناه وتم الفتح وانكشف الغطاء عما وعد الله به النبي ﷺمن فتح مكة.

(4) الجلاد: التضارب بالسيوف في القتال.

وقـــال اللهُ قـــد أرْســـلتُ عبـــداً ... وروحُ القـــدسِ لـــيس لـــه كِفـــاء[1]

يقـــولُ الحـــقَّ إن نفـــعَ الـــبلاء[2] ... شـــهدتُ بـــه، فقومُـــوا صـــدّقوهُ

فقلـــتُمْ: لا نقُـــومُ ولا نشـــاءُ[3] ... وقـــال اللهُ قـــد يسَّـــرتُ جُنـــداً

هـــم (الأنصـــارُ) عرضـــتها اللقـــاء[4] ... لنـــا في كـــلِّ يـــومٍ مـــن (مَعَـــدٍّ)

ســـبابٌ أو قِتـــالٌ أوْ هجـــاء[5] ... فـــنحكمُ بـــالقوافي مـــنْ هجانـــا

ونضـــربُ حـــين تخـــتلطُ الـــدماء[6] ... ألا، أبلـــغ (أبـــا ســـفيان) عنّـــي

---

(1) روح القدس: جبريل، والقدس: الطهارة، والكفاء، النظير.

(2) عبدا: يعني سيدنا رسول الله ﷺ . والبلاء: الامتحان والاختبار، يكون في الخير وفي الشر.

(3) شهدت به: آمنت وصدقت.

(4) الأنصار: أنصار النبي ﷺ ، غلبت عليهم الصفة فجرؤت مجرى الأسماء والعرضة: هنا القوة على القتال، أي همتها ودينها لقاء القروم.

(5) لنا: يعني معشر الأنصار، معد: يريد قريشاً لأنهم عدنانيون.

(6) نحكم: نمنع . والقافية : القصيدة.

بــأنَّ ســيوفنا تركتــكَ عبــداً
فأنـــتَ مُجـــوَّفٌ نَخِـــبٌ هـــواء[1]

هجـوتَ (مُحمـداً)، فأجبتُ عنـه
وعبــدُ الــدّارِ ســادتُها الإمــاء[2]

أتهجـــوهُ ولســـتَ لـــه بكُــفءٍ؟
وعنــــد اللهِ في ذاكَ الجـــزاء[3]

هجـــوتَ مُباركــاً بـــراً حنيفــاً
فشـــرُّكُما لخيركُمـــا الفــداء[4]

---

(1) فأنت مجوف: التفات عن الغيبة الى الخطاب: وهو اسلوب بلاغي كثير في كلام العرب. والمجوف: الجبان الذي لا قلب له كأنه خالي الجوف من الفؤاد ومثله النخب والهواء.

(2) بأن سيوفنا: متصل بقوله (ابلغ)، وادخل الباء عليه لأنهم ضمن معنى أخبر، تركتك عبدا: أي ذليلاً . وعبد الدار: بطن من قريش، والإماء الجواري.

(3) الجزاء: المكافأة على الشيء ان خيراً وان شراً، ويروي أن النبيﷺ حين سمع منه هذا البيت، قال: " جزاؤك على الله الجنة يا حسان" .

(4) أتهجوه : الاستفهام فيه انكاري، أي ما كان ينبغي ان تهجوه ولست من اكفائه ونظرائه، وقوله فشركما لخيركما الفداء: جار على أسلوب الكلام المنصف، وهو ان ينصف المتكلم من نفسه فيضطر السامع الى الاذعان، ومنه قوله تعالى﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾،= =فمعلوم ان المتكلم ومن معه على هدى وان المخاطبين في ضلال، وإنما ابهم الأمر بين الفريقين ليكون ادعى للمخاطب الى الاذعان للحق وترك العناد، اذ يرى المتكلم ساوى بينه وبين نفسه.

أمـــين اللهِ شـــيمتُهُ الوفـــاء[1]

فمـــن يهجـــو رســـولَ اللهِ مـــنكم

ويمدحـــهُ وينصـــرهُ ســـواء[2]

فـــإن أبـــي ووالـــدهُ وعِرضـــي

لعِـــرِض (مُحمّـــد) مـــنكم وقـــاء[3]

لســـاني صـــارمٌ لا عيـــب فيـــه

وبحـــري لا تُكـــدِّرهُ الـــدّلاء[4] [5]

الشرح والتحليل

يتحدث الشاعر عن وسائل القتال مهددا ، الاعداء من قريش فيقول: فقدنا الخيول أن لم تسرع مندفعة بتأثير الغبار حتى تصل إلى (كداء) وتدخل مكة وتعيد الحق من المغتصبين وهذه الخيول تسابق اطراف الرماح التي وضعت على اكتافها متعطشة إلى دماء الاعداء وتواصل سرعتها حتى تقتحم ديار قريش

---

(1) الحنيف: الذي يتحنف عن الباطل، أي يميل عنه إلى الحق.

(2) يقول: ما دام الأمر كذلك، فلستم هناك .هو من العزة والمنعة والوجاهة، بحيث لا ينال منه ولا يرتقي اليه، وأنتم من هوان الشأن بحيث لا يؤبه بكم، فمدحكم لرسول الله ونصرتكم له وهجاؤكم إياه: كل أولئك سواء لا يضره هجاؤهم ولا ينفعه مدحكم ونصركم.

(3) العرض: النفس.

(4) شبه لسانه بالسيف الصارم أي القاطع يقطع ألسنة الأعداء، وشبه شعره بالبحر الصافي البعيد الغور الكثير الماء فلا تكدره الدلاء التي يستقي بها كما لا ينال من شعره نقد ناقد ولا طعن معاند.

(5) الأساس في تاريخ الأدب العربي ص153.

فتفزع النساء فيخرجن كاشفات الرؤوس يحاولن رد الخيول بخمارهن. نحن قادمون وأمامكم الخيار بين شيئين فأما أن تفسحوا لنا المجال وتخلوا الطريق فتدخل مكة بسلام ونؤدي العمرة والا فاصبروا واثبتوا لحرب لنا النصر فيها بعون الله تعالى. ثم يتحدث الشاعر عن عناصر القوة المعنوية فيقول لقد هيأ الله لنصرة الإسلام الانصار الذين وهبوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله وهم يواجهون من اعدائهم القرشيين القتال والسب والهجاء. إن الانصار ينتصرون ويردون على اعدائهم بهجاء أقوى وبقتال عنيف يسيل الدماء ويكثر القتلى، وعندما أرسل الله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق للناس كافة آمن الانصار به وكفرت قريش وكابرت وعاندت الانصار ولم تؤمن، أما الانصار فإن الله يؤيدهم وينصرهم برسوله ﷺ وبجبريل (ع) أمين الوحي الذين اختاروا الله ليكون لهم قوة ضاربة ليس لها نظير.

- قوله (عدمنا الخيل) دعاء يوحي بالتصميم على الكفاح.
- قوله (تثير النقع) كناية عن كثرة الخيل وسرعتها.
- قوله (الاسل الظماء) أستعارة مكنية صورت الرماح حيواناً مفترساً.
- قوله (تلطمهن بالخمر النساء) كناية عن عنف الزحف.

تبدو الأفكار في القصيدة مرتبة والعاطفة صادقة وان صور الشاعر منتزعة من البيئة وظهر أثار الثقافة الإسلامية واضحاً في اقواله: (يغني الله فيه من يشاء) و(جبريل أمين الله) و(روح القدس).

كعب بن زهير

هو كعب بن زهير بن ابي سلمى، أبوه زهير من فحول الشعراء في عصر ما قبل الإسلام، من قبيلة مزينة في أسرة فيها أكثر من شاعر تلقن كعب الشعر عن ابيه مثله مثل اخيه بجير والحطيأة، وكان زهير يحفظهم الشعر ومنه شعره ويقولون عن كعب أنه كان يخرج به أبوه إلى الصحراء فيلقى عليه بيتاً أو شطراً ويطلب أن يجيزه تمرينا ودربه، إلا أن كعباً كان في عصر ما قبل الإسلام شاعراً معروفاً أكثر من الحطيأة وسبقه أخوه بجير إلى الإسلام فهجاه كعب ثم هجا رسول الله ﷺ فسمع ﷺ شعره وتوعده فأهدر دمه وكتب إليه بجير، فقدم إلى المدينة وبدأ بأبي بكر (رض) ودخل المسجد والقي قصيدته اللامية فكساه الرسول محمد ﷺ بردته فسميت قصيدته بـ (البردة)، ثم حسن إسلامه وأخذ يصدر شعره عن مواعظ وحكم باهتداء من القرآن الكريم وظهرت المعاني الإسلامية في شعره من أن الله هو رازق لعباده وغير ذلك وله ديوان شعر مشروح يضم ما قاله من شعر في عصر ما قبل الإسلام وما بعد إسلامه، ووضح أثر الإسلام في ذلك الهجاء الذي يدعو إلى الصفح الجميل والابتعاد عن التوعد والتهديد.

لم يحدثنا الرواة كثيراً عن حياة كعب، فنحن لا نكاد نعلم عنها ما يستحق الذكر إلا خبر إسلامه، واعتذاره إلى النبي بقصيدته الشهيرة، وذلك أن بُجيراً أخا كعب وفد الى محمد ﷺ في أواخر السنة السابعة للهجرة فأسلم، فاستاء كعب من أخيه، وقال فيه أبياتاً يؤنبه ويحثه على الارتداد.

وبلغت أبياته النبي ﷺ فأهدر دمه، ثم شهد بجير فتح مكة وانتصار محمد ﷺ، فأرسل إلى أخيه كعب يحذره ويخبره بإنخذال قريش، وفرار عبدالله بن الزبعري، وقال له: " قد أوعد الرسول رجالاً بمكة فقتلهم، وهو والله قاتلك أو

تأتيه فتسلم"، فاستطير كعب ولفظته الأرض[1] ثم قدم المدينة متنكراً، واستجار بأبي بكر، فأتى به المسجد وهو متلثم بعمامته، وقال: " يا رسول الله رجل يبايعك على الإسلام"، فبسط النبي ﷺ يده فحسر كعب عن وجهه وقال: " هذا مقام العائذ بك يا رسول لله، أنا كعب بن زهير، فتهجمته الأنصار وغلظت عليه، ولانت له قريش وأحبوا إسلامه وإيمانه، فأمنه محمد ﷺ فأنشده كعب قصيدته (بانت سعاد) فسر بها الرسول . ولما وصل الى قوله:

إنّ الرّسولَ لَسيفٌ يُستَضاءُ بِه، مُهنّدٌ من سيوفِ اللهِ، مَسلولُ

خلع عليه محمد ﷺ بردته[2] وقد بذل معاوية لكعب فيها عشرة آلاف درهم فلم يبعها، فلما مات اشتراها معاوية من ورثته بعشرين ألف درهم وقيل بثلاثين، وتوارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون، ويقال إنها وصلت إلى سلاطين آل عثمان، وهي البردة التي يلبسها الخلفاء في العيدين.

ومدح كعب في قصيدته المهاجرين من قريش، وعرّض بالأنصار لغلظتهم عليه، فأنكر المهاجرون قوله في الأنصار، وقالوا: " لم تمدحنا إذ هجوتهم"، ولم يقبلوا ذلك حتى قال فيهم:

مَنْ سرهُ كرمُ الحياةِ، فلا يزل في مقنبٍ من صالحي الأنصارِ[3]

وكانت وفاة كعب في خلافة معاوية، وجعل بعضهم[4] موته في السنة الرابعة والعشرين للهجرة، مع أنهم ذكروا رواية البردة، فكان عليهم أن يتنبهوا

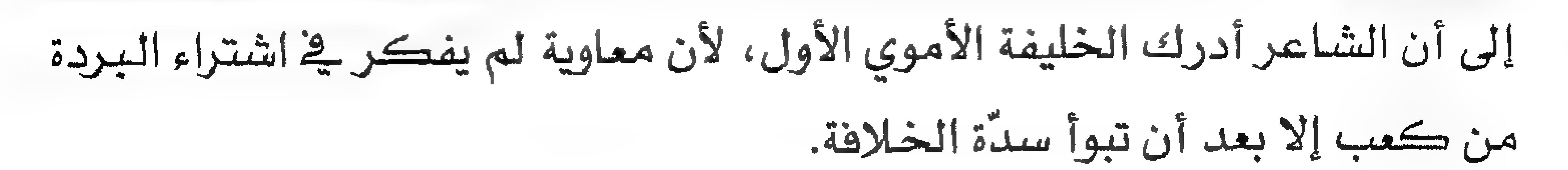
---

(1) لفظته الأرض: أي انه صار له مأوى فيها.

(2) البردة: الثوب المخطط.

(3) المقنب : جماعة الخيل الجياد ما بين الثلاثين الى الثلثمائة، وأراد بالمقنب: جماعة الأنصار، يقول: من أراد كرم الحياة فليكن في جماعة من صالحي الأنصار.

(4) جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية.



إلى أن الشاعر أدرك الخليفة الأموي الأول، لأن معاوية لم يفكر في اشتراء البردة من كعب إلا بعد أن تبوأ سدّة الخلافة.

آثاره

أبيات متفرقة في كتب الأدب، أشهرها لاميته (بانت سعاد) وهي معدودة من المشوبات، وقد شرحها كثيرون، وشطّرها غير واحد.

1. **بانت سعاد فقلبي اليوم متبول — متيم أثرها لم يفد مكبول**
2. **وما سعاد غداة البين إذ رحلوا — إلا أغن غضيض الطرف مكحول**
3. **كل ابن انثى وأن طالت سلامته — يوما على آلة حدباء محمول**
4. **نبئت أن رسول الله أوعدني — والعفو عند رسول الله مأمول**
5. **مهلا هداك الذي أعطاك نافلة — قرآن فيه مواعيظ وتفصيل**
6. **لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم — أذنب وأن كثرت في الاقاويل**
7. **إن الرسول لنور يستضاء به — مهند من سيوف الله مسلول**
8. **في عصبة من قريش قال قائلهم — ببطن مكة لما أسلموا زولوا**
9. **زالوا فما زال أنكاس ولا — عند اللقاء ولا ميل معازيل**
10. **لا يقع الطعن إلا في نحورهم — وما لهم عن حياض الموت تهليل**

معاني المفردات

1. بانت: فارقت، متبول: سقيم، متيم: مدلل بالحب، لم يفد: لم يجد من يفديه، مكبول: مقيد.
2. البين: الفراق، أغن: صفة الغزال الذي صوته غنة، غضيض الطرف: فاتر النظر منكسر الاجفان.
3. حدباء: مؤنث أحدب وهو الذي تقوس ظهره، آلة حدباء: التابوت، النعش.

4. نبئت: أخبرت، أوعدني: هددني، مأمول : مرجو.

5. النافلة: العطية الزائدة على ما يجب من العطاء، تفصيل: توضيح.

6. لا تأخذني: لا تتهمني، الوشاة: جمع واش وهم ناقلو القيل والقال.

7. يستضاء به: يهتدي به، مهند: سيف منسوب إلى الهند التي عرفت بصناعة السيوف الجيدة.

8. عصبة: جماعة، قائلهم: المراد به عمر بن الخطاب (رض)، زولوا: أي هاجروا من مكة إلى المدينة المنورة.

9. أنكاس: جمع نكس وهو الضعيف الجبان، كشف: جمع أكشف وهو من لا ترس له أو هم الشجعان الذين لا ينكشفون في الحرب، الميل: من لا سيف له، معاويل: من لا سلاح له.

10. حياض الموت: موارد الهلاك، تهليل: جبن وفرار أي لا يطعنون إلا في الصدر لأنهم لا يهربون.

الشرح والتحليل

يبدأ كعب بن زهير بالبكاء على فراق حبيبته سعاد على غرار الجاهليين فلقد فارقته واسقمه الحب وما حبيبته إلا ظبي مكحول الطرف مسترخي الاجفان ولكنها لا تفي بالوعد ولا تتمسك به، ثم ينتقل الشاعر إلى الاعتذار من النبي محمد ﷺ ووصف حالته مع الوشاة فلقد أنباه الكاذبون بأنه سيكون في عداد الموتى على يد رسول الله ﷺ فسألهم أن يتركوه فقدرة حاصل لا محالة وكل إنسان وأن طالت حياته لابد أن يحمل على نعش. لقد وصلت أخبار مفادها أن رسول الله ﷺ يريد قتله ولكنه ﷺ صاحب العفو فلقد هداه الله بالقرآن الواعظ. ثم ينتقل معتذراً منه ﷺ مبرراً ساحته فيقول: لا تصدق أقوال الوشاة وكلامهم مهما كثر فلقد حضرت مجلساً هائلاً ورأيت أمراً عظيماً وسمعت كلاماً عجيباً فالنبي ﷺ نور يهدي الناس وسيف إلهي مسلول في وجه الباطل من

بني قريش الساكنين أودية مكة ويطاحها الذين اسلموا وهاجروا مع الرسول محمد ﷺ ولا يقع الطعن إلا في صدورهم لأنهم لا يهربون ولا ينهزمون عن موارد الحمام والموت.

إن الملاحظ على هذه القصيدة أنها كثيرة الاغراض على غرار شعر ما قبل الإسلام، ففيها الغزل التقليدي ومدح الرسول محمد ﷺ والاعتذار منه كما فيها مدح المهاجرين وذم الانصار المبطن، ويظهر جلياً ضعف النفس الديني فهو لم يظهر كما ظهر عند حسان بن ثابت رغم وجود تعابير إسلامية جيدة في القصيدة (رسول الله، القرآن، اسلموا).

إن كعب بن زهير يؤمن بحكم الله وتقديره فوضح ذلك شعرياً حينما أثبت أن الله سبحانه وتعالى مسؤول عن عباده وما قدره الله للإنسان لابد من أنه حاصل لا محالة.

وتبدو في القصيدة مجموعة من الحكَم ولاشك فإن ذلك متأت من تأثير حكمة أبيه الشاعر زهير بن ابي سلمى أحد شعراء المعلقات.

انتقى الشاعر كعب لقصيدته الفاظ تلائم وتناسب كل غرض من أغراض القصيدة فنلاحظ الكلام السهل اللطيف المستعمل في حديثه عن حبيبته (سعاد) إلى جنب التراكيب المتينة والعبارات الخشنة والمسبوكة في بعض الاحيان لان ذلك وليدة تأثير الصحراء العربية في شعر عصر ما قبل الإسلام بشكل عام.

أما عن هذه القصيدة التي عرفت بالبردة فقد ذاع صيتها وأنتشرت كثيراً وقد شرحت مراراً وخمست وشطرت وظل الشعراء على مر الحقب التاريخية يبارونها ويتباركون بها لأنها بالفعل لوحة رائعة من لوحات قصيدة الاعتذار في الأدب العربي في أطارها الجديد في عصر صدر الإسلام حينما يكون ذلك عن إيمان وعن إرادة لمصلحة سماوية ودون أية مصلحة دنيوية.

علمنا في كلامنا على الحطيأة أن كعباً كأبيه زهير يهذب شعره، وينقي ألفاظه، ويتخير معانيه، ولا عجب ان يشبه الولد أباه وهو سره، ونجد في

(مشوبته) أن لـه خاصـة زهير في براعـة التشبيه والتصوير الحسـي، ولـه خاصته أيضاً في إرسال الأمثال الحكمية، وقد نكون منصفين إذا قلنا: ان زهيراً وكعباً والحطيأة ينتحلون مذهباً أدبياً ذا صبغة واحدة، على أننا نجد في شعر كعب كثيراً من اللفظ الغريب، وقد عزاه الدكتور طه حسين إلى ان كعباً قلد فيه أستاذ أبيه أوس بن حجر، ولعله مصيب برأيه، فان زهيراً كان رواية أوس، وعنه اخذ أسلوبه الوصفي وما فيه من التشابيه والصور المادية.

وكان أوس جاهلياً قديماً يؤثر اللفظ الغريب في شعره، فجاء شعر كعب وعليه طابع المذهب الزهيري، أو المذهب الأوسي، على رأي الدكتور، مع إيثار الغريب من الألفاظ تشبيهاً بأستاذ أبيه، فنحن الآن أمام مذهب ندعوه زهيرياً أو أوسياً إذا ذهبنا إلى أبعد من زهير[1].

وقد استهل كعب مشوبته التي اعتذر بها إلى الرسول، متغزلاً واصفاً ثغر حبيبته، شاكياً هجرها، وإخلافها، ومواعيدها العرقوبية، فترى الصور الحسية تتراكم في أوصافه ويتبع بعضها بعضاً، ولاسيما تشبيه حلاوة الثغر وبرودته بخمرة شُجت بماء بارد، ثم إلحافه بوصف هذا الماء ليبالغ في تصوير برودته وصفائه، وانظر إلى قوله: " لكنها خلة قد سيط من دمها..." أراد ان يصفها بالكذب والاخلاف والفجع والتبديل فصور لك هذه الصفات ممزوجة بدمها، ثم انظر إلى قوله: " إلاّ كما تُمسك الماء الغرابيل...." فهو لم يجد لديه غير التصوير الحسي لتمثيل نكثها العهود، ثم الحكمة أيضاً وضرب المثل في قوله: " ولا تمسك بالعهد..." إن الأماني والأحلام تضليل...، وكانت مواعيد عرقوب..".

وينتقل إلى وصف الناقة فيبدع إبداعاً يجاري فيه طرفة، ويتلاعب بالمعاني تلاعباً لم يسبقه إليه احد، وفي هذا القسم تكثر الصور المادية وتكثر الألفاظ الغريبة فيصف ضخامة عنقها وطوله، وعظم وجنتيها، ونعومة جلدها، ثم يشبه

(1) يرى الدكتور طه حسين ان النابغة احد اساتذة المذهب الأوسي لأن على شعره طابعه الخاص.

وجهها في صلابته بمعول من حديد أو حجر مستطيل، وذنبها بجريد النخل، وقوائمها بالرماح الصلبة، وهي في سرعتها لا تمس الأرض إلا تحليلاً[1] ولا تحتاج إلى تنعيل يقيها الحجارة الصلبة أخفافها، ويصف حركة ذراعيها وسرعة تقلبها، فيرينا صورة مادية رائعة لم يستبق إليها، ويستطرد معها إلى وصف شدة الحر.

وبعد ان ينتهي من هذه الصورة القصصية البارزة الجمال، ينتقل إلى مدح النبي ﷺ والاعتذار إليه، ومدح المهاجرين من قريش، وفي هذا القسم ترق ألفاظه، ويقل غريبه إلا في وصف الأسد، ولا بدع فإنه مقام استعطاف ولين.

والشاعر الجاهلي يجعل لكل مقام مقالاً، فإذا اعتزل أو استعطف أو رثى رقّت عاطفته ورقت ألفاظه، وإذا افتخر أو مدح اشتدت عاطفته، فتجزل ألفاظه، ويشتد أسرها، وإذا وصف ناقته والقفار الموحشة والسباع الضارية، خشنت عاطفته، وخشنت ألفاظه معها، وفي هذا القسم تنتهي (مشوبة) كعب.

ونرى ان كعباً مدح الرسول بأسلوب جاهلي صرف، دون ان يشير إلى فرض من فروض الدين الإسلامي، أو إلى آية من القرآن، ذلك بأنه كان يجهل حقيقة الإسلام، يوم نظم قصيدته، وهو لم يسلم إلا رهبة وفرقاً، فإذا قابلنا وعرفنا الصحيح من المنحول، ولو لن تكن هذه القصيدة قيلت في النبي ﷺ واشتهر كعب بها، لما جاز لنا ان نعده من الشعراء المخضرمين لأن النفس الجاهلي فيه أقوى من النفس الإسلامي.

وبعد فان في أبيات المدح ما في غيرها من تأثير المذهب الزهيري، فالصور المادية قوية، ولاسيما تشبيه النبي ﷺ بالأسد ثم وصف هذا الأسد وصفاً قصصياً عرفناه بزهير، وتظهر لنا حكمة زهير في قوله: " كل ابن أنثى وإن طالت

---

(1) مست الارض تحليلا: أي ماساً يسيرا، كما يحلف الإنسان ليفعلن هذا الشيء فيفعل منه اليسير ليتحلل به من القسم.

سلامته..."، ويظهر لنا إيمان زهير على جاهليته في قوله : " فكل ما قدّر الرحمن مفعول.." .

وما أجمل التصوير على بداوة المعنى في وصفه هيبة الرسول ﷺ، وما يستولي من الفزع على الماثل في حضرته، وكأن الشاعر أراد الاعتذار من خوفه فلم يجد غير الفيل الضخم مثالاً للجرأة فقال: لو وقف الفيل موقفي ورأى ما رأيت، وسمع ما سمعت، لظل يرعد، فلا لوم علي إذا هبت الرسول ﷺ فهو أهيب عندي من أسد في بطن عثر، كثير الصيد، شديد الضراوة.

أو ليس في ذلك الاعتذار، وفي ذلك التمثيل سذاجة جاهلية خشنة، ولكنها لطيفة مستحبة؟ [1].

---

(1) بطرس البستاني، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص267.

الحطيأة

اسمه جرول، وتسمى أمه الضراء كانت لاوس بن مالك العبسي حيث نشأ الشاعر في حجره مغموراً في نسبه وجعله ذلك قلقاً مضطرباً وزاد في اضطرابه قلقه وضعف جسمه وقبح وجهه ولقب بالحطيأة لفقره ودماته، لزم زهير بن ابي سلمى حيث علمه احكام صنعة الشعر وهو راوية شعر كعب بن زهير فهو من مدرسة زهير التي كانت تعنى بالتعبير وصقله وتصفيته من كل شائبة. لا يعرف زمن اسلامه، فهل اسلم بعد فتح مكة؟ ام كان ذلك في وقت متأخر إلا أن له شعراً في حروب الردة إذ يؤيدها، جعله ابن سلام في كتابه (طبقات الشعراء) في الطبقة الثانية، وشعره في المديح والهجاء، له مدح في سادة القبائل وهما الزبرقان بن بدر الذي نقل امره إلى الخليفة عمر بن الخطاب فحكم حسام بن ثابت الذي حكم عليه بالحبس ومن السجن كتب لعمر ابياتاً رق فيها قلب عمر، واطلق سراحه لكنه اشترى منه اعراض الناس بثلاثة الاف درهم، بالغ الرواة في اتهامه بالبخل ودناءة النفس وفساد الدين وربما يكون رقيقه بينما تدلنا بعض الابيات التي كتبها انه حسن الاسلام وقد نفذ الإيمان إلى قلبه. الحطيأة مصور، فنان، دقيق الملاحظة، يرسم بالكلمات صور الكاريكاتور بسخرية لاذعة لمن يريد ان يكتب عنه بحيث تصبح وثيقة تاريخية خالدة، وبه فخر بنو انف الناقة إذ قلب هجاء عشيرتهم إلى مديح مما دلل على امتلاكه قدرة رائعة.

نموذج من شعره :

1. **وطاوى ثلاث عاصب البطن — ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما**
2. **أخي جفوة فيه من الانس وحشة — يرى البؤس من شراسته نعما**
3. **وأفراد في شعب عجوز أزاءها — ثلاثة أشباح تخالهم بهما**
4. **حفاة عراة ما اغتدوا خبز ملة — ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما**

5. رأى شبحاً وسط الظلام فراعه ... فلما رأى ضيفا تشمر واهتما
6. فقال: هيا رباه ضيف ولا قرى ... بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحما
7. فقال ابنه لما راه بحيرة ... أيا ابتي أذبحني ويسر له طعما
8. ولا تعتذر بالعدم على الذي طرا ... يظن لنا مالا فيوسعنا ذما
9. فروى قليلاً ثم أحجم برهة ... وإن هو لم يذبح فتاه فقد هما

معاني المفردات:

1. طاوى ثلاث: جائع منذ ثلاث ليال، عاصب البطن: رابط بطنه من شدة الجوع، المرمل: الفقير الذي نفذ زاده، بيداء: صحراء، الرسم : اثر الديار والاطلال.
2. اخى جذوة: غليط الطبع، الشراسة: سوء الطبع والخلق.
3. الشعب: الطريق في الجبل، ازاءها: امامهم، البهم: صغار الضان والماعز.
4. ما اغتذوا: لم يأكلوا، خبز ملة: الخبز الذي ينضج على الجمر والرماد، البر: القمح.
5. راعه: اخافه وافزعه، تشمر: ابدى اهتماماً ملحوظاً.
6. هيا رباه: يا ربي، القرى: ما يقدم للضيف من طعام، تا الليلة: هذه الليلة.
7. يسر: هيء له وقدم، الطعم: الطعام.
8. العدم: الفقر المدقع، علَّ: لعل. طرا: أصلها طرا، يوسعنا ذما: يبالغ في ذمنا.
9. روى: فكر في الامر وتدبر، احجم: امتنع وتراجع برهة: لحظة، هما: عزم وقصد.

الشرح والتحليل

عرض الشاعر صورة لبؤس اسرته تمهيداً لقصة الكرم إذ إن رب هذه الاسرة جائع منذ ثلاث ليال يربط بطنه من شدة الجوع ويعيش في هذه الصحراء الموحشة التي لم ينزل بها احد وليس فيها معالم للحياة والعيش ولقد اثرت هذه الصحراء في طبعه فزاد غلظة وخشونة جعلته ينعم بهذه الحياة الخشنة وقد انزل اسرته معه في هذا المكان القفر: امرأته العجوز واطفاله الثلاثة الذين هزهم الجوع فصاروا أشباحاً يحسبهم الناظر من الماعز أو من حملان الضان لضعفهم ومرضهم. وهم حفاة الاقدام عراة الاجسام لانهم لم يذوقوا الخبز الذي تنضجه النار ولا يعرفون طعماً للقمح منذ ولدوا. رأى رب هذه الأسرة شبحا قادماً في الظلام فاضطرب وخاف أن يكون لصا أو وحشياً فلما تبين له أنه ضيف تأهب للترحيب به ولكنه اصابه الهم لأنه لم يجد ما يقدمه لضيفة من طعام لذلك راح يهتف مناجياً ربه: يالهي ضيف ولا طعام له وحقك يا ربي أرزقني برزقه ولا تحرمه من اكل اللحم هذه الليلة وفي هذا الحال راه ابنه في حيرته وهمه فاسرع إليه يقدم نفسه ضحية للكرم قائلاً: أذبحني يا ابي وقدم لحمي طعماً لضيفك، ولا تعتذر بالفقر فربما ظن الضيف أن لنا مالا لم نقدمه فيبالغ في ذمنا فتحير الوالد واخذ يفكر وظل في صراع بين عاطفة الاب الحنون وعاطفة العربي الكريم وبقى في هذه الحيرة فترة من الزمن حتى لقد حاول ان يذبح ابنه فعلاً لولا ان تدخل لطف الله في آخر لحظة.

القصيدة لوحة رائعة تجسد مفهوماً مهماً هو الكرم وقيمته في حياة الإنسان العربي في أسلوب قصصي جميل وتبرز فيها شهامة العربي الصغير عندما يرى أباه في حيرة والمعنى الإسلامي في مجيء لطف الله في اللحظات الاخيرة ليختم بها لوحته الرائعة هذه.

لبيد بن ربيعة

من عشيرة ذات سيادة وشرف في بني كلاب العامريين، هي عشيرة بني جعفر، وقد اشتهر فيها أبوه ربيعة وأعمامه الطُّفَيْل وأبو بَراء ومعاوية . أما ربيعة فكان بحراً فياضاً، ومن ثَمَّ لُقِّبَ : " ربيعَ المفسرين " وقد قتلته بنو أسد في بعض حروبها مع قومه . وأما الطفيل فكان فارساً مغواراً وهو أبو عامر المشهور وهو الآخر بفروسيته، وكذلك كان أبو براء شجاعاً مقداماً وكان يلقب بملاعب الأسنة، أما معاوية فكان ذا رأى وحكمة، فلقِّب بمعوِّذ الحكماء. وأم لبيد تدمرة بنت زنباع العَبْسية.

وقد نشأ لبيد يشعر شعوراً عميقاً بكرامة أسرته وأمجادها ومناقبها، وبمجرد أن شبَّ أخذ يشترك في حروبها وغاراتها ووفادتها على أمراء الحيرة ويقصُ الرواة من ذلك حديثاً ينصل- إن صَحَّ- بأول ما كان من تيقظ موهبته وهو لا يزال حَدَثاً، فهم يروون أن وفداً من قومه على رأسه عمه أبو برَاء وفد على النعمان بن المنذر، فوجد هناك وفداً من بني عَبْس على رأسه الربيع بن زياد، وكان بين العبسيين وبني عامر قبيلة لبيد عداوة منشؤها أن العامريين قتلوا زهير بن جذيمة سيد بني عبس في بعض حروبهم. ولم يلبث الوفدان أن اصطدما، وأخذ الربيع يدسُّ على العامريين عند النعمان. وعرفوا ذلك، فاستشاط لبيد غضباً، ووثب بين يدي النعمان يهجو الربيع برجز مقذع، فانصرف النعمان عن الربيع وأجزل في إكرامه للعامريين . وسواء أصحَّ هذا الخبر أو لم يصح فإن لبيداً أخذ منذ سال الشعر على لسانه ينظمه في الفخر بعشيرته والافتخار بها اعتداداً بالغاً. ويقال أنه كان يكتمه في أول الأمر، حتى إذا نظم معلقته : " عَفَت الديار محلُّها فمقامها " أخذ يظهره، وأخذ أسمه يطير في القبائل ولما سارت الركبان بأمر الرسول في المدينة ورسالته النبوية أرسله عمه أبو برَاء برسالة إليه، فوقع الإيمان في قلبه، إلا أنه لم يُعْلن إسلامه حينئذٍ. وعاد إلى قبيلته، حتى أذا استدار العام خرج مع وفد منها إلى الرسول ﷺ، فأعلنوا دخولهم في دين الله. وكان ابن عمه

عامر بن الطفيل وأخوه أربد وفدتً على الرسول قبل ذلك يريدان به شرًّا فعصمه الله. ودعا عليهما، فلم يلبث عامر أن أصابه طاعون في عنقه فقتله، أما أربد فنزلت عليه صاعقة من السماء أهلكته، وظل لبيد بعد إسلامه يبكيه بكاء حارًّا.

ورجع لبيد بعد إعلانه إسلامه إلى قبيلته يذكر لهم البعث والجنة والنار ويقرأ لهم القرآن، ومازال بينهم حتى خَطَّ عمر الكوفة فنزلها وأقام بها إلى أن توفّاه الله في صدر خلافة معاوية سنة أربعين للهجرة . ويقول الرواة إنه شغَل نفسه حينئذ بالقرآن وتلاوته ولم ينظر الشعر إلا قليلاً، ويصوِّرون ذلك فيقولون إن عمر أرسل إلى المغيرة بن شُعبة واليه على الكوفة : أن استنشدْ من قِبَلك من شعراء مصرك ما قالوا في الإسلام، فلما سأل لبيداً عن شعره انطلق فكتب سورة البقرة في صحيفة : ثم أتاه بها. وقال : أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر، فكتب المغيرة بذلك إلى عمر، فأمر أن يزيد عطاءه خمسمائة وكان ألفين . ويمضي الرواة فيزعمون إنه لم في الإسلام إلا بيتاً واحداً ويختلفون فيه . فمن قائلٍ هو قوله :

الحمدُ لله إذ لم يأْتني أَجَلي حتى كساني من الإسلام سِرْبالا

ومن قائلٍ، بل هو قوله :

ما عاتبَ المرَ الكريمَ كنفسه والمرءُ يُصْلحه الجليسُ الصالحُ

والحق أن له أشعاراً كثيرة تفيض بمعاني الإسلام ومثاليته الروحية، بحيث يمكن أن نقسم شعره قسمين : قسماً جاهليًّا وقسماً إسلاميًّا.

وإذا انتقلنا إلى شعره الإسلامي وجدنا قراءته للقرآن الكريم تهذب من لفظه وتدخل عليه غير قليل من الطلاوة، ومن ثم يقول فيه ابن سلام: " كان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام، وكان مسلماً رجل صدق"، ويتضح ذلك في مراثيه المشهورة لأخيه أربد، فإن ألفاظها ماء ورونقاً وفي معانيها من الإسلام

أصداء وظلالا، وارجع إلى عينيته فستجد جمال السبك والصياغة، وستجد الروح الإسلامية ماثلة في تضاعيف أبياتها على شاكلة قوله[1]:

بلينا وما تَبلى النُّجومُ الطَّوالِعُ ... وتَبقى الجبالُ بعدنا والمصانِعُ[2]

فلا جزعٌ إن فرّق الدهرُ بيننا ... وكل فتىً يوماً به الدهرُ فاجعُ

وما الناسُ إلا كالديار وأهلها ... بها يومَ حلّوها، وغدواً بلاقعُ[3]

وما المرءُ إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رماداً بعد إذ هو ساطع[4]

وما البِرُّ إلا مضمراتٌ من التُّقى ... وما المال إلا عارياتٌ ودائعُ

وليس كل ما حدث من انقلاب في شعره الإسلامي أنه انتقل من الألفاظ الحوشية إلى الديباجة الطلية، فقد تغلغل الإسلام في ضميره، فاتجه في أشعاره إلى ربه منيباً إليه، والوجل يملأ نفسه من يوم الحساب الذي ينتظره، يقول في قصيدة له[5]:

إنما يحفظ التُّقى الأبرارُ ... وإلى الله يستقرُّ القرارُ

وإلى الله ترجعون وعند الله ... ـه وردُ الأمور والإصدارُ

كل شيءٍ أحصى كتاباً وعلماً ... ولديه تجلّت الأسرارُ

(1) ديوان لبيد بتحقيق احسان عباس ص 168.

(2) المصانع : الأبنية الضخمة.

(3) بلاقع: جمع بلقع وهو الأرض القفر . وغدوا: غدا.

(4) يحور: يصير.

(5) ديوان لبيد ص41 والحيوان 163/7.

إن يكـن في الحياة خيرٌ فقد أُنـ ـظرتُ لـو كـان ينفـع الإنظـار[1]

عشتُ دهـرا ولا يـدوم علـى الأيّـ ـام إلا يرمـرمٌ وتعـار[2]

فإنـك تجـده يتحـدث عـن التقـوى والأبـرار والعمـل الصـالح وأن النـاس معروضون على الله يوم القيامة وقد أحصى كل شيء في كتاب وأن الموت حق لا شك فيه وأن على كل إنسان أن يفكر في مصيره، ويمضي في طائفة غير قليلة من أشعاره يعظ من حوله بما أهلك الله من الأمم الخالية مخوفاً من الموت ويوم الحساب، وداعياً إلى التقوى والعمل الصالح، ومهوناً من الدنيا ومتاعها الزائل ونعيمها الفاني، على نحو ما نرى في لاميته التي نؤمن بأنه نظمها في الإسلام، وفيها يقول[3]:

أَلا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ وكـلُّ نعـيمٍ لا محالـة زائـلُ

وكلُّ أُناسٍ سوف تدخل بينهم دُويهيـةٌ تصـفرُّ منهـا الأنامـل[4]

وهو في البيت الأول يستمد من مثل قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ويستمد البيت الثاني من مثل قوله جل وعز: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ أما البيت الثالث فاستمده مباشرة من قوله تبارك وتعالى عن الإنسان وما ينتظره من البعث والحساب: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾. واسترسل في القصيدة يتحدث عن النعمان بن المنذر، وملكه وأجناده وكيف بادوا جميعاً مما جعل القدماء يظنون انه نظمها في رثائه[5] وفي الواقع

---

(1) الإنظار: التأخير.

(2) يرمرم وتعار: جبلان في نجد.

(3) الديوان ص 256، والشعر والشعراء 237/1 والطبري 28/5.

(4) يريد بالدويهية الموت.

(5) انظر الديوان ص254.

كان يتحدث عن عظة الموت وكيف يأتي على الملوك والأمم، ومن ثم مضى يتحدث عن الغساسنة وأصحاب الرس وكيف أمسى كل ما كانوا فيه أحلاماً .

وعلى هذا النمط نفسه لامية أخرى يستهلها بقوله[1]:

لله نافلةُ الأجلِّ الأفضلِ ولهُ العُلا وأثيثُ كلِّ مؤثَّلِ[2]

لا يستطيع الناسُ محو كتابه أنّى وليس قضاؤه بمبدَّلِ

وهو في هذا المطلع يستلهم الذكر الحكيم وما فيه من أوصاف الذات العلية، وان كل ما يجري في الكون بقضائه وان كل ما يأتي من عمل في كتاب مبين، وان كلا سيجزى بما سجل عليه كتابه، يقول سبحانه: **﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** . ويمضي لبيد في القصيدة فيتحدث عن خلق السموات والأرض وما أصاب بعض العماليق ولقمان ونسره وأبرهة وأمراء المناذرة والغساسنة من ريب الزمان، ومن هذه الشاكلة نفسها موعظته[3]:

من يبسطِ اللهُ عليه إصبعا بالخيرِ والشر بأيّ أُولعا[4]

يملأْ له منه ذنوباً مُترعا وقد أباد إرماً وتُبَّعا[5]

والحق ان تلاوته للقرآن التي اشتهر بها أثرت في نفسه آثاراً عميقة، وقد يكون الرواة تزيدوا في بعض هذه الأشعار ولكن كثرة ما ينسب إليه منها يدل على ان الإسلام تعمق روحه، وانه استشعر معانيه ومواعظه، فمضى يحيلها أبياتاً

---

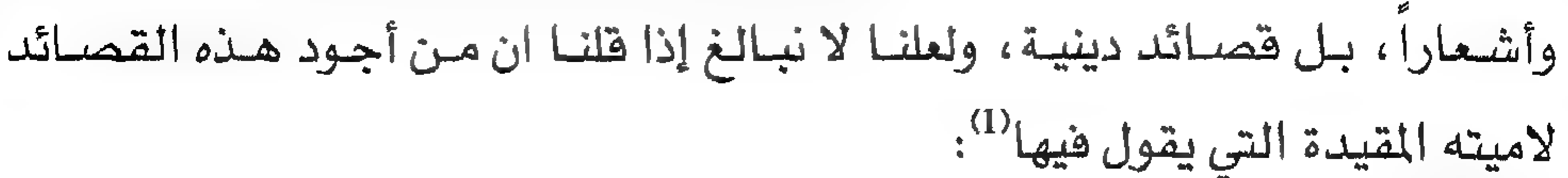
(1) الديوان ص271.

(2) أثيث : موطأ عظيم .مؤثل: مؤصل، ويوصف به الملك والمجد.

(3) الديوان ص337.

(4) الإصبع : الأثر الحسن.

(5) ذنوبا مترعاً : دلواً مملوءاً.



وأشعاراً، بل قصائد دينية، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا ان من أجود هذه القصائد لاميته المقيدة التي يقول فيها[1]:

إن تقوى ربنا خيرُ نفل	وبإذن الله ريثي وعجلْ[2]
أحمدُ الله فلا ندٌّ لهُ	بيديه الخيرُ ما شاء فعلْ
من هداه سُبلَ الخير اهتدى	ناعم البال ومن شاءَ أضلّ
فاكذب النفس إذا حدّثتها	إنَّ صدق النفس يُزري بالأمل
غير أن لا تكذبنها في التُّقى	واخزها بالبرِّ، لله الأجلّ[3]

ونراه يذكر في هذه القصيدة رحلة له ولعلها رحلته إلى الكوفة كما يذكر فقده لأريد ويبكيه، وعلى هذا النحو يظل لبيد بشعره الإسلامي مستمسكاً بالعروة الوثقى زاجراً عن الدنيا وخدعها داعياً إلى ان يكف الإنسان عن سيئاته ومرغّباً له في الباقيات الصالحات حتى يغتنم بقية أجله بخير عمله[4].

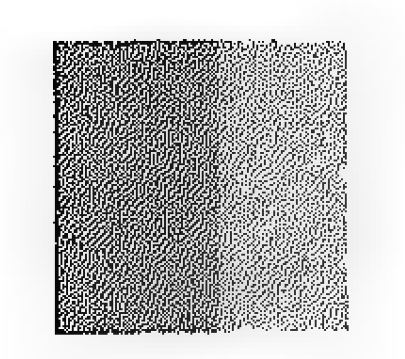
---

(1) الشعر والشعراء 238/1،والديوان ص174 وما بعدها.

(2) النفل: العطية . الريث: البطء.

(3) اخزها: سسها واقهرها.

(4) العصر الإسلامي ص92- 95.



شعر الفتوحات الإسلامية

وهناك أشياء لابد أن نلاحظها في هذه الأشعار الكثيرة التي رويت عنهم في مغازيهم وفتوحهم، لعل أهمها أنها طُبعت بطابع الآداب الشعبية سواء من حيث نسيجها العام أو من حيث قائلوها ومن نسبت إليهم . أما من حيث النسيج فإنها لا تبلغ من المتانة مبلغ الأشعار التي نُسبت في العصر نفسه إلى الشعراء المجوّدين، وأما من حيث القائلون فإن كثيراً منهم يكاد يكون مجهولاً ، لسبب بسيط وهو أنه من عامة الجند ، ومن ثم اختلف الرواة في نسبة كثير من الأشعار إلى أصحابها . ويكثر أن يرسل الراوي الشعر إرسالاً بدون نسبته إلى شاعر بعينه، وينص الطبري على قطعيتين كانت تتجاوب بهما الآفاق في الجزيرة العربية ولا يعرف من نظمهما ، ويعقب عليهما بقوله: " وسُمع بنحو ذلك في عامة بلاد العرب"[1] ، وكأن طائفة من شعر الفتوح تحولت إلى ما يشبه الأمثال التي يبدعها الشعب، فناظمها لا يعرف كما لا يعرف مرسل المثل لأنه من أبناء الشعب وأبناء الشعب قلما ذكروا أو مجدوا بل انه لا يعنيهم أن يذكروا أو يمجدوا ، إذ هم آخر من يهتم بهذا الفضل.

ويسود في هذا الشعر الإيجاز، فهو شعر اللمحات السريعة والمواقف الخاطفة ، وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة يجري فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق في معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية ، انه يعبر عن خاطر التحم بصدره دون معاناة أو مكابدة ، ويرمي به في سرعة كما يرمي بسهمه أو يضرب بسيفه، غير مفكر في تنقيح ولا في تصفية أو تهذيب، ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التي تحول بينه وبين إطالة الفكرة كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره.

---

(1) الطبري 83/3.

وملاحظة أخيرة، وهي ان قصصاً كثيراً عن أبطال الفتوح وجهادهم في حروب الفرس والروم أضيف إلى هذه الأشعار، وقد حمل لنا ياقوت في معجمه كما حملت كتب التاريخ والأدب أطرافاً منه كثيرة، ومن غير شك خضع هذا العمل كله لمخيلة القصاص فزادوا في القصص والأشعار ما اتسع له خيالهم، ولكن مهما يكن فلهذا كله أصل صحيح وهو أصل ضخم إذ كان الشعر يتدفق على ألسنة الفاتحين، وكانوا ينشدونه في كل موقف وكل معترك، مقصدين له حيناً راجزين أحياناً أخرى، وطبيعي أن يشيع فيه الرجز، لأنه كان فعلاً الوزن الشعبي الذي ينظم فيه عامة العرب [1].

وانَّ الموضوعات الجديدة التي عبر عنها شعر الفتح نتيجة طبيعة لحياة الفاتحين في بيئة جديدة عنهم وبعيدة عن أوطانهم، وأول هذه الموضوعات ما نسميه بشعر الحنين، ونعني به ذلك الشعر الذي يعبر عن أشواق الشاعر التي كانت تملأ جوانبه، وعن المواجع التي كانت تلذع كبده، نتيجة بعده عن وطنه، عندما يتذكر مرابعه الأولى فيحن إليها، ويذكر أهله الذين فارقهم، ويتمنى لقاءهم فيشكو بعده واغترابه عنهم، كهذا المجاهد الذي يشكو غربته إلى قمرية خالها غريبة مثله في مرو الشاهجان فقال:

أقمرية الوادي التي خان إلفها — من الدهر أحداث أتت وخطوب

تعالى أطارحك البكاء فإننا — كلانا بمرو الشاهجان غريب [2]

وكما يسكب الشاعر الغريب عواطفه على الطيور ويشكو إليها همومه يفزع إلى طبيعة دياره التي خلفها وراءه، عندما يعاني من قسوة أجواء هذه المناطق

---

(1) شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص66- 67.

(2) ياقوت ج2 ص 510.

النائية وبردها وثلجها، فيتحسر على دفء موطنه، كهذا الشاعر الذي راح يذم جو مرو، ويتمنى جو العراق في بره وبحره، إذ يقول:

وأرى بمرو الشاهجان تنكرت ... أرض تتابع ثلجها المذور

أسفي على بر العراق وبحره ... إن الفؤاد بشجوه معذور[1]

وإن كان هذا الشاعر يذم برد مرو شوقاً إلى دفء العراق، فإن شاعراً آخر من الفاتحين يضيق بقيظ بعض المناطق البعيدة الأخرى عن وطنه، ويتنسم برد رياح نجد، وطيب مناخه، ضائقاً بغربته بين أناس ليسوا من قومه ولا من عشيرته ولا من لسانه، فيقول:

أتبكي على نجد وريّا ولن ترى ... بعينيك ريّا ما حييت ولا نجدا

ولا مشرفاً ما عشت أقفار وجرة ... ولا واطئاً من تربهن ثرىً جعدا

ولا واجداً ريح الخزامى تسوقها ... رياح الصبا تعلو دكادك أو وهدا

تبدلت من ريّا وجارات بيتها ... قرى نبطيات يسمينني مردا

ألا أيها البرق الذي بات يرتقى ... ويجلو دجى الظلماء ذكرتني نجدا

ألم تر ان الليل يقصر طوله ... بنجد وتزداد الرياح به بردا؟[2]

وأخذ الشعور بالغربة على الفاتحين يتصور صوراً مختلفة، فنجد يقصر الليل فيه وتزداد رياحه برداً، ولكنه في غربته يزداد طولاً وقيظاً.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4 ص 906.

وهذا ورد بن الورد في رامهرمز يحن إلى حبيبته وديارة في بني كعب، فيصور فؤاده مصعداً مع المصعدين إلى أرض الوطن، ولا يجد خيراً في الدنيا إذا لم يزر فيها حبيبته فيقول:

أمغترباً أصبحت في رامهرمز ... ألا كل كعبي هناك غريب

إذا راح ركب مصعدون فقلبه ... مع المصعدين الرائحين جنيب

وإن القليب الفرد من أيمن الحمى ... إليّ وإن لم آته لحبيب

ولا خير في الدنيا إذا لم تزر بها ... حبيباً ولم يطرب إليك حبيب[1]

وراح بعض الشعراء يبكون حظهم الذي ألقى بهم إلى هذه المناطق النائية، حتى ليضيقون بالقتال والحرب فيها، ويصرحون بهذا في شعرهم، كما فعل هذا الجندي الذي يقول:

تبدلت من نجد وممن يحله ... محله جند ما الأعاريب والجند

وأصبحت في أرض الجنود وقد أرى ... زماني بأرض لا يقال لها بند[2]

ويستبد الحنين بالشاعر فينظر ناحية نجد، برغم انه لا يرى شيئاً، ولكنه ينظر حنيناً إليها وإلى خيامها التي يقصر عنها الطرف وبرغم ألا نفع في نظره فلا يزال ينظر، ثم تجري عبراته هكذا كل يوم، وهكذا لا يستريح قلبه، فإما مجاهد في غزاة، أو ناء يتذكر يقول:

أكرر طرفي نحو نجد وإنني ... برغمي وإن لم يدرك الطرف أنظر

حنيناً إلى أرض كأن ترابها ... إذا أمطرت عود ومسك وعنبر

---

(1) المصدر نفسه، ج2 ص 738.

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4 ص 749.

بـــلاد كـــأن الأقحــوان بروضـــه ونـــور الأقـــاحي وشـــى بـــرد مجـــير

أحـــن إلى أرض الحجـــاز وحـــاجتي خيـــام بنجـــد دونهـــا الطـــرف يقصـــر

ومـــا نظـــري مـــن نحـــو نجـــد بنـــافع أجـــل لا، ولكـــني إلى ذاك أنظـــر

أفي كـــل يـــوم نظـــرة ثـــم عـــبرة لعينـــك مجـــرى مائهـــا يتحـــدر

متـــى يســـتريح القلـــب إمـــا مجـــاوز بحـــرب وإمـــا نـــازح يتـــذكر[1]

وفي مثل هذه الظروف القاسية الموحشة يجد الشاعر المجاهد الغريب نفسه بحاجة إلى ان يهرب إلى الطبيعة يبثها آلامه وأحزانه، ولا يزال الشعر الذي قيل في نخلة القادسية يصور لنا عاطفة الإنسان المأزوم نحو الطبيعة ولجوءه إليها، وبخاصة لو استشعر إلى جانب مشاعر الاغتراب والوحشية قلقاً يتهدد حياته، أو عندما يهاجمه الإحساس بدنو أجله.

كان ذلك يوم عمّاس، وقد قتل من المسلمين ألفان وخمسمائة، وكان عدد الجرحى كبيراً، واخذ المسلمون في دفن القتلى بمشرق، ودفعوا بالجرحى إلى عناية النساء، وكان من بيت موقع المعركة مما يلي القادسية وبين حصن العذيب نخلة وحيدة، ليس حولها شيء من الزرع، وكان المسلمون إذا حملوا الجريح مروا به عليها، فإذا كان فيه تميز نظر إليها طويلاً، ثم قال لحامله: أرحني تحت ظل هذه النخلة ن فيرتاح تحتها برهة، يترنم فيها ببيت من الشعر يتمنى فيه السلامة لها، وكأنه يخاطب نفسه فيها، إذ لم يجد أهله وأحباءه حوله يقولون له هذه الكلمة فيخففون بها بعض ما به من ألم.

ويذكر وحدة النخلة، وكأنه يعبر بذلك عن غربته، مثل هذه النخلة التي لا يجاورها نخل فيقول:

---

(1) المصدر نفسه، ج4 ص 747.

ألا فاسـلمي يـا نخلـة بـين قـادس ... وبـين العـذيب لا يجـاورك النخـل

فإذا بجريح آخر يقول:

ألا يـا اسـلمي يـا نخلـة بـين جرعـة ... يجـاورك الجمّـان دونـك والرغـل

فإذا بثالث من تيم الله يدعى ربعياً يقول:

أيـا نخلـة الجرعـاء يـا جرعـة العـدا ... سـقتك الغـوادي والغيـوث الهواطـل

وحمل إليها الأعور بن قطبة جريحاً – فيمن حمل – فقال:

أيا نخلـة الركبـان لازالـت فـانظري ... ولا زال في أكنـاف جرعائـك النخـل

فيرد عوف بن مالك التميمي:

أيـا نخلـة دون العـذيب بتعلـة ... سقيت الغوادي المدجنات من النخـل[1]

وموضوع الحنين على هذه الصورة باب رائع من أبواب الشعر الإسلامي، ذلك انه يلتف في نطاق وجداني رفيق، تتسكب فيه أعمق المشاعر العاطفية في تدفق وحرارة وصدق[2].

---

(1) المسعودي، مروج الذهب ج2 ص 209، الطبري ج5 ص 2217- 2218.

(2) النعمان عبد المتعال القاضي، شعر الفتوح الإسلامية، ص254.

الخطـــابة

من مميزات العرب أنهم أهل لسن وفصاحة، وأنهم أحرار بلغوا الغاية من حب الحرية وطلبها، وحيث تتوافر هاتان الصفتان، وتكون مع توافرها الدعاية إلى الكلام، يرقى شأن الخطابة، وتعلو أقدار الخطباء، ولقد علمت من شأن الخطابة في العصر الجاهلي ما علمت، لما توافر فيه من دواعيها ووسائلها، وقد كان من شأنها فيه أن القبيلة كانت تزهى بخطبائها كما تزهى بشعرائها، لأنهم دعاماتها في المنافرات والمفاخرات، وألسنتها في حاجاتها حين تفد على أمثالها في شؤون الحرب والسلم وللتقاضي ونحو ذلك من شؤون دنياها.

ولما ظهر الإسلام بالدعوة العظمى في العرب ساعد ظهوره على نمر الخطابة في هذا الطور من حياتهم، وبلغت أعلى مكانة قدرت لها إذ اتخذها أداته في الدعوة ووسيلته إلى التأثير والإقناع، وخطيب العرب قاطبةً، إذ ذاك هو رسول الله ﷺ وقد خطب قريشاً بمكة كثيراً يدعوها إلى الإسلام . ولما هاجر إلى المدينة استمر يخطب الناس وقد اتسعت خطابته حينئذ بحكم انصرافه إلى مقاتلة المشركين من جهة، والى تنظيم حياة الجماعة الإسلامية وإقامة الصلة بينها، وبين أولي الأمر شأني الدين والدنيا من جهة أخرى، فخطب محرضاً على القتال دفاعاً عن النفس وخطب ناصحاً ومعلماً ومرشداً، وشرع الخطابة في كل جمعة وعيد وموسم حج بعرفة، وجعلها شعار كل امام وركناً من أركان العبادة في الأيام المذكورة لتكون الوسيلة إلى إفاضة السكينة على نفوس المؤمنين وتثبيت العلاقة بين المجتمع وأصحاب السلطان وأهل الرأي من قادة المسلمين وأئمة دينهم وبذلك فتح للخطابة آفاقاً واسعة في المطالب الروحية والخلقية والاجتماعية والتشريعية والسياسية وغيرها، فضربت منها في كل سبيل كلما جدَّت للأمة مصلحة، وكلما نشأت عن هذه المصلحة حاجة الراعي والرعية إلى تحدث بعضها لبعض على النحو من سنة التشاور التي سنها الدين لجماعة المسلمين، فأنتج ذلك

ازدهارها بضروب من الموضوعات الخطيرة التي ينبعث الاحتياج إليها من صميم شؤون الحياة.

وقد كان النبي ﷺ وهو أفصح عربي على الإطلاق، المثل الأعلى لسطوة البيان وقوة الحجة، فطال العرب – في خطبة وجوامع كلمه- بما لا عهد لهم بمثله من أفانين المعاني وروائع الأغراض والأساليب . وقد كان يفتن في خطبه افتتاناً يملك به مجامع القلوب ليناً وشدة، وعداً ووعيداً، نصيحة وتثقيفاً في كلام حلو خلاب، وأداء بارع جذاب تتبهر بهما الأسماع، وتتقيد الأبصار حتى ليفتني فيه السامعون وتنقاد أهواؤهم لا رادته طيعة راضية مؤمنة، كالذي رأيته من موقف الأنصار منه حين خطبهم تلك الخطبة الرائعة، وقد كانوا عليه عاتبين واجدين، فانقلبوا في مثل لمح الطرف باكين نادمين، وبذلك طبع الخطابة بطابع جديد خطير الشأن لا تعد الخطابة بدونه في البلاغات فأسرع الخطباء إلى تأثره واقتباس شعاعه وتمثل أسلوبه وأدائه، وساعدتهم مواهبهم على حسن التمثل والإتباع واحتاجوا إلى القول فأجادوا وبرعوا وكان من ذلك كله ما امتاز به حظ الخطابة العربية في هذا العصر: من الجودة والرصانة، وسمو الأغراض وقوة التأثير.

لقد ازدهرت الخطابة إزدهاراً ملموساً وذلك بعدما اختطت لنفسها طريقة جديداً ازالت الخطابة القبلية المتعصبة وابتعدت عن استخدام السجع وظهرت الخطابة الدينية والسياسية والحربية وازدهرت الخطب المحفلية وخطب الوفود المهنئة أو المعزية وبعد وفاة النبي محمد ﷺ اختلف الناس في شؤون الخلافة فكثرت الخطابة السياسية لكثرة الاحزاب والفرق، كما كثرت الوصايا.

إن الخطابة في هذا العصر استمدت مميزاتها من اتصال معانيها باغراضها والاقتباس من القرآن الكريم والافتتاح بحمد الله تعالى وتضمنها الشعر والمثل والحكمة.

واتجهت الخطابة الإسلامية نحو الهدوء واللين فهي تحترم القوم المخاطبين وتعتمد على المشاركة الحرة لأنهم متساوون في الحقوق ومن هنا ندرك ليونة عمر الخطيب عن قساوة عمر الخليفة.

اتسمت الخطابة بالعفوية والايضاح ووحدة الموضوع وترابط الاجزاء والصياغة والنسج والايجاز لأداء الفكرة المطلوبة ولكن رغم ذلك بقيت الخطابة الإسلامية محتفظة ببعض خصائص الجاهليين من وقوف على مرتفع وحمل العصا باليمين والسيف باليسار وبالمحافظة على طرق اللباس وكان من أهم مقومات الأسلوب الخطابي: السهولة والوضوح والتلوين الكلامي والتوازن الموسيقى.

وقد أزدهرت الخطابة بفعل عدة عوامل هي: كانت الخطابة هي الوسيلة الوحيدة للدعوة إلى الدين الجديد بسبب تفشي الامية وشيوعها بين العرب، وإن الإسلام عندما جاء أعلى من شأن العقل وأتجه إلى الاقناع بالمنطق والحجة وهي عدة الخطيب كما أرتبطت الخطابة بالدين أرتباطا وتبعاً فهي وسيلة لنشر التشريع وتحديد نظم الحياة في المجتمع الجديد اصبحت الخطابة تخلق جسوراً من الصلبة بين النبي محمد ﷺ والرعية والخفاء الراشدين والرعية يضاف إلى ذلك كله أن العرب هم أهل فصاحة ولسان.

أغراضها

وأغراض الخطابة في هذا العصر عزيزة المذهب، شريفة المقاصد، بعيدة المرامي حفلت بموضوعات متنوعة، وجالت في كل ما اقتضاه الإسلام من الحاجات لنشر دعوته وتثبيت قواعده وإذاعة محاسنه، والإسلام دين ونظام جامع يؤلف بين حاجات الروح وحاجت الجسم، ويقيم الصلة بين شؤون المعاش وشؤون المعاد، ويعنى بقضايا الفكر والعقيدة والأخلاق فدارت خطب هذا العصر حول هذا القطب: قطب الإسلام، خاصة في عهد النبوة، ثم سايرت الأحداث الجديدة ووفت بمطالبها في قوة وروعة وسمو شأن.



وكان من أهم أغراضها:

1- الدعوة إلى توحيد الله، نبذ الشرك وعبادة الأصنام، وإبطال الواسطة بين الله وعباده.

2- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والترغيب في ثواب الله، والترهيب من عقابه، والوعظ والإرشاد والنصيحة بإتباع هدى الشارع الضامن للسعادة الكاملة والكرامة الموفورة.

3- تقرير شرائع الإسلام وقواعد الأحكام، ومعالجة ما يعرض من النوازل والمشكلات الزمنية التي تتصل بحياة الجماعة وتتطلب الشرح والإيضاح.

4- تحميس المؤمنين على الجهاد، وتوصية الجيوش بما ينبغي أن يعاملوا به المشركين، وما يحسن أن يتحلوا به من الصبر على القتال بإحدى الحسنين أما الاستشهاد في سبيل الحق، وأما النصر على الكفار وإعلان الانتصارات وتهنئة المسلمين بالظفر بالأعداء.

5- معالجة القضايا السياسية وما تستتبع من تدبير لخطة، وتأييد لبيعة، واثبات حق في سلطان، ورد لشبهة على تصرف أو حكم، أو احتجاج ومناظرة، أو إعلان نذير أو إعطاء أمان، ونحو ذلك من الشؤون الكبار.

أسلوبها

ويمتاز أسلوب الخاطبة في العصر الإسلامي بما يأتي :

1- التنويع بين الإيجاز والإسهاب مراعاة للمواقف ومقتضيات الأحوال. وقد كانت خطب رسول الله ﷺ، تقصر في خطب الجمعة، ويقصد فيها إلى الكلمات الجوامع، وورد أنه كان يأمر بقصرها، أما في المواسم الكبار، فكانت خطبه تطول ان رأى وجهاً للإطالة ولم يكن منه بدٌّ، وقد روى أنه خطب يوماً بعد صلاة العصر فلم يزل يخطب حتى لم يبق

من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف، قال الجاحظ : " ولم يطل التماساً للطول، ولا رغبة في القدرة على الطول، ولكن المعاني إذا كثرت، والوجوه إذا افتنَّت، كثر عدد اللفظ وان حذفت فضوله بغاية الحذق ... والذين بعث فيهم أكثر ما يعتمدون عليه البيان واللين " .

وكان خطباء هذا العصر يأتمون به، ولا يفوتهم أن يَزِنوا المواقف وما تتطلبه من إطالة أو تقصير.

2- قوة العبارة، وسهولة الخط، ووفرة اللفظ من الروعة وجمال الإيقاع البياني. والظاهر أنهم، مع ما أوتوا من القدرة البيانية، كانوا يعدُّون خطبهم أعداداً، ويعنون بتحبير كلامهم عناية خاصة، ومما يدلُّ على ذلك ما روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال يوم السقيفة : " كنت زوَّيت كلاماً أردت أن أقوم به فيهم " ومعنى زوَّيت جمعت وأعددت.

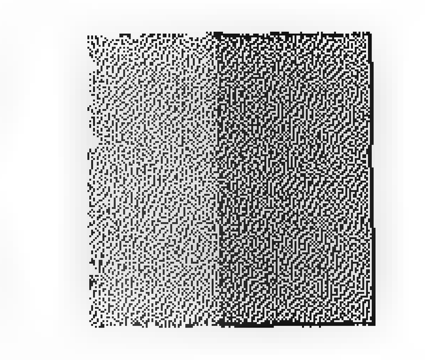
3- خلوُّها من السجع. والثابت أن النبيَّ ﷺ كان ينفر من السجع المتكلف، ويقول في إنكاره : " أسجع كسجع الكهَّان ؟ "، وكان الكهان في الجاهلية يصوغون جملاً قصاراً مبهمات يريدون بها الاغرابَ والتلفيق أخفاءَ لوجه الحق الذي يسألون عنه ويجهلونه ولا يدرون كيف يجيبون عنه، فيعمدون إلى هذا السجع الملفق المتكلف الغامض.

4- استهالها غالباً بحمد الله والثناء عليه والتشهد. وقد سنَّ رسول الله ﷺ، ذلك في خطبه، فكان يحمد الله ويثني عليه، ثم يقول بعد ذلك : " أمَّا بعد".

5- ترصيعها بآي القرآن وضرب الأمثال تمكيناً للحجج، وهو شيء يكثر في خطب الخلفاء الراشدين [1].

---

(1) الأساس في تاريخ الأدب العربي ص 199.



خطبة الرسول محمد ﷺ في حجة الوداع

((إيها الناس: أن دماءكم واموالكم حرام عليكم إلى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلا هل بلغت؟ اللهم أشهد!! فمن كانت عنده امانة فليؤد إلى من ائتمنه عليها.. وأن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: ان لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حقا، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرا.

أيها الناس: أنما المؤمنون أخوة، فلا يحل لامرئ مال اخيه إلا عن طيب نفس منه، إلا هل بلغت؟ الله اشهد!! فلا ترجعن بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض، فاني قد تركت فيكم ما ان اخذتم به لن تضلوا بعده، كتاب الله وسنتي...)).

معاني المفردات :

يومكم هذا: يوم عرفة، شهركم هذا: شهر ذي الحجة، بلدكم هذا: مكة المكرمة، مآثر الجاهلية: جمع مآثره وهي ما يتفاخر به الجاهليون، موضوعه: متروكة، السدانة: خدمة البيت الحرام، السقاية: سقاية الحجيج، القود: القصاص، فيه مائة بعير: دية القتل الخطأ، طيب النفس: رضا النفس، كتاب الله: القرآن الكريم، سنتي: السنة المحمدية.

الشرح والتحليل

كان رسول الله ﷺ أصفى العرب أسلوباً واعظمهم تأثيراً في نفوس مستمعيه ولا غرو فقد ادبه ربه فاحسن تأديبه وأعطاه جوامع الكليم وعلّمه البيان فكان افصح الفصحاء وتضمنت الخطبة القوانين الآتية:



1) تحريم دماء الآخرين وأموالهم.

2) أداء الامانة إلى أصحابها.

3) حقوق المرأة والاستيصاء بها.

4) الاخوة وما تقتضيه من المحافظة على أموال المسلم وعدم مساسها الا برضاء.

5) النهي والتحذير عن الابتعاد عن الإيمان والفرقة التي توجب الاقتتال .

6) القرآن الكريم هو شريعة المجتمع.

إن النداء في أول الخطبة هو للناس جميعاً وليس خاصاً بالمسلمين وحدهم لأن الأمر يتعلق بالناس كلهم، وأن التشبيه في قوله (إن دماءكم... يومكم هذا) لتوضيح حرمة دماء الآخرين، وأن الاستفهام في (هل بلغت) يفيد التقرير وجاء تاليا لـ (الام التي تفيد تنبيه المخاطب إلى أهمية ما يأتي بعدها) وأن الأمر في (فليؤدها) للإلزام والتنفيذ، وأما قوله (كتاب الله وسنتي) هو تفصيل بعد إجمال وقد تنوعت الأساليب بين الخبر والإنشاء، وجاءت بعض الأساليب الأدبية مؤكدة مثل قوله (إن دماءكم وأموالكم) و(ان مآثر الجاهلية موضوعة) و(ان لنسائكم عليكم حقا) وكلها تقوى المعني وتنزع الشك كما ورد في الخطبة أسلوب القصر في قوله (إنما المؤمنون اخوة) وقد استأثرت خطبة الرسول محمد ﷺ بوحدة الموضوع وقصر الفقرات واشتمالها على عنصري الاستحالة والإقناع، كما برز تعدد توكيد الإيمان وعدم الرجوع إلى الشرك بعد وفاته ﷺ.

علي بن أبي طالب عليه السلام

حياته :

علي بن أبي طالب ولد في مكة سنة 600م، ونشأ في حجر محمد ﷺ لا يفارقه ويشهد الغزوات كلها الا غزوة تبوك . وكان شديد البلاء في الحروب حتى لقب بسيف الإسلام.

تزوج فاطمة بنت محمد فولدت له الحسن والحسين. ولما توفي محمد ﷺ ولي الخلافة أبو بكر، ثم عمر ثم عفان، فكان عليّ للجميع ظهيراً ومعيناً ومشيراً.

وفي سنة 656م/35هـ بويع عليّ بالخلافة، فأخذ معاوية بن أبي سفيان يؤلب بني أمية عليه، وانضمت اليهم عائشة وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وذهبوا إلى البصرة يبعثون فيها الفتنة، فلم ير عليّ بدا من السير اليهم، بسبعة آلاف مقاتل، فالتقى الجيشان واقتتلا قتالاً شديداً كان النصر فيه لعليّ، وسميت لك الحرب (واقعة الجمل) لأن عائشة كانت على جمل تحرض الأبطال على عليّ وجيشه.

ثم سار علي لمحاربة معاوية في صفين وكاد يتغلب فعمد الأمير الأموي إلى الحيلة، وأمر برفع المصاحف على الرماح، فكف المنتصرون عن القتال وكان يسقط لعلي بحيلة عدوه، وختم التحكيم المأساة، فأسقط فيه ابن أبي طالب ولم يسقط معاوية، فعاد علي إلى الكوفة يستعد لحرب عدوه، فقتله عبد الرحمن بن ملجم بسيف مسموم وهو في مسجد الكوفة، وذلك سنة 661م/ 40هـ.

آثاره :

ينسب إلى علي ديوان شعر في الزهد والحكم، والأشعر انه منحول بجملته وينسب إليه في النثر اثنا عشر مؤلفاً، في الحكم والوعظ، أهمها وأشهرها (نهج البلاغة).

1- مضمون نهج البلاغة: هو كتاب جليل جمع فيه الشريف الرضي (1015م/ 406هـ) كل ما ينسب إلى الإمام علي من خطب وأوامر، وكتب ورسائل وحكم ومواعظ، وشرحه كثيرون من الناس منهم ابن الحديد (1190- 1257م/ 586-655هـ) والشيخ محمد عبده. وطبع مراراً في بيروت ومصر والهند والعجم.

2- صحة نسبته إلى علي: يذهب بعض النقاد إلى ان (نهج البلاغة) من وضع الشريف الرضي لا من وضع علي، وهم يعتمدون في ذلك على البراهين التالية:

1- في الكتاب من التعريض بالصحابة ما لا يمكن صدوره عن مثل الإمام علي.

2- في الكتاب من الأفكار العميقة، والأحكام في الفكرة، واستعمال الألفاظ الفلسفية الاصطلاحية كالأين والكيف، ونحوهما واستعمال الطريقة العددية في شرح المسائل وفي تقسيمات الفضائل أو الرذائل، والدقة في الوصف، واستفراغ صفات الموصوف- كما مر الكلام على الطاووس والنملة وغيرهما- ما لم يوجد في عصر عليّ، ولم يعرف عند العرب إلا بعد ترجمة كتب اليونان والفرس الأدبية والحكمية.

3- في الكتاب من السجع والتنميق اللفظي وآثار الصنعة ما لم يعهده عصر عليّ، وإنما ذلك طرأ على أساليب الكتابة في أواخر العهد الأموي وفي العهد العباسي.

4- في عبارات الكتاب ما يلمس منه ادعاء علم الغيب، وهذا أمر بعيد عن رزانة علي وعن أخلاقه الرفيعة.

تلك براهين أصحاب هذا الرأي وهي تصطدم ببراهين من يثبتون أن الكتاب بمجمله لعليّ، معتمدين على قوة تفكير الرجل ونبوغه الفطري ومنزلته

الدينية والاجتماعية الرفيعة، مبينين أن ما يعد غريباً ليس سوى ثمرة العقل المفكر، وأن السجع والتنميق في الكتاب عن طبع لا عن صنعة، وأن ما يرى ادّعاء لعلم الغيب ليس سوى استنتاج القضايا الاجتماعية عن مقدماتها وأسبابها.

ومما ريب فيه ان الكتاب لا يخلو من المنحل المدخول الذي لا تصح نسبته إلى الإمام، ولكن تفصيل ذلك مما لا طائل تحته في دراستنا الأدبية هذه.

3- شخصية علي في نهج البلاغة: يبدو علي في نهج البلاغة ذا شخصية فذّة فهو رجل العقيدة القوية والإيمان الحي، الذي تقوده العقيدة إلى القيام بجميع شعائر الدين، وإلى حمل الآخرين على إتباعه في هذا السبيل، وهو لا يعرف في ذلك هوادة، ولا يقيم فيه حداً، ومن ثم نلمس في نصائحه وحكمه قسوة وصلابة.

وتقوده عقيدته الحية أيضا إلى الاستقامة التي لا تعرف التواء ولا عوجاً بل تمضي في سبيل العدل والواجب، غير مراعاة للخواطر ولا محاباة للوجوه، فلا يحجم عن الشدة والقسوة في الدفاع عن الحقوق سواء أفردية كانت أم اجتماعية، وهذه الاستقامة الصلبة التي لا تتبع طرق السياسات الإنسانية ولا تلين في حال من الأحوال، وقفت دون شعبيته بعض الوقوف، ودون النجاح الكامل في تدابيره الإدارية فكان ضحية استقامته.

وكان إلى ذلك طموحاً في الحقا الأدبي والأخلاقي يريد ان يكون مثالاً عالياً في الأخلاق والنزاهة والتجرد.

وكان شجاعاً جريئاً في الدفاع عن آرائه والعمل بما تمليه الاستقامة، وفي الحرب وحومة القتال، لا يخشى موتاً، ولا يرهب عدواً، إلا أن شجاعته لم تحجر قلبه، فكان رقيق القلب عميقها تظهر تلك الرّقة في مواقف كثيرة ولاسيما عند دفن فاطمة زوجته إذ ظهر أن " حزنه سرمدٌ وليله مسهد .... " .

4- قيمة نهج البلاغة: إن في الكلام علي بن أبي طالب ثروة معنوية تفرد له مكاناً خاصاً في أدب ذلك العهد، وثروة مبنوية تجعل في كلامه متعة

أدبية وجمالاً فنياً . ولكي نقف على بعض هذه الثروة نستعرض أنواع كلامه – الحكم، الرسائل، والمواعظ - مبيّنين قيمتها المعنوية وقيمتها الفنية:

1-الحكم: إمّا الحكم فهي عبارات موجزة تمتاز بفكرة قويّة هي ثمرة التفكير أو الاختبار، تخرج مقتضبة رشيقة المبنى، تعلق في الأذهان بسهولة لأنها ترد في صورة قوية كما في قوله : " إذا كنت في إدبار والموت في إقبال فما أسرع الملتقى"(1) أو ترد في مظهر من مظاهر الطباق كما في قوله : " أشرف الغني ترك المنى" أو في تركيب غامض من براعة الموازنة : " مَن حذّرك كمن بشرك "، أو من حسن استعمال أحرف الجر : " الصبر صبران، صبر على ما تكره، وصبر عما تحب " أو من حسن تتابع الجمل والتشبيهات : " لا غنى كالعقل، ولا فقر كالجهل، ولا ميراث كالأدب، ولا ظهير كالمشاورة .. ".

2-الرسائل: تمتاز رسائل علي بإيجازها، فأكثرها لا يتجاوز العشر أسطراً، أما معانيها فهي صادرة عن رجل سياسة وإدارة، تصطبغ بتلك الصبغة نفسها، وترمي إلى التحريض والنّصح والاحتجاج . والكلام طبيعي لا يخلو من التنميق البديعي، وينزع نزعة الإيجاز والجزالة، فلا أطناب ولا اضطراب ولا إسفاف : " أعلموا أنَّ مقدّمة القوم عيونهم، وعيون المقدّمة طلائعهم (2)، وإياكم والتفرُّق، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً، وإذا ارتحلتم

(1) أي يطلبك الموت من خلفك وانت تقرّب عليه المسافة بإدبارك نحوه : وهذا حث على الإقدام لأن في الفرار الهلكة.

(2) الطلائع ج طليعة وهي مقدمة الجيش، من يبعث قدّامه ليطلّع احوال العدو .

فارتحلوا جميعاً، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرّماح كِفة [1]، ولا تذوقوا النوم إلا غِراراً[2] أو مضمضةً [3].

3-الخطب والمواعظ: هي أصدق صورة لنفس الإمام علي، أودعها أعطر ما في قلبه من التقوى الحقيقية المرتكزة على إيمان وثيق بالله، وإعجاب بمخلوقاته وكمالاته، وزهد بالخيرات الزائلة، وإيمان الإمام ناطق في كل موعظة من مواعظه، فهي معطرة بذكر الله، تتصاعد منها صلوات حارة جميلة كأجمل ما قيل في حديث الإنسان إلى ربه : " اللهم أغفر لي ما أنت أعلم به منّي . فإن عُدت فعد عليَّ بالمغفرة الهمَّ أغفر لي رمزات[4] الالحاظ وسقطات الالفاظ وشهوات الجنان وهفوات اللسان".

وكثيراً ما يطير قلب الإمام إلى التأمل بعجائب الله ومدح كمالاته وأعماله؛ فيخط تلك المقطوعات الشعرية في وصف النملة والطاووس والخفاش التي هي من روائع الفن الوصفي الدقيق، ويخط تلك الحمدلات النابضة بشكر صحيح : " هو الأوَّل لم يزل والباقي بلا أَجل، خرَّت له الجباه ووحَّدته الشفاه ... لا يخفى عليه من عباده شخوص [5] لحظة، ولا كرور لفظة ... " وينتقل الإمام من عواطف الإعجاب بمخلوقات الله وكمالاته إلى عاطفة الزُّهد في الدُّنيا. ثم ينزل إلى ميدان الحياة فيعمل على مناصرة الحقّ ليظهر على الباطل في السياسة والاجتماع.

---

(1) الكِفّة: مثل كفّة الميزان، فانصبوها مستديرة حولكم، محيطة بكم كأنها كفة الميزان .

(2) الغِرار: النوم الخفيف.

(3) المضمضة : ان ينام ثم يستيقظ ثم ينام ...

(4) رمزات : الالحاظ : الإشارات والإيماءات.

(5) الشخوص : الارتفاع.

عبقرية الإمام:

تتجلى لنا في كتاب (نهج البلاغة) عبقرية الإمام علي بكل وضوح. وهي قائمة على عقل ذكيّ، واسع الإدراك عميق لا تفوته دقائق الأمور فيسبر الأغوار، ويرسل الأفكار مُنخَّلةً، ثابتة، بعيدة عن الاضطراب والضعف، كثيرة تتدفق في كل لفظة وكل جملة، متسلسلة تترابط وتتساوق على غير ما عهدناه في النثر القديم.

وعبقرية الإمام قائمة أيضاً على خيال واسع الآفاق، دقيق التصوُّر، واضح المعالم، يتخذ صوره من الواقع، ويخلق منها مشاهد واقعية رائعة، ولوحات فنيّة كثيرة الجمال، ويمتزج ذلك الخيال بشعور حيّ دافق، يبعث في المشاهد والصور حياة ونبضاً فتنطلق بليغة وتؤثّر أشدَّ التأثير.

أضف إلى ذلك كلّه ملكة الكلام ومعرفة بديهيّة بوسائل التعبير وأساليب الفنّ مما جعل نثر عليّ خزانةً جمعت بين الطبع والصنعة جمعاً شديداً حتى لا تكاد لا تتميّز الصنعة عن الطبع الحسن لحسن تمازجهما وتآلفهما، ولحسن تأثر هذا بتلك. فمقدرة الرجل غنيّة بوسائل الإبلاغ التي يعمد إليها عن غير إجهاد عقل، ويقصد إليها قصداً للتقرير، فتأتي التشبيهات والصور والأمثال والاستعارات وضروب الموازنة والمرادفة والتوقيع والتشجيع. كأنها من وحي الخاطر والطبع، ومن مقتضيات المعنى الذي يختلج في الصدر ونبعثه عقيدة قويّة. كل ذلك في لغة جاهلية صقلها وليّنها العهد الجيد والحضارة الجديدة، وتصاعدت من أجزائها وتآلف تلك الأجزاء، موسيقى عذبة تجعل من النثر شعراً له أوزان خاصة، وأنغام تشتد أو تلين على ما تقتضيه الحال.

فلا عجب بعد ذلك كلّه إذا كان كتاب (نهج البلاغة) ثروة فكرية وأدبية واسعة. ففيه الدعوة الملحة إلى العمل بشعائر الدين والى إتباع تعاليم القرآن وتعزيز كل ما هو شرف الغاية، والحث على السير في سبيل الفضائل. وهو يجمع الدين إلى الاجتماع والسياسة، ويجعل الدين أساساً لهما، فهو يريد مجتمعاً يجري

على سنن العدل والمساواة والحرية. وللعدل محلٌ واسع في الكتاب يجعله الإمام من مقتضيات الحياة الجوهرية . وحفاظاً عليه يطلب أن يكون الحكام والقضاة ذوي استقامة لا يشترون بمال ولا يخافون العزلَ من وظيفتهم، فيحرّص على حسن اختيارهم، ويجعل لهم راتباً يكفيهم مؤونة السَّرقة والرغبة في الرشوة. ويحرص على أن يجمع الحاكم بين الشدة واللين وان يخدم شعبه خدمة الإخلاص والتفاني.

أمَّا الشعب كله فيريده الإمام موحد الكلمة، مجتمع الرأي، لا تمزقه التفرقة ولا تلعب به الأهواء، وأمّا الجنود فيرى فيهم الإمام حصناً حصيناً للشعب، وزينة للحكّام، ودعاة للسلام، والأمن لا يقومان بدونهم. فعلى الحاكم ان يستميلهم لتكون لهم فيه الثقة الكاملة والمحبة الخالصة، وأحسن وسيلة لذلك الحفاظ على حقوقهم.

وفي الكتاب إلى جنب هذه التعاليم آراء شتى في الفلسفة الماورائية والفقه، ومعلومات تاريخية جمّة، مما يجعل له محلاً رفيعاً في عالم الأدب والدين والاجتماع[1].

---

(1) تاريخ الأدب العربي- حسن الفاخوري، ص 320.

خطبة الإمام علي عليه السلام في أصحابه بالكوفة

حين انتهى الإمام علي من حرب الخوارج بالنهروان، وعاد إلى الكوفة ظل يدعو أصحابه إلى الخروج لقتال أهل الشام أتباع معاوية الذين ظلوا يغيرون على النواحي التابعة له، يروعون أهلها ويغنمون ما فيها، وكان منها ما رواه الجاحظ من أن سفيان بن عوف الأزدي ثم الغامدي أغار على الأنبار وقتل عامل علي عليها ابن حسان أو حسان البكري، وأزال الخيل عن مسالحها، فبلغ الخبر الإمام علياً فوقف خطيباً على الناس، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال داعياً قومه إلى الجهاد[1]:

" أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذلة وشمله البلاء، وألزمه الصغار، وسيم الخسف، ومنع النصف، ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، سراً واعلاناً، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلاّ ذلوا فتواكلتم وتخاذلتم، وثقل عليكم قولي واتخذتموه وراءكم ظهرياً حتى شنت عليكم الغارات . هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار وقتل حساناً- أو ابن حسان – البكري وأزال خيلكم عن مسالحها[2]، وقتل منكم رجالاً صالحين، وقد بلغني ان الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع أحجالها وقلبها ورُعثُها[3]، ثم انصرفوا ما كلم رجلٌ منهم كلماً[4]، فلو أن أمرأً مسلماً

---

(1) ينظر الخطبة في البيان والتبيين ج2 ص 238.

(2) المسالح: جمع مسلحة وهي موضع السلاح أو المرقبة وقد تطلق على الجماعة او القوم ذوو السلاح، والمسلحة أيضا المركز المتقدم للجنود.

(3) احجال جمع حجل وهو الخلخال الذي تلبسه المرأة في قدميها والقلب سوار المرأة، والرعث جمع رعاث والرعاث جمع رعثة وهي القرط الذي تعلقه المرأة في أذنيها.

(4) ما كلم كلماً: ما جرح جرحاً.

مات من بعدها أسفاً ما كان عندي ملوماً، بل كان عندي به جديراً، فيا عجباً من جدّ هؤلاء القوم في باطلهم وفشلكم عن حقكم، فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً يرمي وفيئاً ينهب[1] يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغْزون ولا تَغزُون، ويعصى الله وترضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في الحر قلتم حمارة القيظ[2]، أمهلنا حتى ينسلخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير في البرد قلتم أمهلنا حتى ينسلخ عنا القر، كل هذا فراراً من الحر والقر، فإذا كنتم من الحر والقر تفرون فأنتم والله من السيف أفر، يا أشباه الرجال ولا رجال، ويا أحلام الأطفال[3]، وعقول ربات الحجال[4]، وددت أن الله أخرجني من بين ظهرانيكم وقبضني إلى رحمته من بينكم، ووالله لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم. معرفة والله جرت ندماً، وورثت صدري غيظاً، وجرعتموني الموت أنفاساً، وأفسدتم عني رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب! لله أبوهم! وهل منهم أحد أشد لها مراساً وأطول لها تجربة مني؟ لقد مارستها وما بلغت العشرين، وقد نيفت فيها الستين، ولكنه لا رأي لمن لا يطاع".

والخطبة – كما نرى – اشتملت على عدة أفكار يبدأها الإمام علي بالحديث عن الجهاد في سبيل الله وقيمته لمن يرغب فيه ويؤدي حقه وأثره فيمن يرغب عنه ويتقاعس عن حقه، فقيمته الجنة وأثره الخزي والذلة والبلاء والصغار، ثم وضح لهم كيف انه ظل يدعوهم إلى حرب أعدائهم، وكيف أنهم يتواكلون ويتخاذلون عن إجابة دعوته والانصياع لأمرته، ثم روى لهم ما نما إليه من خبر سفيان بن عوف الغامدي، وإغارته على الأنبار وقتله الرجال وغنمه الأموال حتى النساء المسلمات والكتابيّات لم يسلمن من شره وأذاه، وهو يعجب

---

(1) الترح وجمعه أتراح الحزن والهم.

(2) الحمارة شدة الحر.

(3) أحلام جمع الحلم وهو العقل.

(4) ربات الحجال النساء.

كيف أن هؤلاء جادون في باطلهم وكيف ان مخاطبيه متقاعسون في حقهم. ثم صوّر لهم الحال المزرية التي صاروا إليها في شأن الجهاد، فقد صاروا غرضاً يصيبه الأعداء وغنيمة ينتهبها المغيرون، يغار عليهم في حماهم، ويُغزون في ديارهم، ويعصى الله تحت سمعهم وبصرهم، وهم بهذا كله قانعون راضون، لا يغزون ولا يغيرون. إذا دعاهم إلى الحرب والجهاد تعللوا بالمناخ وأحواله شتاءً وصيفاً وهم إنما يفرون من السيف لا من المناخ وحره وبرده.

ويبدو أن الإمام علياً كان قد بلغ أمرهم به مبلغاً كبيراً في نفسه، ولذا نراه يعمد إلى وصفهم بالصغار والضعف وقلة العقل، كما يعمد إلى تمنيه أن يخرجه الله من بينهم أو ألا يكون قد عرفهم أو عرفوه، فقد خلفت معرفته إياهم ندماً في نفسه، وغيظاً في صدره، وجرع بها الموت أنفاساً، وذلك بإفسادهم عليه رأيه بخذلانهم وعصيانهم حتى ادعت قريش انه شجاع ولكنه ليس بذي خبرة في الحرب، وكيف ذا وهو الذي خاض غمارها شاباً لم يبلغ العشرين وترعرع فيها حتى صار شيخاً في الستين، ولكن حقيقة الأمر وفحواه انه يأمر فلا يطاع، ويدعو فلا يجاب، ولا رأي لمن كانت هذه حاله.

والخطبة بعد هذا كله تصوير واضح للحال التي صار إليها الإمام علي مع أهل الكوفة ومواقفهم منه منذ أن حل بينهم بعد خلافه مع معاوية الذي استأثر بالشام ثم ما فتئ يضم إليه المصر تلو المصر وهو عاجز عن ان ينهض له التخاذل أصحابه واستمرائهم حياة الدعة والأمن، وهي بجانب هذا تعبير عن إحساس حزن وألم أحسه في نفسه نحوهم وتصوير للمصير الذي انتهى إليه معهم في أخريات أيامه.

ولقد كان الإمام علي واضح التعبير في أسلوبه صادق المعاني يلجأ إلى الحق في تصوير ما يريد، يصف أصحابه في صدق تمويه أو موارية، ويصف حاله كذلك دون التواء أو غموض، تقصر جملة أحياناً وتترادف متتابعة لتوضح الغرض، تكشفه وتجلوه أتم كشف وجلاء، وتطول أحياناً أخرى جرياً وراء

المعنى واقراره في نفوس متلقي خطبته، وهو في نظم جمله لا يعتمد السجع سبيلاً، وإنما يرسل الكلام ترسيلاً، يوشيه بالمقابلات تارة، وبالخيال تارة أخرى، وبالترادف وتتابع الجمل ذات المعنى الواحد تارة ثالثة، فهو يقابل في فنيه بين جد خصومه في باطلهم، وتهاون أصحابه في حقهم ويطابق في عبارات متتالية (يغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزون ولا تغزُون ويعصى الله وترضون) وهو ان اعتمد الترسل في خطبته فإنها لم تخل من بعض السجع الذي يجيء عفواً لا قصداً، مثل (يا أشباه الرجال ولا رجال، ويا أحلام الأطفال، وعقول ربات الحجال) ومثل : (لقد مارستها وما بلغت العشرين، وقد نيفت فيها الستين) والخيال في الخطبة وان جاء قليلاً فقد دل هو الآخر على فنية مقتدرة، انظر الى التصوير بالكناية في موقف أصحابه من قوله فقد قال: (واتخذتموه وراءكم ظهرياً)، كناية عن عدم اهتمامهم بما يقول، واهمالهم لما يجود عليهم به من رأي ونصح.

وانظر الى التصوير الاستعاري في قوله : (ألبسه الله ثوب الذلة)، وقوله (وجرعتموني الموت أنفاساً) لتدرك حقيقة إن الإمام علياً عليه السلام مالك لناصية اللغة في خطبة قادر على إرسال معانيه في جميع الأحوال والمواقف حتى عد أخطب العرب بعد رسول الله ﷺ.

والخطبة فوق هذا تدل ظاهرة التنقل بين الإيجاز والأطناب التي أشار إليها الدكتور زكي مبارك من ان مسألة الإيجاز والأطناب كانت تجري في الغالب على مقتضى الحال، والخطباء في هذا لا يرجعون إلى قاعدة غير المناسبات التي توجب، فتقضي مرة بالأطناب، وتقضي حينا بالإيجاز[1]، والإمام علي في خطبته هذه نراه يلجأ إلى الإطناب في المعاني التي يريد تأكيدها في نفوس مستمعيه، فهو حين أراد يبين أثر ترك الجهاد فيمن يتركه لجأ إلى تتابع الجمل ذات المعنى الواحد فقال : (ألبسه الله ثوب الذلة وشمله البلاء، وألزمه الصغار، وسيم

---

(1) النثر الفني في القرن الرابع ج1 ص 68.

الخسف ومنع النصف)، وكلها جمل تؤكد المصير السيئ الذي يلقاه من يرغب عن الجهاد وكذلك لجأ إلى تتابع الجمل ذات المعنى الواحد حين أراد ان يبين حاله من معرفته لأهل الكوفة فقال : (معرفة والله جرت ندماً وورثت صدري غيظاً ، وجرعتموني الموت أنفاساً) وهي جمل تتوالى لتؤكد معنى الأسف والحسرة التي أصابت الإمام علي من حال أهل الكوفة في شأن مناهضة أعدائه وخصومه.

إن ظاهرة الإطناب في هذه الخطبة يمكن ان نضيف إليها ظاهرة تنمية الفكرة التي برزت فيما بعد عند كتاب العصر العباسي وخطبائه إذ ترى الإمام عليا حين صور حال النساء في الأنبار وما وقع لهن من رجال سفيان بن عوف، وانصرافهم دون ان يمسوا بسوء فقد نمى من ذلك فكرة تتمثل في قوله لو ان امرأ مسلماً مات أسفاً على ذلك لما كان ملموماً ثم وسع الفكرة بقوله بل كان عندي به جديراً ، وكذلك نراه ينمي فكرة فرار أهل الكوفة من الخروج إلى الحرب في الصيف والشتاء فيخرج بنتيجة هي فكرة في حد ذاتها وهي أنهم من السيف أفر[1].

---

(1) محمد عثمان علي، في أدب الإسلام، ص258.

الكتابة والرسائل

عرف عصر صدر الإسلام نوعاً من الكتابة هو الكتابة الديوانية وعرف أدب الرسائل الذي تميز بميزات الخطابة الإسلامية معنى ومبنى. لقد اثبتت الايات القرآنية ضرورة الاهتمام بالكتابة والاعتناء بها فقد نزلت أول أية على الرسول ﷺ تدعو إلى القراءة والتعلم بالعلم. وقد جعل الإسلام الكتابة في بعض تشريعاته التي تتصل بالمعاملات وتنظيم الحياة المالية بين افراد المجتمع الاسلامي يضاف إلى ذلك عنايته ﷺ بالكتابة والقراءة وحرصه على ان يتعلمها ابناء المسلمين الاوائل كما هو وضاح في خبر اسرى قريش في يوم بدر حين أذن الرسول محمد ﷺ لمن لم يستطيع فداء نفسه بمال أو عرض ان يكون فداؤه تعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة والقراءة.

وعندما جاء الإسلام وصار للعرب دولة به حتى نشأ الخط والكتابة ونهضت الرسائل الديوانية كما نهضت منه الرسائل بين الافراد وقد بدأ حينما استخدم الرسول محمد ﷺ الكتابة في شؤون الدين والدولة حيث كان له كتاب متخصصون في الامور الكتابية المختلفة . ومنهم من كان يكتب له ما يعرض من اموره وحوائجه ومن يكتب له بين الناس من المداينات وسائر العقود والمعاملات ومن يكتب له إلى الملوك ويجيب رسائلهم ويترجم باللغات الفارسية والرومية والقبطية والحبشية ومن كان يكتب له الوحي الذي نزل عليه.

وإن كتب الرسول نوعان: الاول عهوده ومواثيقه التي كان يكتبها للقبائل وغيرهم منها كتاب بين المهاجرين والانصهار وعهد صلح الحديبية، والثاني الكتب الموجهة إلى الملوك يدعوهم إلى الاسلام، وعرفت السنتان الثامنة والتاسعة من الهجرة بكتابة العهود والمواثيق منها كتاب العهد الموجه إلى ملوك حمير وأسلوب هذه العهود أنها متكونة من ثلاثة اجزاء: مقدمة وموضوع وخاتمة.

واستمر الخلفاء الراشدون بالكتابة فقد أصبحت الكتابة في عهد عمر بن الخطاب (رض) جزء أساسيا في اعمار الدولة وحتى تتضمن كل تعاليمها وكل مارسمته للمسلمين وأهل الذمة من العلاقات السياسية والاقتصادية في الخراج وقسمة الغنائم وكل ما يتصل بالانظمة في الشعوب المفتوحة. وجاء هذا التطور بسبب اتساع رقعة الدولة وتعدد جبهات القتال في الفتوحات الإسلامية وكثرة القادة والعمار والولاة.

رسالة الخليفة عمر بن الخطاب إلى ابي موسى الاشعري(1) :

(أما بعد، ان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فأفهم إذا أولى إليك، فأنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، وأس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك، والبينة على من أدعى واليمين على من انكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرم حلالاً أو أحل حراماً، ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس فراجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه، فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم الفهم عندما يتلجلج في صدرك مالم يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبي ﷺ . اعرف الامثال والاشباه، وقس الامور عند ذلك، ثم اعمده إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى واجعل للمدعى حقاً غائباً أو بينة احدا ينتهي إليه فان احضر بينة أخذت له بحقه وإلا وجهت عليك القضاء فان ذلك انقى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر...) .

التحليل :

إن الرسالة تعد دستورا نفيساً يضع الأسس المتينة التي ينبغي إن يقوم عليها القضاء في الدولة فهي الأصول التي يعتمد عليها القاضي في حكمه وتعطي القضاء مراجعة حكمه الذي قضى به مما يسمى ينقض الحكم (التمييز) الذي يقوم به من وقع عليه الحكم. وتحدد الرسالة مصادر التشريع التي يهتدي القاضي في ضوئها إلى منطوق الحكم وهي كتاب الله وسنة النبي محمد ﷺ فإن لم يجد فيها ما يهتدي به إلى الحكم فعليه إن يجتهد برأيه معتمداً في ذلك على القياس وتضع الرسالة امدا يلتزم به القاضي مع المدعي لا ظهار حقه وبينته

---

(1) تسمى رسالة القضاء.

فإن احضر بينته لحق حكم له به وإلا وجه القضاء عليه وكل ذلك نفى للشك وجلاء للعماية وبلوغ في العذر.

إن هذه الرسالة نص أدبي نثري راق من نصوص عصر صدر الإسلام بينت بلاغة منشئها فقد استهلها بـ (أما بعد) وهي ما تستهل به الرسائل ويؤكد كلامه بالتوكيد ولأنها وصية وتبليغ ترى أنها موجهة مباشرة باستخدام افعال الامر وشملت حكماً قضائياً ما يزال يعمل به حتى اليوم وهو موقع اليمين والانكار، ووضع شروطاً للمصالحة بين المسلمين ودعا إلى معرفة الامثال والاشباه لزيادة المعرفة في القياس في الاحكام . في النص روح إسلامية وترى الالفاظ الجديدة التي جاءت في القرآن الكريم : الحق، الباطل، الهداية، ....في مواقعها في الرسالة وهي تصب في المعاني الإسلامية لتحقيق غايتها في التوعية والارشاد والالتزام.





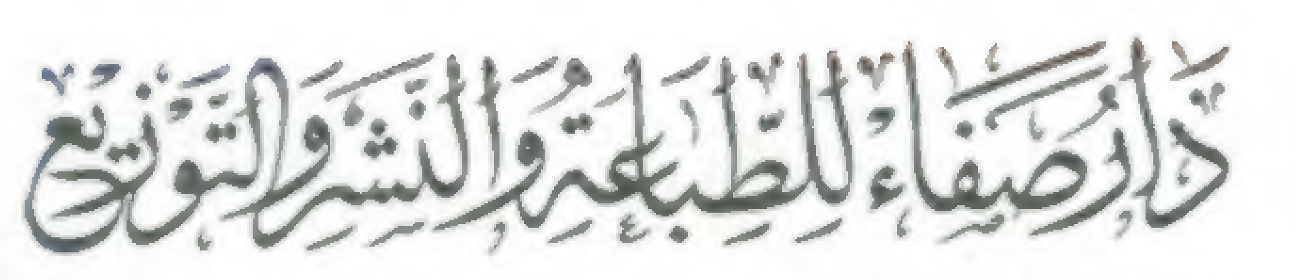


مؤسسة دار الصادق

طبع . نشر . تو

العراق - بابل 1233129

sadiq@yahoo.com





المملكة الأردنية الهاشمية - عمّان - شارع الملك حسين

مجمع الفحيص التجاري - هاتف: 4611169 6 962+

تلفاكس: 4612190 6 962+ ص.ب 922762 عمّان 11192 الأردن

E-mail: safa@darsafa.net www.darsafa.net